عفة محمود

# الروحانيات والتصوف في فكر كمال جنبلاط



عفّة محمود

# الروحانيّات والتصوّف
# في
# فكر كمال جنبلاط

الدار التقدّمية

عفّة محمود/الروحانيّات والتصوّف في فكر كمال جنبلاط

جميع الحقوق محفوظة للمؤلّفة

الدار التقدّمية

المختارة ـ الشوف ـ لبنان

هاتف: ٣١٠٥٥٥/٥ـ٩٦١ـ ٣١١٥٥٥/٥ـ٩٦١

E – mail: moukhtarainf@terra.net.lb

http : //www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى ٢٠١٠

# كلمة شكر

ما من عمل يبصر النور إلاَّ وخلفه جهود مضنية وحثيثة، وأيضًا خلفه جنود مجهولون واكبوا العمل وأبدوا ملاحظاتهم، وشاركوني جميع المراحل الفرِحة والمحرجة على حدٍّ سواء، إلى زوجي العزيز مروان وأولادي الغوالي رغيد، غيداء وأمير وإلى أهلنا جميعًا أتقدَّم بالشكر والامتنان وأقدِّم عملي هذا.

ولا يمكن أن أنسى من أعطوني من ينابيعهم المعرفية، معرفة أعتزّ بها وأفتخر في كلّ حين، إلى أساتذتي الكرام وأخصّ منهم بالشكر الجزيل والاحترام والتقدير الدكتور المشرف على رسالتي هذه الدكتور محمَّد شيّا.

هذا الكتاب رسالة حازت على تقدير «جيِّد جدًّا» في دبلوم الدراسات العليا قسم الفلسفة.

والله وليّ التوفيق

# مقدّمة

كمال جنبلاط رجل أسطورة، جاهد وناضل طوال سنين حياته من أجل الإنسان ورفع مستوى حياة هذا الكائن البشري على جميع الأصعدة، وفي كافّة المجالات، شغل العالم بفكره وعلمه وسعة اطّلاعه وقدراته الهائلة، ونظرته المستقبلية الثاقبة لكافّة أوجه الحياة. من يقرأ لجنبلاط يدرك أنه عالِم فيلسوف، مفكّر وفي كلمة جامعة إنسان حكيم. هذه الحكمة والروحانيّة التي تحلّى بها كانت عميقة الجذور والأثر، وهي من نسيج خاصّ ارتقت إلى مستوى كشف الحُجب في ذات جنبلاط، فرفعته بعناية، وساعدته في كلّ أمور حياته، فبرز بإنسانيّته، ونبله وتواضعه، وميله للحياة البسيطة الهانئة، فكان كمال جنبلاط بشخصه وشخصيّته الفذّة، وروحانيّته العميقة.

الروحانيّات هي الجانب غير المادّي في حياة الفرد أو الجماعة، هي ذروة الاتّجاه الأخلاقي، ثمَّ الديني، ثمَّ العرفاني، أي الذي يتجاوز الدين كفكر، ويغدو أقرب إلى التصوّف. والروحانيّات التي ندرسها عند كمال جنبلاط هي مجموع مواقفه في المسألة الدينية ومظاهر إيمانه الديني، ثمَّ مظاهر تجاوزه للمعتقد الديني نحو شيء أعلى مختلف هو مزيج من العقل والتصوّف والممارسات التي قد تكون اليوغا أو العرفان أو أكبر من ذلك.

إنَّ اهتمامي بموضوع الروحانيّات عند جنبلاط يعود لسببين هامّين:

**السبب الأول** أنَّ جنبلاط وبالرغم من الأقلام الكثيرة والمؤلَّفات التي كتبت عنه، ما زال ثريًّا باستمرار بموضوعات جديدة تنتظر البحث فيها، والروحانيّات إحدى هذه الموضوعات. وهذا الجانب لم يكتب فيه الكثير ويحتاج إلى البحث والتوثيق والدراسة.

**والسبب الثاني** شخصي وهو تلك الرؤية[1] التي رأيتها ذات ليلة، وكانت السبب الرئيسي لعودتي إلى مقاعد الجامعة ومتابعة مسيرتي التعليمية، وكان الهد ف أن لا أتوقّف عند الإجازة فقط، بل المتابعة في الدراسات العليا، ونستطيع القول إنَّ الموضوع كان حاضرًا مسبقًا وهو «كمال جنبلاط». أمَّا تلك الرؤية فهي: زارني جنبلاط في المنام في بيتنا المتواضع، وكان يرتدي عباءته السوداء المقصّبة، منتصب القامة وكنت أقف أمامه، تمامًا كالاَبنة التي تقف أمام أبيها بشغف ولهفة، وهو ينظر إليّ ويقول: «بتجي نكون فلاسفة؟» فأجبته فورًا: «أنت إيه، بس أنا منَيْن يا حسرة؟!»، وركعت أمامه. وبقي هذا الحلم في البال والذاكرة، وكنت في كلّ مرة أتذكّره أشعر بأنه هناك رسالة يجب العمل عليها، وهكذا ساعدتني القدرة الإلهية وعائلتي على تحقيق هذا الحلم.

نعود إلى موضوع الرسالة فأقول إنَّ علامات هذه الروحانيّة برزت عند جنبلاط منذ الصغر، أمَّا التفكير في موجد الوجود، والمبدع فيقول جنبلاط إنَّها تفتّحت في داخله في سنّ الصغر في عمر ثلاث عشرة

(١) الأحلام تخضع للمؤثّرات الثقافية، فليس ممكن فصل البشر وأحلامهم عن البنية الاجتماعية التي ينتمون إليها أو يعيشون فيها، فيجد تفسير الحلم في جذوره الاجتماعية في أوضاع اجتماعية ثقافية مخصوصة. والرؤية الصافية التي تحدث للأنبياء مثلاً تكون نوع من الوحي والأمر الإلهي. مثلاً قصّة النبي ابراهيم مع ابنه اسماعيل عندما رأى نفسه يذبح ابنه، حيث وافق اسماعيل على هذا الفعل، وفي تلك اللحظة هبط جبرائيل ومعه كبش حيث أمره أن يذبحه بدلاً من ابنه.

سنة. فكان الحقّ قبلته وهدفه الأول والأخير. وفي هذا المقام يقول جنبلاط: «كيف يستقيم إصلاح الظاهر وتطويره إنْ لم ينطلق السعي من الباطن وسمطه وروحه؟ أو كيف يصحّ للمصلحين أن يصلحوا، وهم يتعاطون معالجة الأمر من الخارج، كمن يحاول بناء هيكل من الحجارة للصلاة، قبل أن ترتفع في نفسه صلاة هذا الهيكل ذاته، أو كمن يبتغي اقتناء قيثارة وهو لا يحسن اللعب على أوتارها ليستجلي منها ألحان جنّة قلبه وخياله»[1].

هذه الروحانيّة هي كالبذرة الصالحة مغروسة في الذات فعندما تتوفّر لها التربة الخصبة والمناخ الملائم لا بدَّ أن تخرج وتتفتّق من تحت التراب لتخرج إلى النور نبتة غضّة، يانعة، ولا تموت حتَّى تترك وراءها ثمارًا ناضجة تغلّف بذور جديدة تحمل أصالة البذرة الأمّ.

كان لا بدَّ في مستهلّ الرسالة من الوقوف على حياة جنبلاط، ومراحل دراسته ومصادر ثقافته الواسعة، لأنَّ التنشئة والتربية البيتية لها الأثر الكبير، وأيضًا نباغة وذكاء كمال الطفل حدّدت معالم شخصيّته كمفكّر، حيث كان منذ الصغر يميل إلى الصمت والمراقبة والتأمّل، وعدم ميله إلى الإفراط في الرقّة والحنان والمغالاة في ضبط النفس، كلّها علامات وإشارات ترمز إلى رقيّ داخلي وعمق كبير.

أمَّا مراحل الدراسة فقد فتّحت في داخله حبّ المطالعة والمعرفة، واطّلع على الأديان وعشق آياتها وإنجيلها ووجد أنَّ الجوهر وإن تمظهر في كلّ كتاب بتعبير مختلف إنَّما اللطيف، البسيط الجوهر القدّوس واحد. وأخذ يبحث خلال حياته عمَّا يشفي غليل النفس المتعطّشة

(١) جنبلاط، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، الطبعة الأولى، الدار التقدّمية: ٢٠٠٥، ص. ١٨٥.

للمعرفة ولتوحيد الواحد الأحد في كلّ كتاب، فوجد في الفلسفة الهندية في «الفيدا» ما يؤكّد أنَّ الروافد مهما تعدّدت فالنبع واحد دون شكّ. وأيضًا حاول أن يجد المقاربة بين العلم والدين وبأنَّ الغاية يجب أن توصل إلى الهدف ذاته، فوجد في كتابات الأب دي شاردان ما يوصل هذا الانقطاع الذي كان سائدًا فيما مضى بين العلم والدين. فيقول جنبلاط: «كنت أهتمّ وبشكل خاصّ بفكرة التطوّر وكيف أخرجها الأب تيلاردي شاردان عن نطاقها المادّي التقليدي الذي عرفت به، مكمّلاً بالواقع نظريّة برغسون الشهيرة في «التيّار التطوّري» ومتوّجًا العلم الحديث بالجمع والتوفيق في مجرى التطوّر بين المادّة والروح، ويجعل لهذا التطوّر هدفًا هو تكامل الوعي عن الكائن الحيّ في وثبة الإنسان، الحرّية، وما يسمّيه بالـAssocoationism أي التجمّع العضوي التعاوني»[1].

الأديان عند جنبلاط طريق يوصل إلى الهدف المنشود، فإذا لم يتمّ الدين كلّ هذا في ذاتك عليك أن تسلك طريقًا أخرى، لكنّه يؤكّد أنَّ النبع واحد، وللدين وجه آخر وهو تنظيم الجماعات ورفع مستواها، والدين كشف في نطاق الفكر للكائن الأسمى. وفي أحد مستوياته هو المعرفة ولا يمكن أن يتمّ إيمانكم إلاَّ بالمعرفة، ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى التوحيد إلاَّ بالعلم والعمل مجتمعين.

يقول جنبلاط: «أمَّا قصدي فكان منذ صباي توخّي المعرفة قبل وفوق العبادة، أي الشريعة، لأنَّ المعرفة تضيء سبل الشريعة وهي مفتاح العقل».

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٧٣.

كلّ رسالة من الرسالات السماوية أنزلت للرشد والهداية للعالمين. والتعاليم والسلوكيّات التي يجب اتّباعها والالتزام بها واحدة، وما من فرح يعادل معرفة الحقّ على الحقيقة، فالأديان سفن خلاص للأنفس من حضيض الزمان توصّلاً إلى ملك الأزمان والنور. يقول جنبلاط:

«(...) واعلم أنَّ اليهوديّة والنصرانيّة والإسلام وغير ذلك من الأديان هي ألقاب مختلفة وأسامٍ متغايرة، والمقصود منها لا يتغيَّر ولا يختلف. وللتأكّد من صحّة المقابلة ومن واحدية المشاعر ومماثلة التحقّق والتصرّف كم تنشرح النفس لو قبل كلّ منّا أن يقرأ للآخر وأن يضطلع في مراتب القمم أو في مقامات الحياة العادية، على ما ينصح به كلّ دين، وما يبرز في حياة أوليائه وفي تفكيرهم وعاطفتهم وأقوالهم، وفي ما ينبجس عنه العيش العادي بين هؤلاء «الصغار» على حدّ تعبير الناصري البسطاء والذين تسكن السذاجة والعفويّة قلوبهم، ونسيت أنها من حزب هذا النبي أو ذاك، أو تذكّرت أنها حقيقة لا صباغًا واستئثارًا وتلبّسًا، من حزب عيسى أو من حزب محمَّد...»[1].

وهذا ما يؤكّد وحدة الأديان عند جنبلاط. وهكذا النفوس الفردية تنشد المطلق بطرق مختلفة ويبقى الهدف واحدًا في كلّ كتاب. أمَّا اليوغا فهي طريق أخرى تحرّر الذات، وهي رياضة روحية، واليوغا معناها التوحيد، والذات العارفة هي الذات الهانئة المطمئنّة، فالأتمان نور الوعي، والذات هي النور الذي ينبغي أن نوجِّه الانتباه إليه، أي أن نتّجه بوعينا إلى حقيقتنا الأصيلة والعارية من كلّ المحسوسات حينها يصل العارف والعابد والمتصوِّف والناسك إلى حيث الفرح والسعادة، وتنجلي مرآة

(١) جنبلاط، فيما يتعدّى الحرف، الطبعة الثالثة، الدار التقدّمية: ١٩٨٧، ص. ١٧.

وجوده فلا يعود يبصر سوى الواحد الأحد. لهذا قال جنبلاط: «مولاي أدِرْ مرآة وجودي نحوك لكي لا يعود يبصرك أحد سواك».

الحقيقة الأزلية مطلب الكائنات البشرية قاطبة، وفي الحقيقة يقول جنبلاط: «إن لم نكن الحقيقة النهائية فكيف يمكننا أن نعرف هذه الحقيقة، أو كيف نتمكّن من الوصول إليها؟ إنَّ الحقيقة تعرف لدى البعض وتخفق على البعض الآخر، إنَّها البداية والنهاية، إنَّها الحقيقة المطلقة، الأزلية، أبدية، مشعّة، لا تتجزّأ، بل لا تتغيَّر ولا تزول...»[1].

يتكامل الإنسان بحلول الروح في الجسد، حيث تتابع الروح مسيرة تطوّرها بارتدائها الأقمصة البشرية، لهذا كان «لجسدك عليك حقًّا» والاهتمام بالجسد من حيث النظافة والطعام والشراب كان من الأمور المهمّة لدى جنبلاط، لأنَّ نوعيّة الأطعمة والمشروبات لها تأثير كبير على الأمزجة والفكر. فالشعور بالخير، والتفكير بالخير، وفعل الخير حتَّى تجري في الداخل أقنية الخير، تشكّل حياة هذا الكائن البشري بكلّ توجهّاتها ومراحل تطوّرها أو انحطاطها. فالعقل السليم في الجسم السليم، والاتّزان الداخلي يبرز في السلوك والأعمال، وهذا ما يميّز إنسان عن إنسان آخر.

للحكمة حقائق وفصول وهي الحقيقة المطلقة، هي المعرفة الحقيقية، هي هذا الجوهر اللطيف النوراني، هي العقل الأرفع والأداة الإشراقية الرفيعة. والعقل الأرفع امتداد لتيّار العقل النسبي في المصدر الشرقي الهندي الفارسي، وللتراث الحكمي المصري القديم عند أمحوتب أو هرمس الهرامسة. وهو امتداد للعقل عند فلاسفة الإغريق، وأيضًا العقل

(١) جنبلاط، آفاق نورانيّة، الطبعة الأولى، الدار التقدّمية: ٢٠٠٣، ص. ١٠٥.

الإسلامي، والذي يبدأ بمحكمات القرآن، ثمَّ أعمال فلاسفة ومتصوّفة المسلمين. هذه المراجع جميعها أمدَّت جنبلاط بروحانيّة عميقة ومعرفة جوهرية عظيمة وكانت له خير معين في شتّى أمور حياته.

عرف جنبلاط من الصوفيّة معارف جمّة، وتأثّر بالكثير منها، ومدح البعض الآخر، فالعارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة اتّفقوا أنهم لم يروا إلاَّ الواحد الأحد.

«فالتجربة الصوفيّة»، حيث تقف «ذات» المتصوّف في مواجهة موضوع حبّها أو معرفتها، هي تجربة جوّانية تتحرّك في إطار ذاتية معيشة، بعيدًا عن الحروف، والكلمات... بعيدًا عن «الآخرين». وهي تجربة قرب وعرفان مجالها الحيوي القرآن والسنّة؛ تجربة إسلامية من نمط قرآني خاصّ. ﴿اتّقوا الله ويعلمكم الله﴾ (٢/٢٢٨)[١]. وهي هذا الحبّ والعشق للصورة الأزلية. يقول جنبلاط:

«شربنا المدامة حتَّى سكرنا فلمَّا سكرنا طلبنا المزيد
أحبّك مولاي، حبًّا يحطّم قيد الإله وقيد العبيد»[٢]

بين نظرة جنبلاط لوحدة الأديان ووحدة الوجود كان هناك مقاربة ومقارنة بينه وبين ابن عربي المتصوِّف الإسلامي الكبير. حيث نجد أنَّ جوهر كلّ دين لا يختلف عن جوهر الآخر، فالله الذي خلق الوجود وأنزل الأديان لهداية الأنام واحد لم ولن يتغيّر في أيّ كتاب، والحقيقة التي رأها هؤلاء المتحقّقون واحدة، لهذا قال: «أجمع العارفون أنهم لم يروا في نهاية المطاف إلاَّ الواحد الأحد».

(١) الحكيم، د. سعاد ، المعجم الصوفي، الطبعة الأولى، دندرة للطباعة والنشر: ١٩٨١، ص. ١٤.
(٢) جنبلاط، فرح، لجنة تراث الشهيد، الطبعة الثانية، ١٩٨٠، ص. ١٢.

والحقيقة مثل هذه المقارنة، تستحقّ أن تكون موضوع رسالة مستقلّة، لاتّساعها وتقارب الأفكار بين الرجلين. في وحدة الأديان ووحدة الوجود.

وفي الختام أشرنا إلى الحياة التي عاشها جنبلاط ملتزمًا بالمبادئ التي آمن بها، وكيف تعامل مع البشر ومع كلّ الكائنات الموجودة بالطبيعة بالرفق والاحترام لإرادة الله الذي خلقها وأراد وجودها، أمَّا بالنسبة للناس فقد كرّس حياته يعمل من أجل رفع مستوى هذا الإنسان على أصعدة عدّة، خاصّة أحواله المعيشية والتي تسمح بالتعرّف على حقيقته والغاية من وجوده في هذه الحياة الدنيا.

كمال جنبلاط لا يمكن اختصاره بكلمات ولا بصفحات، فإذا كان خلال حياته قد شغل الدنيا، فإنَّه بفكره وما تركه من مؤلَّفات يشغل مجلَّدات لا تُعَدّ ولا تحصى.

# المفاهيم والمصطلحات

**الإنسان:** تأتي عند جنبلاط بمعنيين؛ أولاً، المعنى الظاهري العادي، وثانيًا، الإنسان الساكن في الأعماق، هو هذا الإنسان الكائن القادر.

**الأنا:** لها معنيان؛ الأنا الفردية الظاهرية "الأنانية"، والأنا الجوهرية الحقيقية التي إليها ينبغي أن تتوجَّه "الأنا".

**عبرانيّة معتقدية:** تعني فكرة الشعب المختار؛ حيث يعتبر اليهود أنفسهم الصفوة الأخيار.

**الطريق:** تعني المسلك الذي يسلكه الإنسان إلى الله أو في الحياة الدنيا.

**الدين:** في مفهوم جنبلاط له وجهان؛ وجه يعني الحقيقة، ووجه آخر هو التنظيم الاجتماعي.

**الأديان الابراهيمية:** هي الأديان الثلاثة: اليهوديّة، والمسيحيّة، والإسلامية.

**المتصوِّف:** هو الإنسان الزاهد بالدنيا ورغباتها، لقِّب بهذا الاسم لارتدائه لباس الصوف الخشن رغبةً في قهر الجسد توصّلاً للنعيم الأزلي.

**فناء الفناء:** فني عن نفسه وفني عن فنائه، ويعني التوحيد.

**السرمدي:** الأبدي، المطلق الذي لا يتبدّل ولا يزول.

**العقل الأرفع:** هو هذا الفيض اللطيف والصورة البسيطة النورانية المتجلّية في كلّ حين، والأداة الإشراقية الرفيعة. (الكلمة) وهو أيضًا (المطاع) عند الغزالي.

**البرهمان:** كلمة سنسكريتية وتعني المطلق، الله، الحقيقة...

**الغيبيّات:** وهي معرفة يعقلها ويشعر بها صاحبها قبل حدوثها، وغالبًا ما تكون عند أصحاب الكرامات.

**حمزة ابن علي:** سيِّد من أسياد المسلك الحكمي التوحيدي.

**الأحقاب المنصرمة:** الأزمان الغابرة.

**الأتمان:** كلمة سنسكريتية وتعني الذات الواعية، الأنا الجوهرية.

**التجمّع العضوي التعاوني: Associationism** وتعني الجمع والتوفيق في مجرى التطوّر بين المادّة والروح.

**الوعي:** في المفهوم العادي إدراك ما يدور حولنا وما تعطيه الحواس، وفي المعنى الآخر الشاهد على أعمالنا وتصرّفاتنا وهو الذي ينبّهنا إلى أخطائنا. سافيت في السنسكريتية.

**الفيدا:** معناها الحكمة، وهي كلمة سنسكريتية دوّنت الأسفار الهندية وعرفت بكتب الفيدا.

**الريشي:** كلمة سنسكريتية وتعني العارف الأكبر.

**V. Caramarga:** التفتيش عن تجربة الحياة المتكاملة.

**المهاتما:** الروح العظيم لم يبقَ فيه أثر لإزدواجيّة على الإطلاق.

**غورو Gouro:** المعلّم الروحي، هو إنسان مشعّ، هو نور وضّاء.

**اليوغا:** طريق يسلكها الطامح للحرّية للانعتاق، للتطوّر وهي مسلك عرفاني تطهيري توصّلاً إلى طبيعتنا الحقيقية "التوحيد".

**الروحانيّة:** تعني الحقيقة السرمدية الأبدية، إنَّها الحضارة الأصيلة والرقيّ السامي النبيل.

**الكشف الروحي:** هي علم العقل الأرفع تعني استنارة الباطن بإشراق نور المعرفة.

**التحقّق أو التحقيق:** معرفة الذات الجوهرية وهي تجلّي الإنسان في حقيقته الأصيلة.

**مسلك التوحيد:** هو مسلك الأحادية وهذا ما يؤكّده القرآن الكريم ﴿إيّاكم والشرك بي﴾.

**مايا:** كلمة سنسكريتية تعني الأفكار الواهمة المضلّلة.

# الفصل الأوّل

# كمال جنبلاط

١ـ حياته

٢ـ مراحل دراسته

٣ـ ثقافته وروحانيّته ومصادرهما

أ ـ ثقافته ومصادرها

ب ـ روحانيّته ومصادرها

# حياته

كمال جنبلاط من أسرة معروفية لبنانية عريقة، والده فؤاد جنبلاط ووالدته سيِّدة القصر كما وصفها الفرنسيون الستّ نظيرة جنبلاط. ولد عام ١٩١٧ في السادس من كانون الأول، بولادته عمَّت الفرحة قصر المختارة «واستمرّت الأفراح أسبوعًا، كان أولاد المختارة خلاله يتلذَّذون بالحلوى والزبيب والمأكولات التي كانت توزَّع عليهم، وكان الأكبر سنًّا بينهم يغنّون ويترنّمون ويرقصون. ولا تخفت، إلاَّ في ساعة متقدّمة من الليل، أنغام الناي والمجوز وإيقاعات الدربكّة ووقع أقدام الراقصين المتشابكي الأيدي في الدبكة اللبنانية المعروفة»[١].

شاء القدر أن يربى كمال في كنف أمه دون والده لأنَّ الغدر كان للوالد بالمرصاد، حيث استشهد في «وادي عينبال» وكان على والدة كمال أن تستلم الزعامة في السياسة وفي إدارة القصر وتهيّء كلّ الأمور وتحضّر كلّ المستلزمات من أجل كمال. «(...) وإنَّ رسالة الجدّ الأكبر الشيخ بشير، ذلك «العماد» الذي سعى إلى استعادة سطوة الدروز في جبل لبنان ودفع حياته ثمنًا لسعيه هذا، إنَّما تهيب بهم أن يواصلوا المهمّة. لكن ذلك من شأن الرجال، ومن شأن ابنها، كما تعتقد، حين يكبر. أمَّا هي فقد كتب لها أن تصون وتحمي ما خلّفه زوجها، وتعدّ كمال لمستقبل زاهر. وكان كمال لا يزال يخطو خطواته الأولى حين

(١) تيموفييف، إيغور، كمال جنبلاط الرجل الأسطورة، الطبعة الثانية، دار النهار: ٢٠٠٠، ص. ١٦.

أمرت الستّ نظيرة الجميع بأن يخاطبوه بكلّ مقتضيات الاحترام الذي يليق بمنزلة العائلة، وأضافت إلى ذلك لقبًا جديدًا: «ابن العماد»[1]. من المستبعد أن يتذكّر كمال مشهد تشييع والده في صيف ١٩٢١ لأنه لم يكن قد بلغ سنواته الأربع. وإذا كان في ذاكرته صور وانطباعات فإنَّها تعود إلى ما كان يسمع من أحاديث كان يتداولها الأقارب والأصحاب.

أمضى كمال صيف ١٩٢١ مع شقيقته ليندا في مروج قصر المختارة الخضراء ومع أولاد بلدتهم يلعبون ويمرحون، كان المعلم خليل سمعان يقوم بتدريس كمال مبادئ العربية والحساب، لكن بشكل غير منظّم، وعندما جاءت المربّية ماري سلّوم الموفدة من سوريا والتي كانت حاصلة على خبرة تعليمية من مدرسة اللعازرية في حلب، بدأ الانتظام في الدراسة، وشرعت المربّية تعلِّم كمال وأخته ليندا الفرنسية والحساب يوميًّا ولسنوات عدّة. كانت سنين طفولة كمال برعاية نساء تركت كلّ واحدة منهنّ أثرًا في حياته، أمّه تعبده ولا تحيد ببصرها عنه، وتحاول جهدها إرضاءه وتحضير ما لذّ وطاب من الطعام له، لكن «كمال يحبّ أمّه على طريقته الخاصّة، مع أنه لا يتماشى منذ طفولته مع الإفراط في الرقّة والحنان، حتَّى ليبدو في حديثه على شيء من البرود والعزوف عن الآخرين. ويحزّ في نفس الستّ نظيرة ميل ابنها إلى الصمت والانطوائية، والمغالاة في ضبط النفس، حتَّى أنها شعرت بالغيرة من أختها شفيقة التي يبدي كمال الصغير تعلّقًا غريبًا بها، ويميل إليها أكثر من ميله إلى أمّه».

(١) م.س، كمال جنبلاط الرجل الأسطورة، ص. ٣٢.

«(...) وبالمناسبة فهي تقضي أغلب أوقاتها صامتة ولعلّ الصمت هو السبب الأول للتقارب الروحي بينها وبين ابن أختها كمال الانطوائي القليل الكلام، مثلها هي. وحتّى صورة الفوتوغرافية المبكرة تلفت الانتباه إلى شفتيه المتلاصقتين ونظرته المركّزة الساهمة، لا كنظرات الأطفال»[1].

جنبلاط عمد خلال حياته على السير في الطريق المستقيم القويم، كان يميل إلى الصمت وإلى العزلة والانفراد، وإن كانت حياته العملية حافلة بالنشاط والعمل المجهد لأنَّ سياسة الناس والاهتمام بهم وبمشاغلهم واهتماماتهم، بحاجة للنفس الطويل والصبر الجميل.

«نشأة جنبلاط الأولى كانت مقدّمة ضرورية لحياته الاجتماعية فيما بعد، فالتنشئة الاجتماعية بجميع مراحلها ـ سيَّما في البيت والمدرسة ـ تشكّل مقدّمة ضرورية وتدريبًا أساسيًّا للانتقال من حياة الطفولة إلى حياة الراشد في المجتمع والتي يصبح المواطن خلالها عضوًا فاعلاً في واقع البيئة التي يعيش فيها»[2].

طفولة جنبلاط كانت توحي للمقرَّبين ولأصدقاء البيت العريق بأنَّ هذا الإنسان يختلف عن غيره، فيه مميزات قلّ، إن لم نقُل ندر، مثيلها، فحبّه للطبيعة والتأمّل وحرصه على كائناتها والتحديق في الأفق اللاّمتناهي، جعلته يستمتع بكلّ اللحظات وتثير فيه تدفّق الأدب والشعر، فيكتب بشغف ويرى وراء كلّ هذه الصور عظمة الخالق المبدع والمنظِّم لهذا الكون.

(١) م.س، كمال جنبلاط الرجل الأسطورة، ص. ٣٩.

(٢) سليم، رياض، التقاطع المعرفي بين ميخائيل نعيمة وكمال جنبلاط، الطبعة الأولى، الدار الوطنية للدراسات: ١٩٩٨، ص.١٥٠.

كتبت الدكتورة نازك أبو علوان في هذا المنحى تقول: «الطبيعة أيضًا أثّرت وأوحت؛ بلدته ـ المختارة ـ غنيّة بمواطن الجمال، مميّزة بما يحيط بها من أنهار وبساتين وجبال. وأجواء عينطورة الطبيعية حيث تعلّم فيها أيضًا من هذا الجمال وفرة وغزارة. وكم شوهد يقضي ساعات طويلة بمحاذاة النهر، قدماه في الماء وعيناه تحدّقان في الأفق اللاّمتناهي متناسيًا أوقات الطعام، منصهرًا كليًّا بهذا البهاء السرمدي الأخّاذ وكأنه جزء منه، وقد وصفه أحد الأدباء الدكتور «خليل أحمد خليل» بقوله: «كان يحبّ الجلوس في الطبيعة منفردًا آثرًا العزلة والصمت التامّ». هذه الفطرة المطمئنة حضرته وهيّأته للتأمّل، وللتأمّل دومًا مردوده الإيجابي الكبير على الذات الإنسانية. فالتأمّل كما يعرّفه كريشنا مورتي: «تفريغ لمحتويات الوعي وكلّية الأشياء والتي وضعت معًا بواسطة الفكر. إنَّه التحرّر من الغضب والعنف والغرور والتعجرف وكلّ ما يأسر». لقد كان المعلِّم بصمته متكلّمًا معبّرًا: «صمت أرفع من الكلام» تحقّق بغنى ذاتي لذات حقّقها وعمل أنجزه، ويمكن القول إنَّ سحر لبنان بمجمله كان له وقعه على البصر «المنغمس بالنور»، فكتب عن جمال بلاده وتاريخها متوحّدًا مع المحيط، تلك الروعة الجمالية التي طالها الإنجيل وما غفل عنها فنّان أو شاعر، زائرًا كان أو مقيمًا. وفي وصف المعلِّم جاء ما يلي: «هذا البلد الفاصل والرابط بين القمم والبحار، وبين عالم الأنهار والبوادي وانفراج فسحة الماء المالح تحت أقدام جباله»[1].

(١) أبو علوان، د. نازك، شجرة الجوز، الطبعة الأولى، الدار التقدّمية: ٢٠٠٥، ص. ١٧.

حياة جنبلاط كانت زاخرة بالعطاء والنشاط والحيوية التي لم نشهد لها نظيرًا، حبّه للعلم والثقافة والمعرفة كان كبيرًا وكبيرًا جدًّا، حبّه للناس، للخدمة الاجتماعية، حبّه للوطن للإصلاح، للعيش الكريم لكلّ الناس دون تفرقة أو تمييز، جعلت حياته كخليّة النحل الدائمة الحركة وبكلّ تأكيد لا يمكن أن يجني الناس من أعماله وآرائه وأفكاره إلاَّ شهد العسل الذي يطيّب أبدًا المريض ويزيد المتعافي عافية وقوّة ونشاط.

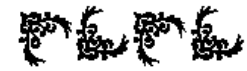

# مراحل دراسته

لمَّا بلغ كمال عامه التاسع بدأت والدته تفكّر بإرساله إلى المدرسة، في بادئ الأمر كانت تريد إدخاله إلى إحدى المدارس اليسوعية، لكن المطران البستاني أقنعها بمدرسة الآباء اللعازاريين في عينطورة بأنها الأفضل. أرسلت رسالة للأب أرنست سارلوت مدير مدرسة عينطورة وصديق العائلة، فجاء الردّ بالموافقة، وبدأت الاستعدادات للرحيل.

مطلع تشرين الأول ١٩٢٦ ودّع كمال أمّه وأخته وذهب مع مرافقه عيسى الخوري حيث بدأ عامه الدراسي الأول في مدرسة عينطورة ولا عودة إلى المنزل إلاَّ خلال عطلتَي الميلاد والفصح، وفي حزيران، نهاية العامّ الدراسي.

في بادئ الأمر واجه كمال صعوبات في التعوّد على النظام، ولكن ما من شيء مستحيل تحت الشمس، وهو معروف عنه صاحب الإرادة الحرّة والقوية، وهكذا تأقلم في الجوّ الجديد، ومنذ أيامه الأولى انكبّ على الدراسة والتحصيل، وأيضًا وجد في هذا الجوّ مرتعًا خصبًا للمطالعة كلَّما وجد متّسعًا من الوقت.

«وغدت المطالعة شغفًا يلازمه مدى الحياة ويغني مفرداته، ويوسّع أفقه ويعلّمه التفكير، والتأمّل، والتحليل والمقارنة، ويترسّخ كلّ ما يقرأه عادة في ذاكرته الصافية إلى درجة جعلت أساتذته يدهشون لقابليّته

عندما يجيب عن أسئلتهم مستشهدًا ليس بأبيات شعر قصيرة فقط، بل بمقتطفات نثرية كاملة حتَّى من كتب الفلسفة والدين أحيانًا. كان يقرأ الكتب المدرسية ويراجعها قبل الأوان، ممَّا يوفّر على الدوام فرصة التسابق مع المناهج حتَّى يسبقها. ثمَّ إنَّ اهتماماته، وفي مقدّمها المطالعة طبعًا، واسعة متنوّعة إلى درجة يسهل علينا أن نذكر ما يبقى خارجها وليس ما تشمله وتحيط به»[1]. وكتب عنه أيضًا أنه كان يطالع في الليالي الصافية في ضوء القمر، وفي الشتاء حيث تتلبّد الغيوم كان يدسّ شمعة تحت وسادته، وعندما يتأكّد من أنَّ الناظر قد غفا كان يشعل الشمعة ويقرأ. ففي تلك الفترة كان يقرأ روايات بيير بينوا وأيضًا روايات كانت محبّبة على قلبه مثل روايات فيكتور هوغو ومسرحيّات موليير وراسين وقصائد لامارتين وألفرد دي موسيه وحكايات لافونتين. «ويؤكّد الأب بيركوركية، أحد معلّمي عينطورة، أنَّ كمال أبدى في المرحلة الابتدائية قدرة مدهشة على تعلّم اللغات، وأحرز نجاحات باهرة في الفرنسية والعربية على الخصوص ممَّا هيّأه في ما بعد لمطالعة المصنّفات الدينية والفلسفية دون صعوبة، واستيعاب الصوفيّة البالغة التعقيد، ناهيك بالعلوم الطبيعية والرياضيّات التي كان يحتلّ المرتبة الأولى في الصفّ. ويعتقد الأب كوركية أنَّ نجاحات كمال في الدراسة تعود ليس إلى المبالغة في الطموحات أو التعالي أو حبّ الذات، بل إلى الولع البالغ بالمعرفة والاغتراف منها دون كلل، إضافة إلى الموهبة الفطرية»[2].

(١) م.س، كمال جنبلاط الرجل الأسطورة، ص. ٤٣.

(٢) م.ن، ص. ٥٠.

عام ١٩٢٨ حصل كمال على الشهادة الابتدائية بفرعيها الفرنسي والعربي، وفي تشرين الأول وبعد انقضاء الصيف عاد إلى المدرسة. عندما شارف كمال على السادسة عشر من العمر برز اهتمامه بالرياضة البدنية فضلاً عن الاهتمام الروحي الذي ظهر جليًّا في شبابه المبكر.

«زِدْ على ذلك أنَّ الجولات البعيدة في الطبيعة سيرًا على الأقدام وحياة المَخيّمات في العراء تستجيب تمامًا لميله المبكر إلى التأمّل في الطبيعة وإحساسه اللاّشعوري بالوحدة الخفيّة الباطنية معها»[١].

سنة ١٩٣٦ حصل كمال على شهادة البكالوريا للمرحلة الأولى في العلوم والآداب، هكذا بدأت تتكوّن شخصيّة الشاب الموهوب الذي يعيش حياة فكرية وروحية قلّ من يفهمها من حوله، ومن السمات المهمّة التي كان يتّسم بها فرض احترامه وهيبته منذ سنّ الفتوّة، وعلى مدى العمر. «في تشرين الأول ١٩٣٦ بدأت المرحلة الثانية من البكالوريا، ويقول الأب كوركية: إنَّ كمال أبدى في الصفوف المتقدِّمة اهتمامًا معمّقًا بتاريخ المسيحية، وإلى الإنجيل ومؤلَّفات فلاسفة الكاثوليكية مثل أوغسطينوس إيربليوس وألبرتو الكبير وتوما الإكويني، درس بعمق مؤلَّفات القدّيس منصور دي بول مؤسِّس جمعيّة الآباء اللعازريين. وقد تركت مواعظه وتعاليمه في الزهد والتقشّف، وكذلك رعايته للفقراء والمساكين والأحداث، أعمق الأثر في نفس كمال وحدَّدت إلى درجة كبيرة رؤيته ونمط حياته»[٢].

(١) م.س، كمال جنبلاط الرجل الأسطورة، ص. ٥١.

(٢) م.ن، ص. ٥٤.

اهتمام كمال بالإنجيل وبالشؤون الدينية لم تبقَ خفيّة، بحيث إنَّ أستاذ الفلسفة الأب هنري دالمية، طلب منه أن يعتنق المسيحية، لكن كمال رفض ذلك العرض بكلّ أدب وحزم، وهو كان مدركًا تمام الإدراك بأنه ملمّ بالإنجيل أفضل من غالبيّة الرهبان المسيحيين.

أمَّا اهتمام جنبلاط بالحكمة التوحيدية فقد بدأ على ما يبدو في سنّ الفتوّة، لكن من الممكن أن يكون قد تلقّى الدروس الأولى منذ الطفولة، ولـمَّا بدأت التساؤلات تثقل فكره وعقله خاصّة قضايا الوجود، توجَّه إلى الفكر الديني باحثًا عن الجواب عن تلك المسائل.

لا بدَّ أن يكون كمال قد طالع كتب للمؤلِّف الكلاسيكي "بيان طريقة الدروز" للمستشرق الفرنسي المعروف سلفستر دي ساسي، وهو في مدرسة عينطورة، وأيضًا كتاب الكولونيل تشارلز تشرشل عن لبنان وفي هذا الكتاب معلومات قيّمة عن تاريخ الدروز ومذهبهم، وكذلك كتاب إيرل الكارنافوني "ذكر دروز لبنان وملاحظات في طريقتهم". وأيضًا كتاب آخر للمؤرِّخ اللبناني فيليب حتّي "أصل الدروز وطريقتهم" والذي تضمّن مقتطفات من الرسائل الدرزية مترجمة إلى الإنكليزية. وكمال العاشق الأكبر للمعرفة كان يذهب إلى المكتبات الأوروبية بعد أن أنهى المرحلة الثانوية، حاصلاً على كتب ثمينة وقيّمة، وكان يجتمع مع بعض مشايخ الدروز مثل الشيخ أبو يوسف فريد أبو حمزة الذي كان يتعاون معه على شرح المعاني وتفسير ما يبدو مبهمًا.

"ولم تقتصر اهتمامات كمال في الصفوف المنتهية بمدرسة عينطورة، على القضايا الدينية الصرف، إذ قدِّر له أن يحقِّق بين جدران

المدرسة اكتشافين كان لهما أثر كبير في حياته، أحدهما اطّلاعه على أعمال الراهب اليسوعي وعالم الأحاثة والمتحجّرات الفرنسي بيار تيلار دي شاردان[1] الذي قام بمحاولة جريئة لرسم لوحة شاملة للعمليّة التطوّرية في ضوء آخر منجزات العلوم الطبيعية والإنسانية. (...) حتّى غدت كتابات الراهب اليسوعي اكتشافًا يوفّر الجواب عن الكثير من الأسئلة التي تقضّ مضجعه»[2].

فإذا كان العلم يجيب من حيث التجربة والاختبار على أسئلة العلوم، فالنشاط الروحي للإنسان الذي يدرك بالحدس والفطرة صعب على التحليل والتجريب، وكان العلم والدين في انفصال أو كما يقال على طرفَي نقيض بالنسبة للوعي الاجتماعي. فوجد كمال في فكر دي شاردان الحلقة المهمّة التي توفّر كسب معرفة متكاملة عن العالم. ففكرة دي شاردان التطوّرية المشبعة بالترابط بين العلم والدين من خلال وحدة الإدراك البشري كانت ذات أهمّية بالغة بالنسبة لجنبلاط.

أمّا الاكتشاف الثاني الذي تعرّف إليه في مدرسة عينطورة فهو المهاتما غاندي، حيث كان يتابع الصحف الفرنسية التي تصل إلى المدرسة بانتظام ويتابع باهتمام كبير أعمال هذا المفكّر الهندي العظيم وأهمّ ما أخذه عنه كلمته الشهيرة «كنت في الماضي أقول إنَّ الله هو الحقّ، واليوم أعتقد أنَّ الحقّ هو الله»[3].

---

(١) الأب بيار دي شاردان ولد في فرنسا عام ١٨٨١، وتوفّي في نيويورك عام ١٩٥٥. وهو راهب يسوعي وعالم الأحاثة والمتحجّرات، له إنجازات مهمّة في العلوم الطبيعية والإنسانية والترابط بين العلم والدين، أهمّ كتبه The phenomen of man.

(٢) م.س، كمال جنبلاط الرجل الأسطورة، ص.٥٦.

(٣) م.ن، ص.٥٧.

عام ١٩٣٧ نجح كمال في شهادة الفلسفة وفي أيلول سافر إلى باريس للدراسة الجامعية، ودرس الحقوق بناءً على رغبة والدته وليست رغبته هو. كانت باريس حلم الشباب جميعًا نظرًا للحياة المترفة التي تغوي معظم الشباب، لكن كمال كان مختلفًا عنهم كثيرًا حيث عاش حياة انطوائية متقوقعة. فلم يكن له أصدقاء سوى حليم أبو عزّ الدين، ولم يكن يبدي أيّ اهتمام بالسياسة على الإطلاق، تابع كمال مواد الحقوق والقانون كما تابع محاضرات علم الاجتماع والنفس والأخلاق، وحاول أن يستفيد من كلّ ثانية لاستكمال معارفه الفلسفية، وخاصّة برغسون الذي كان له فضل كبير على دي شاردان ونظرته التطوّرية. وأبدى جنبلاط إعجابه بأسلوب برغسون الأدبي الرائع وبالصياغة البلاغية لكن أكثر ما أثار اهتمامه هو الحدس المباشر، وأنّ الذي يصنع التاريخ هو قوّة اندفاع التيّار الحيوي.

على قدر ما كان كمال عاشقًا للمطالعة، كان أيضًا يتابع النشاطات السياسية في فرنسا وبالرغم من أنه كان من طلاّب الحقوق والمعروف عن هؤلاء الطلاّب في هذا القسم ميلهم إلى اليمين، إلاّ أنّ كمال كان يميل إلى اليساريين. «(...) ولوحظ في البلاد نهوض لم يسبقه مثيل للحركة العمّالية واليسارية جعل أفكار الإشتراكية تستأثر بألباب ملايين الناس...»[1].

«كان جوّ باريس المكهرب، المشبع بالميول الإشتراكية، قد أثّر بالطبع على ميول الطلبة العرب الذين يتلقّون تحصيلهم العلمي هناك،

(١) م.س، كمال جنبلاط الرجل الأسطورة، ص. ٧٢.

ولم يكن كمال جنبلاط استثناء من القاعدة. وقال أحد زملائه الجامعيين: لقد تركت كلّ تلك الأحداث انطباعًا عميقًا في نفسه. وأعتقد أنه استوعب أولى دروس الإشتراكية في باريس بالذات»[1].

خلال هذه السنوات القليلة التي أمضاها كمال في باريس استطاع الحصول على دبلوم في علم الاجتماع والأخلاق وذلك في ٢٣ أيار ١٩٣٨. حقَّق خلال هذه الفترة طفرة في التطوّر الفكري والروحي يتفوّق بها على غيره. وهذه إحدى أبرز مميّزات الشخصيّة الجنبلاطية، هذه القدرة الهائلة على التركيز والاستيعاب، وكأنَّ هذا الفكر كالنار الموقدة التي تلتهم كلّ شيء بسرعة فائقة حتَّى الحطب الأخضر.

بعد حصول كمال على الدبلوم عاد إلى لبنان ليلتحق بجامعة القدّيس يوسف، مسلِّمًا وثائقه إلى الجامعة في ١١ أيلول ١٩٣٨ لإكمال دراسة الحقوق، رغم أنه ظلّ على عهده السابق غير متحمّس للمحاماة.

عام ١٩٣٨ وتحت إشراف الشيخ كميل أبو حمزة تعوَّد الغذاء النباتي، حيث يقول جنبلاط عن نفسه إنَّه مرَّت فترات كان يعاني خلالها من ألم في الرأس وبعد أن تحوَّل إلى الغذاء النباتي زالت كلّ الآلام، وطبعًا أخذ يطالع في هذه الموضوعات حتَّى حصل على كتاب الدكتورة «آن وينغمور» حول العلاج بعشب القمح حيث ترجم الكتاب بإشراف كمال جنبلاط.

ومن الشيخ أبو حمزة تعرّف كمال على ابن عربي وابن الفارض حيث كان أبو حمزة يردِّد ما حفظه من أشعار لهؤلاء الصوفيّة، ويبدي

(١) م.س، كمال جنبلاط الرجل الأسطورة، ص. ٧٣.

كمال إعجابه بها، ذلك لأنَّ مدرسة عينطورة لا تعلِّم الشعر الصوفي. يقول تيموفييف في كتابه الرجل الأسطورة إنَّ الفترة بين ١٩٣٨ حتَّى ١٩٤١ غير مدروسة من حياة كمال جنبلاط، لكنَّ المعلومات التي جاءت في مذكّرات معاصريه تقول إنَّه ما إن التقى للمرّة الأولى، وسار على نحو التقاليد الدرزية الدينية حتَّى ولج عمق المعاني فيها وأسرارها الخفيّة. "وساعده في ذلك الشيخ أبو يوسف فريد أبو حمزة صاحب المجموعة النادرة من المحفوظات الدينية الدرزية، الذي ألمّ بمستلزمات التأويل منذ شبابه الباكر حين مارس تدريس العربية في ثانويّة راشيّا. ووفقًا لإرشاداته، انكبّ كمال على مطالعة "رسائل الحكمة" حتَّى استوعبها سطرًا سطرًا. واستمرّ التعاون الفكري بينهما سنوات طوال إلى أن توقّف بوفاة الشيخ أبي يوسف فريد أبو حمزة عام ١٩٦٥، كذلك أثّر في تكوين آفاق كمال جنبلاط في تلك السنوات ابن عمّه وزوج أخته حكمت بك[١].

عام ١٩٤٠ أنهى كمال دراسته الجامعية بحصوله على دبلوم في الحقوق في الخامس من حزيران ١٩٤٣ توفّي حكمت جنبلاط الذي كان يحمل أعباء السياسة كلّها وبموته أصبح كمال أمام الأمر الواقع وهو الذي كان يهرب باستمرار من السياسة أصبحت السياسة مصيره المكروه، والشرّ الذي لا بدَّ منه. ترشَّح كمال للنيابة ونجح في أيلول حيث انهالت عليه التهاني من داخل البلاد وخارجها. كيف لا! وهو لم يسجِّل السادسة والعشرين من العمر بعد، ويُعَدّ أصغر نائب بين النوّاب المنتخبين حينها.

(١) م.س، كمال جنبلاط الرجل الأسطورة، ص. ٧٧.

تزوّج كمال من مي أرسلان ابنة الأمير شكيب أرسلان، وفي رحلة شهر العسل إلى الهند، كان يحمل همّ حرب العرب ضدّ اسرائيل ويتابعها باستمرار ومن خلال الصحف اليومية. والأمر الثاني المطالعة وشراء الكتب، حيث دخل إحدى المكتبات واشترى كتبًا ذات أهمّية بالغة لكلّ من كريشنا مورتي، وفيفكنندا وغيرهم.

في عام ١٩٥١ توجّه كمال جنبلاط في رحلة إلى الهند تلبية لدعوة كان قد تلقّاها من قيادة الحزب الاشتراكي الهندي. لكن كان لجنبلاط هدف غير معلن رسميًّا، وله أهمّية كبرى بالنسبة له وهو التعرّف عن قرب على حكماء الهند ولعلّها رحلة الحجّ الروحي وطموحاته السامية التي لا يسبر لها غور فهي تمتدّ من أعماق التاريخ لتبلغ طقوس الفراعنة وباطنيّة العرفانيين وغيبيّة المتصوفّة. «وكان يسعى من وراء هذا التنوّع الروحي إلى اكتناه الوحدة الشمولية التي تتسرّب عبر المسامات، وتلمس العروة الخفية التي تشدّ أطراف الشامل الكامل، وتشكّل لحمة وسدى التناسق الوحدوي. وعثر الشابّ كمال على تلك العروة الوثقى في الهندوكية، أو على الأصحّ في أحد تعاليمها الأساسية «الفيدانتا» القائلة بوحدة جميع الأديان وقيمتها المتعادلة من الداخل والباطن. وما أشدّ دهشة كمال بك عندما علم أنَّ المبشّر الهندي سوامي فيفكنندا يؤكّد أنَّ «الفيدانتا» تحتوي خلاصة كلّ الأديان والمعتقدات، وهي بهذا المعنى أسمى شكل للمعرفة، لا يتعارض، بل يستجيب بالكامل لمعطيات العلم الحديث الذي قطع شوطًا كبيرًا نحو إثبات وحدة الكون مبدئيًّا[1].

(١) م.س، كمال جنبلاط الرجل الأسطورة، ص. ١٩١.

دُعي كمال جنبلاط وهو في الهند لزيارة منزل غاندي المتواضع، وبكلّ تأكيد وافق على الزيارة دون أدنى أي تردّد كيف لا؟ وهو المتأثّر أشدّ التأثير بهذه الشخصيّة البارزة، التي جمعت بين المعلّم الروحي للأمّة، والمفكّر الديني المتقشّف، والمصلح السياسي النشيط للغاية، وربَّما هناك أوجه شبه متعدِّدة بين الرجلين حيث إنَّ المهاتما غاندي كان يكره السياسة وقد شبّهها بالأفعى التي تتلوّى حلقات وتأخذ برقاب الناس. والسياسة تبقى ناقصة وغير مجدية إذا لم تتوجّه إلى الأخلاق وتكون وسيلة الكمال الشخصي وإدراك الحقيقة الأخيرة.

أمَّا الأمر الأهمّ من كلّ الأمور والذي كان يشغل فكر كمال جنبلاط أكثر من أيّ أمر آخر هو لقاؤه بالمعلّم شري أتمانندا، حيث تكبّد عناء السفر إلى الهند لمقابلته. ومهما بلغت معرفة كمال للهندوكية إن كان من خلال الترجمات أو من خلال مؤلَّفات لباحثين فرنسيين مختصّين بالشؤون الهندية إلاَّ أنها غير كافية ولا يشعر المرء بالامتلاء الداخلي مثلما يتابع سير المعرفة في التعاليم الهندوكية على يد مرشد روحي. "(...) أمَّا المعاني الخفيّة التي تنطوي عليها التعاليم الهندوكية فلا يمكن إدراكها إلاَّ بالأخذ عن المصادر الأولى والتعلّم مباشرة على يد المرشد الروحي الذي يقود تلميذه خطوة فخطوة ودرجة بعد أخرى وفقًا للتقاليد المتّبعة في الشرق من أقدم العصور"[1].

وفي الهند تلقّى دروسًا يومية تدوم لمدّة ساعتين، وطبعًا يلقيها المعلّم أتمانندا ويصف جنبلاط كلّ كلمة تفوّه بها المعلّم بأنها أغلى من الذهب.

(١) م.س، كمال جنبلاط الرجل الأسطورة، ص. ١٩٩.

# ثقافته وروحانيّته ومصادرهما

## أ ـ ثقافته ومصادرها

إنَّ القارئ لجنبلاط يقف مشدوهًا، متعجِّبًا، كيف استطاع هذا السياسي بامتياز، وهذا الرجل المحبّ للناس كلّ الناس وللسماع لمشاكلهم وكيفيّة إيجاد الحلول لها، وهذا المتأمّل في الحياة والوجود، والقارئ بشغف ونهم لم يعهد له مثيل، وهذا الكاتب لموسوعة ضخمة من الكتب، كيف استطاع في هذا العمر القصير والذي لم يتجاوز الستّين سنة، أن يقوم بكلّ هذه الأعمال بمنتهى الدقّة والحرص الشديد.

من خلال الاطّلاع على كتب جنبلاط نستطيع القول بأنه حمل ثقافة العتيق الأصيل من الحضارات القديمة، الفراعنة واليونان والهند وإيران، وبلاد ما بين النهرين إلى الأديان المنزلة وحضارة القرون الوسطى وعصر النهضة والقرن الحديث توصّلاً إلى الزمن المعاصر.

عندما نقرأ لجنبلاط لا يمكن إلاَّ وأن نلحظ بأنه لم يبقَ باب من أبواب العلم والمعرفة إلاَّ وتطرّق له بإسهاب أو باختصار، وفي تأثّره بالفلسفة اليونانية قالت الدكتورة نازك أبو علوان: «جنبلاط لم يعتبر الفلسفة التراثية الإغريقية القديمة هي حضارة الإنسان الحقيقية، وفلاسفتها أسياد حكماء، وعلى البشريّة الاقتداء بنظريّاتهم وتعاليمهم. فقد آمن بهم متأثّرًا بتأمّلات أرسطو الذي اكتشف «هدف الحياة بالتأمّل الصوفي،

أي تأمّل العقل» أو «كما تفكّرون تكون» وهكذا يمكننا التأكيد على عمق تأثير الفكر اليوناني على منحى المعلّم في شتّى الأبعاد الإنسانية[1].

ومن الهند نهل جنبلاط وتبلورت كمال المعرفة لديه في حضور الغورو شري أتماننداً معلّم كمال جنبلاط، وفي لقاء بينهما كان في مطار القاهرة وهو عائد قال جنبلاط: «قدّر لي أن ألتقيه (أي شري أتماننداً) في طريق عودته في مطار القاهرة، ولم أرَه يومها إلاَّ نصف ساعة. كان مذهلاً... وراح يتكلّم ولكنّي لم أعِر انتباهي للكلمات... فقد كان ذلك ضربًا من الغوص الداخلي. حتَّى لكأنّ المطلق في شخصك ينكشف عليك، أو كأنّ الحقيقة فيك تتّصل بالحقيقة فيه. وانجذبت إليه... فقد كان بالغ القدرة. كانت أحاديثه ذات نورانية فائقة، فاليونان كانت تنطق بفمه... وإنَّها للحظة أخّاذة... تلك النشوة، نشوة الفهم التي تتحقّق في مواجهة حكيم؛ معرفة تأتي ممَّا وراء الحواس، وممَّا يتعدّى العقل... إنَّها الوجد الحقيقي... الحكيم هو حقيقة الله، إنَّه إبصار مباشر للحقّ وللكائن... المرء يصير يقظًا في الحكيم، وهذه اليقظة هي التي تعطي الحكماء هذا المرأى المتألّق»[2].

ومن حضارة الصين أيضًا نهل جنبلاط معجبًا بهذه الحضارة العريقة، من لاوتسي إلى كونفوشيوس إلى الإمبراطور الصيني فوهي.

«(...) أشار جنبلاط إلى أنَّ الصين أنشأت القانون الجدلي لوحدة المتضادات قبل أن تضعه الماركسية بمدى زمن بعيد. القانون يوضّح أنَّ كلّ شيء إذا بلغ حدّه الأقصى من التمام يحمل مؤشّرات تناقصه

(١) م.س، شجرة الجوز، ص. ٢١.

(٢) م.ن، ص. ٢٣.

وانحلاله، ومن المنحلّ يتكوّن التأليف الجديد، وهكذا دواليك. وقد تكلّم بإعجاب أيضًا عن إمبراطور الصين فوهي والذي لا تزال أفكاره معتمدة حتّى يومنا هذا»[1].

من فرنسا والغرب أغنى جنبلاط معارفه، تأثّر بالبعض ونقد البعض الآخر، أحبّ تيلاردي شاردان وبرغسون، أمّا ماركس فكان شخصًا ذا أهمّية كبيرة بالنسبة له حيث أدّت أفكار ماركس لإقامة أكبر دولة شيوعية في العالم لكنّها لم تكن الحلّ الأمثل. في هذا المقام قال سليم: «وجنبلاط الذي اطّلع على الماركسيّة وتأثّر بها، وأخذ بعض المبادئ والأفكار منها، لم يكن يؤمن بأنها الحلّ الأمثل للمجتمعات والإنسان، بل يرى «أنّ الماركسيّة قد تكون أو كانت بالفعل في بعض البلدان مرحلة لا أكثر من مراحل التطوّر البشري ولكنّها أضحت اليوم مسبوقة عن وضع هذا التطوّر بمراحل، كما لم تكن تزيد في واقعها عن أنها أسلوب وطريق فقط لتحقيق نزعة وفكرة للعدالة والأخوة الإنسانية[2].

مصادر أخرى ومهمّة في ثقافة وروحانيّة جنبلاط ألا وهي الأديان المسيحية والإسلامية والهندوسية وقد تركنا لها فصل موسّع، لأنها مصدر مهمّ جدًّا لروحانيّته وللنزعة الصوفية في فكره. فجنبلاط كان متصوّفًا عمليًّا في بعض الأوقات لكنّه كان الزاهد في كلّ الأوقات. وأيضًا ما وسّع ثقافته وقدراته المعرفية الفلسفية (الحكمة أو المعلوم الشريف)» وتبقى حكمة الدروز، مرجعًا أساسيًّا وهامًّا لمعرفته، حيث

(١) م.س، شجرة الجوز، ص. ٢٤.

(٢) م.س، التقاطع المعرفي بين ميخائيل نعيمة وكمال جنبلاط، ص. ١٥٦.

الخصوصيّة المميّزة لهذه المعرفة، التي ظهرت عند جنبلاط بشكل رموز وإشارات، لم نستطع اكتشافها بكلّ وضوح، لأنه لم يتكلّم عنها وعن حقيقتها، ولم يتخطَّ "إلاَّ قليلاً حدود الكشف الظاهر، لأنَّ ذلك لا يجوز (وقد ترك) هذا التشوّق في الشرح والتفصيل والتحديد لغير هذا الزمن ولغير هذا المجال، فهو مورد الأبرار وسرّ الأخيار"[1].

إنَّ الذي يقول إنَّ جنبلاط لم يكن رجلاً عاديًّ وهذا رأي الكثير من الناس محبّيه وغير محبّيه، نقول نعم هذا كلام صحيح وصريح. والقارئ لكتبه يقف وقفة تأمّل وحيرة في هذا العقل والفكر الثاقب، حيث نرى جنبلاط في بعض الكتب الرجل الاقتصادي، وفي مكان آخر تربويًّا أخلاقيًّا، وإنسانًا بيئيًّا، وعالم اجتماع شهيرًا، وفلكيًّا بامتياز حيث يحدّثنا عن الأجرام والثقب الأسود وعن الغيبيّات والكرامات، وعن القانون والسياسة الحرّة النبيلة، ويكتب عن علم الأحياء وتركيب الجسم الإنساني. وعن الصحّة والتغذية السليمة، ويكتب في الأديان والعشق للصورة الأزلية، فتراه في الفلسفة فيلسوفًا بامتياز وفي السياسة سياسيًّا من الدرجة الأولى وفي التربية والتنشئة مربّيًا ومعلّمًا. قد لا تخطر على بالنا الكثير من الموضوعات لكن جنبلاط لم يغفل عن شيء أبدًا. وعن مكتبته الضخمة تقول أبو علوان: "يقول وليم شنتك (١٨١٨ـ١١٩٠م): "الكتب هي أصوات الماضي وأصوات من غربوا عن هذه الحياة الدنيا، وما تضمّنته الحياة الروحية للعصور السالفة". ومن يتسنّى له مشاهدة مكتبة جنبلاط الثرية بشتّى أنواع الكتب، وبالعديد من اللغات، يدفعه الفضول المعرفي ليلقي النظر على صفحاتها، يتأكّد

(١) م.س، التقاطع المعرفي بين ميخائيل نعيمة وكمال جنبلاط، ص. ١٦١.

بأنَّ المعلّم قرأها بتمعّن شديد بدليل التسطير، والملاحظات، والتعليق على الهوامش؛ والمعروف أنَّ القراءة هي من أولويّات هواياته واهتماماته، فقد نصح بها وقدّر من يولونها الشأن والوقت؛ وهكذا تعرّف على مختلف الحضارات واطّلع على خصوصيّات الشعوب، فتكوّن لديه مخزون معرفي يمكّنه من كتابة أطروحة كاملة بأيّ موضوع أراد، وأن يصحّح أيّ معادلة علمية ـ وإن عرضت ـ في أكبر مختبرات الصين... وبإحاطة مراجعها!»[1].

جنبلاط نبرة صادحة وقويّة تهزّ عالم الثقافة والمعرفة، وتعطي للأجيال القادمة معرفة ومخزونًا علميًّا ثقافيًّا يعتزّ بها أبناء هذا الوطن الصغير بمساحته لكنّه الكبير في صدى فكر أبنائه الذين ملأوا العالم بكلّ أرجائه الواسعة.

هذه أهمّ مراحل حياته التي كوّنت شخصيّته، وعشقه للمعرفة، للروح الخالد وهو المدرك يقينًا بأنَّ لا فرح يعادل فرح المعرفة.

### ب ـ روحانيّته ومصادرها

تولّد الأنفس البشرية وتحلّ في الأجساد، وكلّ نفس تحمل بذور الخير والشرّ، وتأتي التربية البيتية التي يتلقّاها الإنسان، فإذا كانت التربة صالحة نمت بذور الخير وترعرعت في أجواء سليمة صحيحة وإذا حصل العكس تنمو بذور الشرّ وتقوى طبائعها وتظهر في الأقوال والأفعال.

جنبلاط حامل هذه البذور كان يملك ملكة التمييز والذكاء الحادّ، وبالتربية الصالحة التي تلقّاها نمت بذور الخير والمعرفة، فجنبلاط ابن

(١) م.س، شجرة الجوز، ص. ١٥.

الأربع سنوات كان يقف أمام نافذة منزله يرقب المطر وكيفيّة تحرّك الطبيعة، فالتأمّل متفتّح في داخله كالوعي والذكاء.

«(...) وكان الصغير يأخذ مكانه بارتياح جنب الوجاق الساخن ويراقب اللهب المتراقص بكلّ اهتمام. وفي بعض أمسيات الشتاء كان يجوب ممرّات القصر وأروقته وسلالمه الكثيرة، ويتوقّف عند النوافذ التي تنساب عليها جدائل المطر ويتطلّع، بوجل وتوجّس، في المرايا الأثرية الخابية بفعل الزمن»[1].

ظهر أثر غاندي على فكر جنبلاط في سنّ مبكر، عندما كان في مدرسة عينطورة، حيث كان يقرأ ويتابع أخبار هذا العظيم من الصحف الفرنسية التي كانت تصل إلى المدرسة، وتابع مسيرة هذا المناضل الذي عمل من أجل الإنسان وتحريره من كلّ هيمنة وسلطة، وبرز تأثّر جنبلاط بشخصيّته المتواضعة وزهده في متاع الدنيا وهو القائل: «تعلّمت من كنس غرفتي». أحبّ جنبلاط روح غاندي العظيم المحبّة للسلام والتي تعمل من أجل السلام ولخير هذا الإنسان على وجه الأرض.

وفي كتاب «هذه وصيّتي» يعبّر جنبلاط عن تأثّره بسياسة اللاّعنف وإجلاله للكارما ـ يوغي (karma-yogi) المهاتما غاندي:

أنا لا أحبّ العنف. وإجلالي لغاندي معروف لدى كلّ المحيطين بي. وأنا أعتبره نبيّ العصر الحديث الحقيقي لأنه أعاد الأخلاق إلى السياسة في الحين الذي سعى فيه السياسيون ـ غربيون وشرقيون ـ إلى إبعادها عنها»[2].

---

(١) م.س، الرجل الأسطورة، ص. ٣٨.

(٢) غوش، قيس، كمال جنبلاط واليوغا والحكمة الهندية، الطبعة الأولى، جروس برس: ١٩٩٥، ص. ٢٣٢.

وجد جنبلاط أنَّ غاندي منغمس في حبّه لهذا الجوهر الأصيل الموجود في الأديان الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل والعبادة تجوز لكلّ الرسل والأنبياء، والهندوكيّة تشمل كلّ الأديان وتؤمن بكلّ دين فهي تعيش في سلام مع كلّ الأديان دون استثناء.

ويستشهد كمال جنبلاط بكلام للمهاتما غاندي حيث يقول:

على أنَّ غاندي لا يلبث، ككلّ هندوكي أصيل متفهّم، أن يعلن، أنني لا أعتقد بألوهيّة الفيدا وحدها، وأنني أؤمن أنَّ التوراة، والقرآن والزندافستا هي أيضًا كتب وحي إلهي كالفيدا ذاتها. إنَّ الهندوكيّة ليست ديانة تبشير، بل يوجد فيها مجال لعبادة جميع أنبياء ورسل العالم. فالهندوكيّة توصي بأن يعبد كلّ امرئ وفق إيمانه الخاصّ أو ما قدّر له في هذا الوجود من توجّه ووضع ووظيفة ونشاط الدارما Dharma. وهكذا تعيش الهندوكية بسلام مع جميع الأديان[1].

من هذا المنطلق نرى أنَّ جنبلاط يلتقي مع غاندي حول الحقّ أو الحقيقة بأنها غاية الغايات ومنتهى لكلّ ذات وهذه الذات تسعى للتحقّق للمعرفة للوصول إلى أنوار الحقّ والهداية.

ثمَّ يستشهد بحديث المهاتما غاندي الذي يقول فيه:

«ظللت أربعين سنة أفتّش عن الله وأحدّده وأتصوّر بأنه هو الحقيقة، فلمّا بلغت سنّ الأربعين أدركت أنَّ الحقيقة ـ أيّ حقيقة الوجود ـ هي التي يسمّونها الله.

(١) جنبلاط، فيما يتعدّى الحرف، ص. ٤٤.

ويتلاقى جنبلاط مع غاندي حول فكرة الحقّ أوالحقيقة التي يسمّونها الله أو المطلق فيوضح بقوله: إنَّ «الحقّ، الحقيقة أو الله أو المطلق أو ما يسمّونه كذلك، وفق الأديان والمذاهب والأزمنة والأمكنة، هو الحقيقة الأخيرة للوجود التي ينشدها المؤمن والعابد والصوفي، والكاتب والشاعر والموسيقي والفنّان، والعالم والملحد والكافر ذاته على السواء»[1].

هذه الروحانيّة المتأصّلة في ذات جنبلاط منذ صغره وهذه الثقافة التي تلقّاها في المدرسة، جعلته يتحرّك بشغف ولهفة للمطالعة، وللاستزادة من المعارف، لا نستطيع أن نحصي عدد الكتب التي قرأها جنبلاط في حياته، لكن نستطيع أن نؤكّد أنه قرأ في معظم أنواع وأصناف الآداب، والفلسفة والشعر والفنون، والسياسة، والاقتصاد... إلخ. وكان ناقدًا للبعض منها ومعجبًا بالبعض الآخر وفي قراءاته كان يبحث عن الحقّ، عن الله ويحاول أن يجد المعين والمرشد الأمين الذي يوصله إلى برّ الأمان، فلم يجد كما يقول الإجابة في الفلسفة ولا في العلوم الفلسفية، بل وجدها في الأديان كلّ الأديان وخاصّة الهندوسيّة منها.

سئل جنبلاط: «أكنت شخصيًّا متأثّرًا بالمسألة الروحية والصوفية؟

جنبلاط: «أجل تأثّرت، ولحسن الحظّ قد جذبتني المسألة الروحية الصوفية، إنَّها مسألة المعرفة بحدّ ذاتها والإنسان خلق ليعرف.

ـ لقد قيل لي أكثر من مرّة إنَّ رحلاتك إلى الهند أثّرت فيك فغدوت تهتمّ بالصوفيّة؟

(١) هادي، نبيل، التحدّي الكبير، الطبعة الرابعة، الدار التقدّمية: ١٩٨٧، ص ص. ٢٠٥ـ٢٠٦.

فيجيب: لا، لقد تأثّرت بالصوفيّة وأنا في سنّ مبكر، إذا كانت الحقيقة موجودة فلا بدّ من وجوب معرفتها. في صغري تساءلت كثيرًا عمّا في الروحانيّات والمسالك الصوفيّة، حاولت العثور على الإجابة في الفلسفة، في العلوم الفلسفية، لكنَّ الأمر كان شاقًّا، إذ إنَّ الفلسفة بدت لي بعيدة عن الاختبار المباشر للحقيقة، لذا سعيت للبحث في الاتّجاه الآخر، في الصوفيّة المسيحية والإسلامية، وأخيرًا في الهندوسيّة والبوذيّة، حيث وجدتها، أجل! هناك وجدتها، لأنَّ هنالك حكماء، أخيارهم فعلاً تجسيد للحقيقة، إنَّهم الصورة التي نراها لتلك الحقيقة التي نبحث عنها»[1].

مصادر جنبلاط للمعرفة، للروحانيّة، للنزعة الصوفية، توسّعت من خلال المطالعة، بعودته إلى الحضارات القديمة اليونانية والفرعونية، وامتدّت إلى القرون الوسطى، وعصر النهضة والعصر الحديث وصولاً إلى الزمن المعاصر، وجد أنَّ الحقيقة وجوهر الحقيقة الأصيل لا يتغيّر ولا يتبدّل مهما مرّت عليها الأزمان والعصور، وما دامت الحقيقة وحدها الثابتة فينبغي السعي إليها قلبًا وقالبًا، حيث يستقرّ الإنسان في الحقّ فتهدأ جنانه، ويصفو فكره وتستقيم جميع أموره، أو ليس مطلب الإنسان الفرح والسعادة الداخلية!؟ فمعرفة الحقّ هي السبيل الوحيد للسعادة للسلام الداخلي.

«... لكنّها السعادة التي لا توصف ولا تترجم بالكلمات، هي سعادة ثابتة، غير متبدّلة، ولا تنضب، وليس لها بداية ولا نهاية. كلمات السيِّد المسيح تعبّر عنها في: «إنَّ ملكوت السموات في قلوبكم». إذًا، لماذا البحث في الخارج، أو في جنّات لا نعرف مكان وجودها؟

(١) م.س، آفاق نورانية، ص ص. ١١٠ـ١١١.

وهنا أيضًا أصبحت أشدّ تعلّقًا بما تعلّمته خلال طفولتي، وأن أفهم السيِّد المسيح والنبيّ محمَّد (ص)، وكبار علماء الإسلام، بشكل أفضل.

إذًا هذا يربطك أكثر بخلفيّة كلّ ديانات الشرق الأوسط التي لم تولد من عدم، بل على العكس من ذلك، أنا أعتقد أنه حتَّى في الحضارة الكنعانية يمكن أن نجد هذا المفهوم للحكمة عند "سامخيوتون". وهذا ما يشكّل ميزة الحكمة اليونانية بذاتها، والحكمة المصرية والهندوكيّة. لذا، من وجهة النظر هذه يمكن التوصّل إلى مفهوم كوني للأشياء باتّجاه المفهوم الحقيقي، لأنه إذا اختلف اثنان من أتباع دين واحد، أو تناقض فيلسوفان، فلا يمكن لحكيمين أن يختلفا حتَّى ولو عاشا في عصور مختلفة، أو فصلت فيما بينهما مسافات طويلة تتجاوز مئات الكيلومترات"[1].

بالعودة إلى ينابيع المعرفة الأولى، إلى ينابيع الحكمة والتي استقى منها جنبلاط الكثير من المعارف عند قدماء المصريين، حيث كانت المشاهدة تتجلّى للفرد في داخله على حدٍّ سواء، وكأنَّ النور الساطع من الشمس هو الشمس كلّها، في هذه الحقبة من التاريخ، كان العلم الحقيقي ساطعًا، حيث الإيجابيّات مسيطرة، وهذا النور العظيم يقضي على كلّ الظلمات.

ولا نجد أجمل من ذلك المثل الذي يوصف النور والظلمة قالت الظلمة مشتكية من النور، بأنه أينما حلّ النور قضي عليها! فقالوا للنور لماذا تلاحق الظلمة باستمرار وتبدّدها؟ فأجاب النور وأين هي الظلمة؟ فالعارف دائم الأنوار لا يعرف ظلمة الجهل.

(١) م.س، آفاق نورانية، ص ص. ٩٣ ـ ١٠٢.

«وكان قدماء المصريين الذين انحدرت نظريّات التوحيد والإشراق والنور الأسنى من تأمّلاتهم وتقصّيهم واستعلائهم ـ على الأقلّ بالنسبة إلى هذا القسم من الشرق الأوسط، كما يتّفق على ذلك جميع المؤرّخين اليوم تقريبًا ـ كانوا عبّاد النور نور القلب، يستطلعون ويرقبون في كلّ صباح ولادة الشمس وهي رمز آخر ودلالة لانبعاث وتجدّد نور الإيمان واليقين والمعرفة في النفس، في هياكلهم المحيطة بأهرامهم الشهيرة، فإذا بالشعاع المحيي للطبيعة والنفوس والموقظ من العتمة والجهل والضلال، إلى الهدى والعرفان والإصابة، ينطلق من دائرة الشمس المطلّة الصاعدة في الأفق البعيد، فتتسمّر إليها الأنظار وتشخّص فيها معاني الأفكار، وتتجاوزها وتتعدّاها وتتحوّل بها في خيال الروح بصائر الأبصار الخفيّة. فإذا بالمشاهد يبصر في داخله وفي خارجه، على حدٍّ سواء، طلعة الكائن القادر الفريد، وكأنَّ في هذا الغطوس السحري في النور الظاهر والباطن والاسترسال مع البصيرة والباصرة استقطابًا لتجلّي التكوين والخلق في روعة تجلّيه الأول. «أنتم أبناء النور» و«كانت الحياة هي نور البشر والنور يسطع في الظلمات ولكن الظلمة لم تتقبّله». «النور الحقيقي الذي يضيء كلّ إنسان جاء إلى الدنيا». هذا على حدّ تعبير الإنجيل الشريف، أو على حدّ تعبير القرآن الكريم: ﴿الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب درّي... نور على نور﴾[1].

ومن أهمّ مصادر روحانيّة جنبلاط، الحكمة الشريفة أو المعلوم الشريف، حيث المعرفة الأزلية معرفة الكائن القادر، فالمعلوم الشريف

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٥٠.

يقدّس ويبجّل الحكماء الأقدمين اليونانيين وحكماء الشرق الأدنى وبالعودة إلى الينابيع الأولى القديمة، هذا الأمر ساعد جنبلاط على فهم الحكمة الشريفة، فمسيرة الحكمة والحكماء لا تتوقّف عبر الدهور.

« فالمذهب الدرزي في الواقع ليس ديانة بحدّ ذاتها، بل عمليّة إدراك للكائن الأزلي. هو حكمة كما عرّفها سقراط وفيثاغورس وغيرهما. وإنَّه لمن دواعي السعادة أن يكون الدروز وحدهم من أتباع هذه المذاهب التي تقول: «سيِّدنا سقراط»، و«سيِّدنا فيثاغورس» اللذان يحظيان بإجلال كبير من قبل الحكماء الأقدمين وحكماء مصر القديمة، ومن بينهم «أمحوتب» الذي عرف عند اليونان باسم « هرمس المثلّث العظمة »؛ وهذا ما ساعدني على فهم الحكمة الدرزية وتفسير هذه الحكمة التي تبدو غامضة في البداية.

في الواقع، نحن نؤمن بمفهوم التوحيد الذي سبق ظهور السيِّد المسيح بقرنين أو ثلاثة؛ إنَّنا ورثة الباطنية المصرية الهرمسية، وكذلك المعلِّم الحكيم المتعمّق في الحكمة الباطنية «سومار بن راجابال» حكيم «مولتان» التي تعرف اليوم بالجزء الشمالي من باكستان الحالية، وهي مدينة صغيرة يكرّسها الدروز كأحد الأماكن الأكثر روحانيّة في العالم.

بالنسبة للفكر الإنساني، من المهمّ العودة إلى هذه الاستمراريّة الباطنية الحكمية، وذلك لأنَّ الأديان لم تولد من العدم، ومفاهيم الحكمة لا تتوقّف أبدًا، بل تستمرّ من خلال الحكماء»[1].

(١) م.س، آفاق نورانية، ص ص. ١٠١ـ١٠٤.

لكلّ إنسان على وجه الأرض طريق ومسلك، يتابع من خلالها مسيرته وحياته، لكنَّ الإنسان الذي يهتمّ بتطوّره الداخلي أكثر من اهتمامه بمشاغل الحياة الدنيا، يشعر وكأنَّ هناك حثًّا داخليًّا يلازم هذا الإنسان ويدفعه في مسيرة التطوّر، تأثّر جنبلاط وانجذب إلى الأب بيار تيلار دي شاردان، رائد المصلحين من الناحية الاجتماعية، وهو يُعَدّ من كبار الفلاسفة العصريين ومن كبار رجال العلم حيث وضع نظريّات في مجرى التطوّر بدءًا من مستوى الذرّة حتَّى التركيب الإنساني وتجلّي العقل والوعي فيه، وهو يعتبر مكمّلاً لنظريّة برغسون حول «التيّار التطوّري».

يقول جنبلاط على الأب دي شاردان:

«إنَّ الكثيرين يعرفون، ولا شكّ الكثير عن الأب بيار رائد المصلحين في زاوية من زوايا النهضة الاجتماعية، التي تنجذب إليها بعض القلوب، التي ملأها الحبّ الإنساني الحقيقي، فهي، على حدّ قول الناصري، تعطي من فيض بحبوحتها.

وهذا الصوت الإنجيلي الجميل يذكّرنا، مسلمين ومسيحيين، بعظة الجبل الخالدة، حيث ينصهر في نورها، ويتوحَّد الإسلام والنصرانيّة، كأنَّ الدين، كلّ دين يضيع في مصدر النور.

كنت أهتمّ وبشكل خاصّ بفكرة التطوّر وكيف أخرجها الأب تيلاردي شاردان عن نطاقها المادّي التقليدي الذي عرفت به، خصوصًا في القرن التاسع عشر، مكمّلاً بالواقع نظريّة برغسون الشهيرة في «التيار التطوّري» ومتوّجًا العلم الحديث بالجمع والتوفيق في مجرى التطوّر بين المادّة والروح، ويجعل لهذا التطوّر هدفًا هو تكامل الوعي عن

الكائن الحيّ في وثبة الإنسان، الحرّية، وما يسمّيه بالـAssociationnisme، أي التجمّع العضوي التعاوني.

(...) فهو يُعَدّ من كبار الفلاسفة العصريين وكبار رجال العلم الذين فلسفوا العلم وأعطوه معنى، وخصوصًا النظريّات الحديثة على شمولها، من مستوى الذرّة حتّى التركيب الإنساني الذي يبرز فيه العقل والوعي. وأنا أظنّ أنّ تفكير الأب تيلار يغذّي فكرة الوحدة بين مختلف الكنائس المسيحية، وأيضًا ينشّط الوحدة الفكرية أو الروحية بين مختلف المعتقدات البشرية، وبهذا المثل يعتبر الأب شاردان في طليعة الذين يريدون التقارب بين جميع العائلات الروحية شرط أن تتبنّى كما تبنّى هو، هذه المبادئ العلمية «المطعّمة» بروح الدين الحقيقية إذا صحّ التعبير»[1].

الأب دي شاردان عرف من خلال الدين المسيحي معنى المحبّة وقيمة تطبيق هذه المحبّة بالأفعال بالسعي الحقيقي لتطوّر المجتمعات، فمبدأ المشاركة الاجتماعية هدف مهمّ باتّجاه التطوّر، وتطوير هذا الإنسان الفرد من خلال تفهّمه لإنسانيّته وتحقيق تكامله الذي هو غاية الغايات.

«إنّ الأب تيلاردي شاردان يوضّح تطوّر المجتمع المعاصر ويرشدنا إلى مسالك هذا التطوّر وإلى غاياته وكيفيّاته. فيتحدّث إلينا عن الـSocialisation، أو الإشتراكية الاجتماعية، وهي هدف من أهداف هذا التطوّر. ويرسم هدفًا آخر يسمّيه بالمجتمع البشري العضوي التعاوني، الاجتماعي أو الديكتاتوري. أمّا الهدف الثالث فهو التكوّر الإنساني

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص ص. ٢٧٣ـ ٢٧٥.

Planétisation الذي لا بدّ أن يصل إلى تفهّمه الإنسان لكي يحقّق إنسانيّته الكاملة من ضمن هذه الكثافة من العلاقات المعروفة والتي ستحيط الأرض بطبقة جديدة لطيفة يسمّيها الـNoosphére أو طبقة المعرفة".

سعى جنبلاط خلال حياته للوصول إلى التحقّق، من خلال المعرفة ونشاطه الخاصّ وسعيه المستمرّ للاستنارة، للغوص في أعماق الذات، حيث الطمأنينة والسلام والسعادة الحقيقية.

فكرة البحث عن الله عن المطلق تفتّحت بداخله باكرًا، وكان يقول إذا كان الله هو الحقيقة، فلا بدّ من أن تكون هذه الحقيقة موجودة، وبعد جهدٍ لا يعرف الكلل ولا الملل توصل إلى المعرفة الحقيقية، وهو الذي يقول: "داوم قرع الباب فسوف يفتح لك"، وهو داوم التفكير في حقيقة الوجود، وعلى قدر اشتياقه وحبّه لهذه الحقيقة جاهد حتَّى وجدها في التصوّف في الأديان في الهندوسيّة، حيث الحكيم يجسّد إرادة الحقيقة على الأرض يقود المريد الطامح والذي نفذت جميع رغباته من الدنيا إلى حيث النور الحقيقي المتجلّي في الداخل. وهذا ما يؤكّده جنبلاط بأنَّ الحكيم لا يعلم شيئًا غير موجود في الذات، بل هو يرشد المريد إلى هذا النور المتألّق في داخله، حتَّى يزيل المريد آخر طبقات الكشف، فيعرف الحقيقة في أبهى صورها ومعانيها، حينها تكتمل الروحانيّة داخل هذا الجسد، فيتعرّى الإدراك الحسّي من كثافته العادية، ويحلّ في الوحدة الجوهرية، فالجنّة التي تعدنا بها السماء هي داخل الذات، هي جوهر النفس القدّوس هي طبيعة الإنسان الحقيقية.

# الفصل الثاني

# الدين والأديان
# في فلسفة جنبلاط

١ـ مفهوم كمال جنبلاط للدين

٢ـ المسيحيّة

٣ـ الإسلام

٤ـ الهندوسيّة

أ ـ اليوغا

ب ـ الأتمان نور الوعي

٥ـ وحدة الأديان

# مفهوم كمال جنبلاط للدين

أسئلة يجيب عنها كمال جنبلاط في أكثر من عمل من أعماله:

**ما هو الدين؟ ما تعريفه؟ كيف يعبّر الدين عن الحقيقة؟**

يقول جنبلاط:

«الدين وسيلة لتحقيق الشخصيّة والحرّية في ذاتك بتكامل عناصر المعرفة والمحبّة والقوّة والخير والجمال، فإذا لم يتمّ الدين في نفسك كلّ هذا، بطلت غاية الدين، وبطلت وجهة العبادة. ووجب عليك إذ ذاك أن تتخيّر أنت بذاتك الطريق الذي يحرّرك من الضعف ومن الشرّ ومن الخطيئة، أي من ذاتك الظاهرة... وهذا الطريق في كلتا الحالتين، هو في أعماق ذاتك حيث ينبع الطهر والصفاء والخير والمحبّة والسلام، حيث تتفجّر قوى الحياة والحرّية الكامنة»[1].

الدين وجد لإرشاد الإنسان باتّجاه الخير، باتّجاه الفرح والسعادة، وعندما تستيقظ مكنونات الخير والسعادة في أعماق الذات يكون الدين قد حقّق الغاية المنشودة التي وجد من أجلها، وإذا لم يصل الإنسان إلى هذا الخير العميم، أصبحت العبادة طقوسًا، وترددًا للكلمات لا يحلّلها العقل ولا يميّز معانيها. ويقول أيضًا:

«الأديان مفيدة لأنها وجدت لتكون عامل استقرار، لترشد البشر وعامّة الناس في حياتهم، وهي تشكّل عنصر فرح، وعنصر مواساة

(١) م.س، آفاق نورانية، ص. ٤٦.

بشكل خاصّ، وذلك نظرًا للعلاقة الهامّة بين مختلف هذه العوامل ولكن برأيي، لا يكفي الإيمان بحدّ ذاته، لقد أوصلني أمام شاشة، أمام حائط حاولت دائمًا اجتيازه بهدف التقدّم ـ هنا أميّز تمامًا بين الإيمان واليقين، في الإيمان قد يكون لديك بعض الشكوك، وأحيانًا تجد نفسك ملزمًا ـ إلى حدٍّ ما، أن تعتاد على مفهوم للأشياء والوصايا العشر، وبعض الآراء حول الآلهة وغير ذلك. ولكن «اليقين» يفرض نفسه بنفسه، كما كنّا نرى النور مباشرة، هناك لا نستطيع أن نقول إنَّ هذا ليس نورًا، وحين نرى الشمس ساطعة لا يمكننا القول: هذا هو الليل»[1].

جنبلاط من خلال كلماته هذه يؤكد أنَّ الدين عامل استقرار وراحة للنفس الحائرة، القلقة التي تبحث عن الراحة عن السعادة ولو لم تكن هذه السعادة متأصّلة في أعماق الذات، لما كانت هي مطلب كلّ إنسان على وجه الأرض. ويرى جنبلاط أنَّ الإيمان أولى الخطوات والدرجات لأنَّ على الإنسان أن يتخطّى هذه الحالة باتّجاه خطوة أكبر وأهمّ، وهذا معنى التطوّر، تطوّر باتّجاه الأرقى والأسمى والثابت الذي لا يزول، حيث وجد جنبلاط أنَّ اليقين هو النور الذي لا تعتريه ظلمة. وحيث يؤكّد أنَّ الإيمان لا ينفع متى وصل الإنسان إلى جبل المعرفة «ولا يتمّ إيمانكم إلاَّ بالمعرفة»[2].

كذلك يقول:

«في الواقع، وفي أكثر أنحاء العالم، ننظر إلى الإنسان من وجهة الدين ولا يتعدّى الأديان إلى الإنسانيّة العميقة فينا التي تنبثق منها

(١) م.س، آفاق نورانية، ص. ٩٤.

(٢) م.س، جنبلاط، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٩٥.

جميع المعتقدات الروحية كالجداول من مياه الينبوع الواحد، فننظر آنذاك إلى الدين من جوهر ومن مرتقى الإنسان. كما أنه يجب، في معراج آخر للعقل البشري، وهو أساس مسالك الارتقاء في أيّ مستوى لاستكشاف الحقيقة، أن ننظر إلى الدين من الله وبعينه، لا أن نتطلّع إلى الله من منظار الدين. وإلاَّ يضحي لكلّ مؤمن صنم يتعبّده من فكره وتصوّره، والإله الحقيقي غير هذه الأصنام الفكرية المختلفة جميعها»[1].

إنَّ البحث عن الله يبدأ من الداخل من داخل الإنسان، فيتطلّع إلى الدين، حيث يضيء الدين طريق المؤمن فيسلك الصراط المستقيم مدركًا أنوار الحقّ والحقيقة في حنايا قلبه وشعوره.

ويجب أن ننظر إلى الإنسان أيًّا يكن هذا الإنسان من منطلق الإنسانيّة، لا من منطلق الدين. هذه الإنسانيّة الموجودة في الباطن في الروح، لأنَّ هذا الكائن القادر الذي يسمّيه جنبلاط الإنسان الساكن في الأعماق واحد، وعلينا عندما نتوجّه للآخر أن نتوجّه إلى ذاك النور الحقيقي، حينها تضمحل وتزول كلّ تفرقة وكلّ عصبية دينية وكأنه بذلك يتعدّى الأديان كلّها. فإذا نظرنا بعين البصيرة نعلم أنَّ الروافد مهما تعدّدت يبقى النبع والمصدر واحد.

يقول جنبلاط:

«الأديان والمعتقدات الروحية في جوهرها ممارسات تطهيرية وترفيعية تسهم في تنقية النفسيّة البشرية من آثار الأنانية التي تهيمن عادةً على الكينونة الفردية وعلى الكينونة الاجتماعية للفئات وللمؤسّسات، وعلى الكينونة القومية للأمّة وللدولة وللأوطان، إنَّ ملكوتي ليس من

(١) جنبلاط، ثورة في عالم الإنسان، لجنة تراث القائد الشهيد ١٩٧٨، ص. ١٠٩.

هذه الدنيا. (...) فأصالة الدين هي ترفّع وممارسة وتطهّر وفعل عدل ومحبّة وخير، وليست هي تعصّبًا لوطن، واستضافة لقضيّة دنيوية أو سياسية، أو انتسابًا إلى مذهبيّة قومية جديدة أو اعتمالاً بعبرانيّة معتقدية».

الدين في مفهوم جنبلاط ممارسة تطهيرية يساعد المرء على تنقيّة النفس البشرية من آفة الآفات وهي الأنانية الفردية التي تتحكّم بالإنسان، فلا يعود هذا الإنسان يفكر إلاَّ في نفسه، وكأنَّ الدنيا خلقت له دون سواه من البشر، وبالتالي تتوسّع هذه الأنانية كي تستأثر بالمجتمع وأيضًا بالمؤسّسات وتمتدّ مطامع الإنسان إلى حدود تفوّق الذات والمجتمع والوطن توصّلاً إلى الأمّة. والدين يترفّع عن كلّ هذه الأمور يترفّع عن كلّ أنانية وعصبيّة إن كانت هذه العصبيّة لمعتقد أو لقوميّة أو لوطن.

«مشكلة أيّة عقيدة روحية أو دينية أو علمية أو فلسفية ـ في المعنى العادي ـ أو اجتماعية أو سياسية هي أنها تتصوّر أنها وحدها الطريق وهي وحدها التفسير الفكري الأخير للوجود، فنخطئ الطريق ونضلّ عن استيعاب المضمون الحقيقي لهذا التفسير، فيتولّد التمذهب من ذلك التصوّر، فتصبح العقيدة، مع الوقت عائقًا وحائلاً دون التحرّر. فمن يتصوّر أنَّ الطريق هي ذاتها الغاية يضلّ عن الطريق ويقع في صنميّة المسلك وفي تحجّر الإيمان، وثمَّ يهو في جبّ التعصّب»[1].

جنبلاط ومن خلال حياته السياسية، تعمّق في كلّ المشكلات التي تواجه هذا الوطن الصغير في مساحته، ووجد أن بعض أتباع هذا الدين يكفرون أتباع الدين الآخر ويدخلون أنفسهم والوطن في أزمة الكفر والتكفير، وهذا لا ينعكس إلاَّ سلباً على الأفراد وعلى الوطن بأسره.

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١٧٣.

ومن هذا التعصب يولد التمذهب، وبالتالي كلّ هذا يكون حائلاً دون التحرر، ويبعد الإنسان عن جوهر دينه، وبدل أن يتخذ الدين من أجل الانعتاق والحرية يحول الدين بفكره الضيق إلى صنم متحجر.

«(...) فيتوزّع الناس إذ ذاك في نظر بعضهم البعض إلى مؤمنين وكفّار، أي إلى جماعات متفاوتة من البشر يتوقّع كلّ فريق منهم للآخر، ولجاره وقريبه، الجنّة أو جهنّم في نهاية مطاف العيش، ونسوا أو تناسوا أنَّ الجنّة التي ستجمعهم في النهاية هي واحدة وهي ذاتها، ولو اختلفت وتنوّعت الدروس في المسلك إلى القطب الحرم»[1].

يرى كمال جنبلاط في الدين وجهين: الوجه الأول الأساس هو «الحقيقة» والتي هي مطلب كلّ إنسان حيث لا تصلح حياة ولا تستقيم بدون الحقيقة، والوجه الآخر للدين هو التنظيم الاجتماعي للجماعات، وبالتالي الدين يساعد على إرساء حياة سعيدة ومتساوية بين الأفراد وأيضًا يرفع مستوى هؤلاء الجماعات.

الأديان عند جنبلاط وسيلة لتحقيق الغاية المنشودة وهي الاقتراب من الحقيقة وكلّ هذا لا يصحّ ولا يتمّ دون المعرفة، والدين وجد لإعطاء هذه المعرفة وفي هذا يقول كمال جنبلاط: «أمّا قصدي فكان منذ صباي توخّي المعرفة قبل وفوق العبادة، أيّ الشريعة، لأنَّ المعرفة تضيء سبل الشريعة وهي مفتاح العقل.

ولكنَّ الدين رابطة مع الاختبار أصيلة ـ اختبار الذين تطلّعوا ولو برهة إلى وجه الحقيقة الجذرية للوجود فعادوا إلى الناس وأخبروهم

(١) م.س، فيما يتعدّى الحرف، ص. ١٧.

عمّا تطلّعوا إليه وكما أدركوه... فكلّ نبي وقع على شيء من هذا الاختبار هذا ممّا لا شكّ فيه. ولولا ذلك لما كان لهم هذا اليقين، أوسمة الإيمان الصحيح. واليقين هو برهان الحقيقة»[1].

إذًا يؤكّد جنبلاط أنَّ غاية الدين وهدفه هو الولوج والانغماس في النور الحقيقي الكامن في أعماق الذات، حيث الاختبار الأصيل، حيث تشرق أنوار القلب حتَّى لتبدو «(...) وكأنَّ الجحيم والسماء يلتقيان في صدر المتطهّر فإذا لا جحيم هنالك ولا سماء، بل وجه الحقيقة المتألّق على الدوام بدون حجاب ولا تبديل ولا ازورار»[2].

يرى جنبلاط أنَّ جوهر الدين ثابت أزلي ولذلك يجب على النشء الطالع أن يطّلع على الدين وهذا واجب التربية والتعليم في مناهجنا الدراسية، شرط أن يكون للطالب حرّية الرفض أو القبول وهنا يتّبع الآية القرآنية الكريمة: ﴿لا إكراه في الدين﴾.

لأنَّ الأخطار التي تنجم عن قلّة المعرفة الدينية كثيرة وهو يأخذ شواهد على ذلك الغرب فأوروبا بعد أن قامت بحروبها ضدّ الدين لم تتقدّم ولم تتأخّر من جهة حلّ المعضلات الأساسية، كالمعرفة والسعادة. إنَّ البعد عن الدين يعني البعد عن المسلك السليم والأخلاق الحميدة التي يفرضها الدين، لذا لا معنى لتنحية الدين جانبًا.

وفي هذا يقول جنبلاط: «لقد تحوّل الغرب عن الأديان وأبدل المعتقدات الدينية بالفلسفة ـ فلسفة هيجل وكانت ونيتشه والتومائي وماركس وغيرهم وغيرهم ممّا لا يعدّون ولا يحصون، وفلسفة أنبياء

(١) جنبلاط، ثورة في عالم الإنسان، ص. ٣٢٠.
(٢) م.ن، ص. ٣٢٠.

القومية والدولية والوجودية والطبقية على السواء ـ فإذا بالغرب، وبعد جهد المحاولة وتحقيق الرغبة، يتطلّع إلى نفسه فيجد أنه حيث كان لم يتقدّم خطوة ولم يتأخّر خطوة من جهة حلّ معضلته الأساسية مع ذاته، معضلة المعرفة، معضلة السعادة...»[1].

وهذا ما نجده اليوم في الغرب حيث الشعور بالفراغ الروحي وتكثر النداءات من أرباب العلم والثقافة ومنهم «إيشفتسر»[2] بالعودة إلى ينابيع الشرق الأصيلة حيث الحضارة الهندية.

وهذا ما يؤكّده جنبلاط في كتاباته أنَّ هذا التطوّر المادّي الكبير يجب أن يرافقه ويواكبه تطوّر روحي، وإلاَّ يحصل الاختلال وينعدم التوازن، وهذا بالتأكيد يجرّ الويل على سكّان العالم ككلّ.

لكن للدين وجهًا آخر كما فهمه ومارسه البشر، وجه أقلّ إشراقًا من جوهر الدين نفسه. لذلك يميّز جنبلاط بين نوعين من الديانات والمعتقدات: النصف شاملة، والديانات الشاملة.

الديانات نصف الشاملة، ظهرت قبل المسيح بستّة أجيال، كالبوذيّة والهندوسيّة.

«وبدأت الأديان الشاملة في الشرق مع اليهوديّة، ولكنَّ الشرق منذ ألفَي عامّ هو تاريخ للنصرانيّة، نشأة وأمكنة ودينًا ومذاهب، وفرقًا لا آخر لها. ومنذ أربع عشر قرنًا، هو سجل للإسلام في بعثته المحمَّدية النبوية وفي رسالته الكبرى»[3].

(١) م.س، ثورة في عالم الإنسان، ص ص. ٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٢) إيشفستر: فيلسوف ألماني، من كتبه «فلسفة الحضارات»، ترجمة عبد الرحمن البدوي.

(٣) شيّا، د. محمَّد، كمال جنبلاط... لزمن آخر، الطبعة الأولى، دار النهار: ٢٠٠٧، ص. ١٣٨.

يرى جنبلاط أنَّ الحروب الدينية بدأت تظهر بظهور المسيحيّة في أنحاء المشرق، وأنَّ الأديان الابراهيمية الشمولية دخّلت فكرة التعصّب الديني أو العنصرية على أديانهم، فهي بدأت مع اليهود من خلال فكرة الشعب المختار والتعالي على الآخرين حيث يعتقدون أنَّ دينهم أفضل الأديان، ويجب فرض هذا الدين على سائر البشر. وكلّ هذه الأمور تؤدّي إلى النفور والحروب.

وفكرة الشعب المختار انتقلت بدورها مع المسيحيّة، ويقول جنبلاط: «إنَ الإسلام جاء من ضمن الفكرة الرسولية نفسها، يعني فكرة الشعب المختار أيضًا، التي تقمّصت من الأصل اليهودي»[1].

«ففي الحقيقة دخلت فكرة التعصّب مع الأديان الشاملة، مع فكرة توحيد الآلهة Monothéisme، وهذه حقيقة تاريخية يلاحظها توينبي ويعلّق عليها. في الهند أيضًا علينا ألاَّ نوفّر الهندوسيّة من هذه العصبيّة، حتَّى يومنا الحالي أيضًا، حيث حدثت مذابح عديدة»[2].

ليس الدين هو الذي يحمل الحروب للناس، إنَّما فهم بعض الناس الخاطئ للدين، وممارساتهم الضيّقة، وتأويلاتهم غير السليمة تؤدّي إلى التنافر والحروب، وهنا يحاول كمال جنبلاط أن يجد الحلّ لهذه المشكلة.

«أمَّا التخلّص من آفات التعصّب والانحراف ما يشبهها من آفات مسيئة للدين، والدين براء منها، فيكون عند جنبلاط بسلسلة من الجهود التي تبدأ بالوسائل والإصلاحات السياسية والاقتصادية والتربوية، انتهاءً

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١١٢.
(٢) م.ن، ص. ١١٣.

بالوعي الحقيقي لوحدة الأديان أو لوحدة الدين، داخل كلّ التنوّع القائم»[1].

لا تجد النفس البشرية الاستقرار والراحة إلاَّ بالمعرفة، وطالب المعرفة هو طالب الحكمة حيث السعادة الأزلية وهي مكنونة في الأعماق، لذا طالب الله واحد لا فرق بين دين وآخر ولا ملّة وأخرى، وعلى قدر الشوق والولع لرؤية وجه الحقّ تتحقّق له النعمة التي لا تزول مطلقًا.

«علينا أن لا نترك معبد أجسادنا في الظلمة المسيطرة، علينا أن نولع فيه قنديل المعرفة. أشعل قنديل الحكمة في غرفتك وتأمّل وجه الأمّ الإلهية، إنَّنا نستطيع جميعنا أن نتوصّل إلى هذه المعرفة.

تأمّل في الحكمة وفي السعادة الأزليّة تلقَ السعادة. إنَّ السعادة هي أزليّة ولكنَّها محجوبة بظلمة الجهل»[2].

يجد جنبلاط أنَّ جوهر الأديان واحد لا فرق بين جوهر الإسلام وجوهر المسيحيّة والبوذيّة، ولا أيّ دين آخر، فكيفما توجّهتم وحيثما كنتم فنور الله يملأ الوجود بأسره، ولذا لن يدخل ملكوت السماء من لا يؤمن في كلّ رسالة وفي جوهر كلّ دين.

«بين الإسلام والنصرانيّة، في الشرق كما في الغرب، عقد لا ينفصم في الواقع، أكان في اتّجاه وحدانيّة الوجود وتوحيده، أم كان في الاشتراك في العيش ونضال الحياة وطلب المصير، أم كان ذلك في حقل الحضارة. حقائق لا بدّ لنا أن نستوعبها لكي لا يضيع جهدنا سدى، إنَّما واجبنا أن

(١) م.س، كمال جنبلاط... لزمن آخر، ص. ١٤٧.

(٢) م.س، آفاق نورانية، ص ص. ٣٥ ـ ٣٦.

نتعمّق في تفهّم بعضنا للبعض الآخر، وفي إزالة العقبات وفي تعدّي الحرف واستشفاف مطلب الروح، وأن نسير قدمًا، وأن نتذكّر أنَّ العقلاء بيننا الذين يتمنطقون ويتفلسفون ويحسبون ألف حساب في حذرهم وخشيتهم، قد لا يكونون هم العقلاء، وإنَّما الحكمة كثيرًا ما أعطيت على حدّ التعبير الإنجيلي، للبسطاء وللجريئين وذوي النيّات الحسنة والإرادة العفوية وأنَّ الإنسان هو الذي يطهِّر الهيكل ويحيي المعتقد وليس هو الهيكل الذي يطهِّر الإنسان...»[1].

للحقيقة جوهر واحد، لا يتغيّر ولا يزول، والإنسان العارف المتحقِّق يستطيع أن يرى هذا النور في كلّ كتاب مقدَّس وفي كلّ وجه، وإنَّما كما يقول جنبلاط ما يحجب الحقيقة هو الجهل، الجهل في فهم الحياة، الجهل في معرفة قوانين الطبيعة، فعندما نزيل الفوارق نرى وجهًا واحدًا، وتنحلّ الازدواجيّة في الوحدة ويتبدَّد الوهم الخادع حينها يستقرّ الإنسان في النور، في الحقيقة التي لا تتغيّر ولا تختلف.

«(...) واعلم أنَّ اليهوديّة والنصرانيّة والإسلام وغير ذلك من الأديان هي ألقاب مختلفة وأسامٍ متغايرة، والمقصود منها لا يتغيّر ولا يختلف. وللتأكّد من صحّة المقابلة ومن واحديّة المشاعر ومماثلة التحقّق والتصرّف كم تنشرح النفس لو قبِل كلّ منّا أن يقرأ للآخر وأن يضطلع في مراتب القمم أو في مقامات الحياة العادية، على ما ينصح به كلّ دين وما يبرز في حياة أوليائه وفي تفكيرهم وعاطفتهم وأقوالهم، وفي ما ينبجس عنه العيش العادي بين هؤلاء «الصغار» على حدّ تعبير الناصري أي البسطاء والذين تسكن السذاجة والعفويّة قلوبهم، ونسيت أنها من

(١) م.س، فيما يتعدّى الحرف، ص. ٣٩.

حزب هذا النبيّ أو ذاك، أو تذكّرت أنها حقيقة لا صباغًا واستتارًا وتلبّسًا، من حزب عيسى أو من حزب محمّد...»[1].

هذا رأي جنبلاط ومفهومه للدين، أنَّ الجوهر واحد لا يتغيّر وأنَّ كلّ دين هو رافد للنبع الأصيل، وبالتالي الجزء يحمل خصائص الكلّ وكلّ طريق يلجأ إليها المؤمن هي طريق الله، المهمّ أن يكون مقتنعًا بأنَّ هذا الطريق هي التي توصله إلى هدفه الأسمى، وأن يتنبّه كي لا يضيع في المسلك فيضلّ عن هدفه تمامًا كما شبّهها في كتاب «أتماداراشان» للحكيم أتمانندا، معلّم كمال جنبلاط حيث قال:

"VIII- Water can be reached straight way from wave by following the direct path. If the way through sea is taken much more time is needed"[2].

١ـ يمكن بلوغ الماء مباشرة من الموج باتّباع الطريق المباشر، فإذا أخذ طريق البحر، يلزم وقت أطول.

٢ـ عندما ترتطم الأمواج بالشاطئ، تستنزف ذاتها، فتعود متعبة، منهوكة تنشد الراحة والسلام، وهكذا النفوس الفردية «جيفا» تنشد المطلق بطرق مختلفة»[3].

عندما يبدأ التقسيم والانقسام بين أتباع دين إلى طوائف ومذاهب تأخذ العصبيّة نزعتها الانفعالية أكثر فأكثر، وهنا تتغيّر ملامح الدين، تتغيّر مفاهيم الدين ومبادئه، ويكثر التأويل والتفسير والتحليل، وبالتأكيد تكون الأنانية الفردية هي المحرّك الأول والعصبيّة للطائفة هي المحرّك

(١) م.س، فيما يتعدّى الحرف، ص. ١٧.

(٢) Atma-Darshan-Sri Krishna Menon-Atmananda-1946-P.8.

(٣) جنبلاط، الحياة والنور، الطبعة الثانية، الدار التقدّمية: ١٩٨٧، ص ص. ١١٥ ـ ١١٦.

الثاني، فيحصل ما لم يكن بالحسبان، لأنَّ العنصريّة التي تظهر من طرف ما، تجبر الطرف الآخر للتعنصر أيضًا، وحينها تتحوّل الطائفة إلى حزب. وهنا يستغلّ الدين من أجل مآرب وأهداف شخصية وعنصرية.

«... العناصر الرجعية تستغلّ الدين لإلهاء الجماهير عن الأهداف الاجتماعية والإشتراكية التي يجب أن تناضل من أجل تحقيقها، ولإبقاء امتيازاتها المادّية والمهنوية، إنَّهم يستغلّون الدين استغلالاً الأمر الذي فضحه ماركس في ما مضى، والذي يفضحه كلّ يوم واقعنا المرير في لبنان. ولا عجب أن تتجاوب الرجعيّة في الصفوف الإسلامية مع هذه الرجعيّة في الصفوف المسيحيّة، فيقوم الحلف المصلحي الذي يتمثّل بالنصيحة المشتركة: إفعل هذا وهيّج هذه العصبية أو تلك، لكي أستطيع أنا بدوري في الصفّ الآخر أن أستثير عصبيّة مماثلة...

إنَّ الإشتراكية تعلّمنا أن ننظر هكذا إلى ما يحصل في لبنان، على ضوء القاعدة الشهيرة من أنَّ كلّ فئة رجعيّة تحاول على الدوام أن تستغلّ الدين والطائفة، ولا علاقة للدين والطائفة ببعض المصالح الزمنية والمادّية»[1].

الدين ليس بحاجة لمن ينصّب نفسه مدافعًا عنه وأنه حامي السنن والشرائع، لأنَّ مثل هذه المواقف تولّد العصبيّة والتحجّر، حيث تبلغ الأنانية الفردية مداها الأكبر، وينصّب هذا الإنسان نفسه وكأنه يمثّل إرادة المطلق على الأرض، والدين في جوهره القدسي براءً من كلّ هذه التصوّرات والبدع.

(١) جنبلاط، ربع قرن من النضال، الطبعة الثانية، الدار التقدّمية: ١٩٨٧، ص. ٣٠٩.

«وما هو أسوأ هو أنَّ التعصّب للأديان يولّد الحروب والصراعات والإبادة ومشاريع الاستغلال، والحقد والدمار الواسع باسم مُثُل إنسانية مزعومة. وهكذا فإنَّ ديانات المحبّة ذاتها مهدّدة بأن تغدو وبعد زمن معيّن حبًّا للذات وحقدًا على ما عداها»[1].

الدين يفسّر المجهول، والذي هو مطلب كلّ إنسان إن كان يعي حقيقة وجوده أو غير واعي لحقيقته الجوهرية. وهنا يضع جنبلاط الفرق بين الحكمة والدين تمامًا كما وضع سابقًا الفرق بين الإيمان واليقين، فهناك أشخاص تبقى طيلة حياتها في مرتبة الإيمان، وأشخاص تتعدّى وتجتاز هذا الحدّ توصّلاً إلى اليقين الثابت أو الحكمة التي لا يسبر غورها إلاَّ قلّة قليلة من البشر.

«في هذا المستوى يوجد فرق بين الدين والحكمة. فالدين يتوقّف عند مستوى الإيمان، يظلّ ثمّة حجاب الجسد، أو حجاب الفكر المانع: أن ندرك الحقيقة الأخيرة من هذا الوجود الذي نتلبّس فيه بجسد. أمّا الحكمة أو العرفان في المفهوم التقليدي، فندّعي أنها تستطيع، انطلاقًا من هذا الوجود، أن تتعدّى الإيمان لتتعرّف إلى حقيقة الوجود الأخير لكي نختبره ونتوحّد فيه. وهذا ما يخبرنا إيّاه كبار الصوفيين والعارفين في جميع الأديان»[2].

وبما أنَّ عقول الناس غير متساوية، والمعرفة تعطى لكلّ إنسان على قدر استيعابه لها، كي لا يصل مع ازدياد المعرفة إلى نقطة تضع هذا الإنسان في موقف حرج وتدخله في حيرة لا يعرف الخروج منها. من

(١) م.س، آفاق نورانية، ص. ٢٠.

(٢) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٧٦.

هذا المنطلق أتت فكرة ابن رشد عن مستوى عقول وفهم البشر للأمور الدينية، فمنهم من يكتفي بالموعظة والبعض الآخر بالجدل، أمّا البرهان فهو للقلّة من الناس.

«للدين وظيفة اجتماعية للعامّة من الناس الذين لا يستطيعون الارتفاع إلى مستوى الحكيم أو العارف الذي لا يعود بحاجة إلى التقيّد بالمعتقدات الدينية كما يتقيّد الرجل العادي، على حدّ تعبير أحد كبار الصوفيين. الدين يظلّ ضرورة كأسلوب طالما لم يصل الإنسان إلى الهدف الأخير الذي يتعدّى كلّ دين. لأنَّ الدين هو نظرة تفسيرية للهدف الأخير، كشف في نطاق الفكر لهذا الكائن الأسمى.

وختامًا نقول مع كمال جنبلاط:

«آن الوقت لمختلف المعتقدات أن تعود إلى مفهوم رسالتها الاجتماعية الكبرى، دون أن تهمل لأجل ذلك رسالتها الصغرى بالنسبة لإصلاح الفرد والإسهام في تكوين القيادة، لأنَّ الآية المعكوسة هي أيضًا صحيحة: «كما يولى عليكم تكونون». «إذا فسد الملح بماذا يُملّح؟»»[1].

(١) م.س، ثورة في عالم الإنسان، ص. ١٥٥.

# المسيحيّة

تعرّف جنبلاط على الدين المسيحي في مدرسة عينطورة، وأحبّ الإنجيل المقدّس والتعاليم التي كان الآباء يعلّمونها لهم، وجد في طريقة العيش البسيطة المتقشّفة نفحات روحانيّة أتت بولادة المسيح وكانت ولادة العدالة والمحبّة والحنان.

«ولد في الربيع، وأيّ ربيع أروع وأبهى وأهنأ للنفس من ربيع تفتّح الحقيقة الأخيرة والنعمة القصوى والحياة المطلقة في مسالك القلب والعقل!»[1].

«أهلاً بإطلالة الطفل الإلهي «من روح الله» على حدّ وصف القرآن الكريم (...)».

يقول جنبلاط: «ولادة يسوع، كولادة البوذا السعيد وكولادة كلّ «إنسان إلهي» وكلّ رسول، ما أبهاها وأروع معنى النعمة فيها كالندى الذي يزور الأرض المتعبة العطشة من حين إلى آخر ليبرّدها وينعشها ويحييها ولو إلى وقت. ولو أنَّ معظم الذين يعيّدون هذا العيد الجميل، لو مرّ بهم يسوع في ثوبه المرقّع وشعره المسدل المضطرب وقدميه الحافيتين ووجهه الصافي وعينيه العميقتين المثيرتين والمتأمّلتين، لرآهم في ليلة العيد يرقصون كالمعتوهين في الحانات وفي حوانيت الليل ـ يقدّسونه من خلال رغباتهم ذاتها، وهم لا يدرون...

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٥٠.

سيظلّ يسوع هذا الجسر بين العقل والذات ـ يولد في نفوسنا وتبرز بولادته روح العدالة ونفحة المحبّة والحنان والقوّة، وسيظلّ مصلوبًا يتطلّع إلينا ـ لو صحّ له ذلك. من شرفة قمّته، وكذلك كلّ رسول وكلّ نبيّ وكلّ من شاء القدر أن يكون صلة بين الناس والمعرفة...»[1].

إنَّ النقطة المركزية الأساس في المسيحيّة هي المحبّة وروح التسامح والأخوّة الحقيقية والعمل من أجل بعضنا البعض، فالمسيح المثال الأكبر للتضحية وهو الذي قدّم جسده قربانًا على مذبح الحياة، وأتى فاديًا للبشريّة جمعاء، وخاصّةً الفقراء منهم.

يقول أيضًا: «(...) وينسى هؤلاء أنَّ الناصري لم يأتِ إلى هذه الدنيا ليتحالف مع أغنياء الأرض وكهّان هيكل أورشليم المستثمرين للصدقات والتقديمات، بل جاء على حدّ تعبيره «لأجل الفقراء»، وأنَّ تعاليمه وحياته ثورة اجتماعية بالمعنى الصحيح للكلمة. ولذا سمّيت دعوته بـ«ملكوت الفقراء» فكيف يمكن لأحد من القيّمين على هذه الرسالة أن يتحالف مع مظالم الرأسماليّة ومقوّمات الحضارة المادّية التي أوجدتها هذه الرأسماليّة؟!»[2].

تعمّق جنبلاط في المسيحيّة حتّى أصبح يدرك أسرارها ومعانيها أكثر من كثير من الرهبان، أحبّ طريقة حياتهم البسيطة، وروح التواضع والغفران والمحبّة التي دعا إليها المسيح هي الشريعة، هي الناموس. ويحذّر المسيح عليه السلام من البغضاء والأنانية القاتلة المدمّرة (...): «أحبّوا بعضكم بعضًا، هذه هي الشريعة وهذا هو الناموس»، وافعلوا مع

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٩٦.

(٢) م.ن، ص. ١٥٧.

الآخرين هذا الذي تريدون أن يفعلوه بالنسبة إليكم وفي علاقتهم بكم. هذه هي الشريعة وهؤلاء هم الأنبياء»[1].

يرى جنبلاط في المسيحيّة روح المحبّة والعطاء والتآخي، حيث شدّد المسيح في كلامه على أنَّ الأغنياء، الذين لا يأبهون للفقراء لا يدخلون ملكوت السماء، والملكوت الذي وعد به ليس على هذه الأرض. والمسيح علَّم تلاميذه معنى التواضع والمحبّة الحقيقية حين غسل أقدامهم.

هذه المحبّة التي أخذت حيّزًا مهمًّا في حياة جنبلاط «ينبغي أن تكون وراء كلّ منهج أو عمل أو رأي أو قول، حتَّى في أشدّ اللحظات صعوبة في التعنيف المادّي والمعنوي على السواء»[2].

المحبّة هي التضحية بالأنانية من أجل الآخرين، دون التطلّع أو النظر إذا كان هذا الآخر يستحقّ هذه التضحية أم لا. إنَّ فرح العطاء أهمّ بكثير من فرح الأخذ، لهذا نجد جنبلاط عندما وزّع أملاك آل جنبلاط في الإقليم[3] للمحتاجين، وكان يجالسهم من وقت لآخر، يرى مدى السعادة والفرحة التي تغمر قلوبهم، كانت تلك اللحظات عنده ليست فقط أثمن من الأملاك، بل أثمن من الذهب ذاته.

«وهذا صوت الناصري من قبل يوصي بالعدل بالرحمة وبالمحبّة التي لا تطلب لها ثوابًا أو مقابلاً، ويرجم أغنياء الأرض أي الذين تعلّقوا بالمال كما يربط المرء حجر الطاحون في عنقه، ولم يقوموا بما يتوجّب عليهم في بناء مجتمع العدالة والأخوّة والتضامن والتعاضد والتكافؤ في

(١) م.س، فيما يتعدّى الحرف، ص. ١٨.

(٢) م.ن، ص. ١٠٠.

(٣) الإقليم: منطقة في الشوف الساحلي، تبعد عن بيروت ٤٠ كلم تقريبًا.

فرص العيش والتنمية لكلّ فرد»، «إنَّما جئت لأجل هؤلاء: أي الفقراء (أي في عدم تعلّقهم بالمجد وبالمال)، ولأجل البسطاء (أي بتوجّههم العفوي إلى مصدر الرفعة في الإنسان)، ولأجل التعساء». «إنَّ مرور جمل من ثقب الإبرة أيسر من أن يدخل الغني إلى ملكوت الله». لأنَّ الأغنياء، قد نالوا عزاءهم»، لأنهم لم ينظروا إلى أحد حولهم. «لا تقتنوا ذهبًا ولا فضّة ولا نحاسًا في مناطقكم ولا مذودًا للطريق، لأنَّ العامل يستحقّ طعامه»[1].

هذه هي مشيئة السيِّد المسيح في تجسيد مفاهيم المساواة والأخوّة والمحبّة والتضامن الإنساني في نظام وذهنية وأهداف المجتمع.

«(...) ليس الذين يقولون يا رب يا رب، هم الذين يدخلون ملكوت السماوات إنَّهم الذين يفعلون مشيئتي»[2].

من منطلق النور الذي يضيء الوجود ويضيء حنايا الذات، وهو واحد في الإنسان وفي الوجود، والأديان بمفهوم جنبلاط جوهرها واحد لا اختلاف بينها على الإطلاق، لهذا يجب على الإنسان أن يعيّد في عيد الميلاد كما يعيّد في عيد المولد النبوي الشريف كما كلّ الرسل والأنبياء. النبع واحد والروافد لا بدّ حتمًا ستصبّ في نفس البحر أو المحيط. ﴿وأينما تولّيتم فتمّ وجه الله﴾[3].

«وإذا دفعنا جانبًا بالطقوس والممارسات الدينية، أو إذا أدركنا معنى وقصد هذه الطقوس الجوهري، لعلمنا جميعًا أنه لا بدّ لنا أن نشترك

(١) م.س، ثورة في عالم الإنسان، ص. ١٥٣.

(٢) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١٥٦.

(٣) القرآن الكريم، البقرة، ١١٥/٢.

في العيد المجيد... فعيسى في إيمان المسلمين السنّة والشيعة هو "روح الله" وهو في معتقد أخواننا الدروز العقل الكلّي الذي تجلّى في المسيح الحقيقي لا في المسيح الظاهر ـ أي مسيح الجسد والفكر، وهو في المعنى الذات الأولى في سلّم انبثاق الوجود ـ فيما يتعدّى الفكر والزمان والمكان والكلام ـ هذا الجوهر النوراني الصافي ـ الذي لا يخالط نوره ظلمة على حدّ التعبير الشريف والذي منه انبثقت النفس الكونية في حركة تكثر الواحد وتنوّع الوجه الحبيب الفريد. والمسيح في هذا المعنى هو العقل الأرفع ـ جدول فيض وعي ونعيم ووجود من الينبوع الأصيل ذاته ـ أو غيره من المفاهيم التي وردت على لسان المريدين في المعتقدات بلاد الهند والشرق الأقصى وفلسفاتهم..."[1].

الدين وجد من أجل خلاص الإنسان، كي يتخلّص من الوهم، من الازدواجيّة، ويدرك أنَّ هذا العالم هو عالم الحواس والجسد، فإذا أغمض عينيه وتنبّه للنور الداخلي للوعي، حينها يعرف تمام المعرفة أنَّ هذا النور هو هذه الحياة الحقيقية وهذه الذات العارفة الأصيلة.

إنجيل يوحنّا، قال المسيح: "إن كنتم تحبّونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزّيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد. روح الحقّ الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه. وأمَّا أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم. لا أترككم يتامى إنّي آتي إليكم. بعد قليل لا يراني العالم أيضًا أمَّا أنتم فترونني، إنّي أنا حيّ فأنتم ستحيون. في ذلك اليوم تعلمون إنّي أنا في أبي وأنتم فيّ وأنا فيكم. الذي

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١٦٢.

عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبّني والذي يحبّني يحبّه أبي وأنا أحبّه وأظهر له ذاتي»[1].

المحبّة التي دعا لها السيِّد المسيح هي هذه المحبّة الصادقة، المخلصة التي لا تزول على الإطلاق، إنَّها السعادة إنَّها السلام، فعندما يضحّي الإنسان بأنانيته الفردية، ويقدّم للآخرين ما يحتاجون إليه بكلّ محبّة وطيبة خاطر، إنَّما يحقِّق إرادة الله في ذاته وعلى الأرض.

«ولذا قيل في الحبّ الحقيقي، أي الذي يفطن إلى حقيقته وطبيعته وقصده إنَّه توحيد، أي مسلك توحيدي... الحبّ الحقيقي هو مقياس كلّ حلال، وانعدامه مقياس كلّ حرام أو ضلال. ولكن يتوجّب علينا دائمًا، لتتميم فضيلة الصدق، ولأجل مراعاة شعور الآخرين، والانصياع إلى قواعد المجتمع وسنن الدين، أن نلتزم بموجبات الشريعة الظاهرة، وبغيبة الحبّ الحقيقي تكون الصنميّة، وبوجوده تتحطّم وتهلك، في النفس، جميع الأصنام»[2].

«(...) أراد يسوع أن يصفع جميع الذين استعبدتهم القوالب وأرتهنتهم الشرع واستحوذت على نفوسهم أنظمتهم، فتعاموا عن الجوهر وانصرفوا عن المعنى وتحوّلوا عن المسار.

«وهدم الهيكل» وبناؤه من جديد في ثلاثة أيام يعني في الواقع تحرّر الإنسان. وكان يقصد به الناصري التحرّر ممَّا ذهب إليه العبرانيّة اليهوديّة في تقديم الشريعة على المسار، والاعتقاد على التصرّف والمبنى

(١) إنجيل يوحنّا، الإصحاح الرابع عشر، ص. ١٧٥.

(٢) جنبلاط، أدب الحياة، الطبعة الرابعة، الدار التقدّمية، ص. ١٣٢.

على الروح، والحرف على معناه ودلالته. فكسر بذلك إناء العهد القديم وحطّم عصبيّة معتقد أبناء ابراهيم وعصبيّة كلّ معتقد".

يميّز جنبلاط بين الذات الجوهرية والذات الفردية الأنانية، فعندما يتخلّص الإنسان من أنانيته يتخلّص من الوهم والازدواجيّة وتشرق ذاته الحقيقية فينعم بالنعيم وبالسعادة وبالفرح.

"(...) فبما أنَّ الكلمة المعروفة، "أنا وأبي واحد" أي أنا النفس الفردية ـ في جوهرها وحقيقتها ـ وأبي ـ أي جوهر الوجود المطلق ـ ذات واحدة وهكذا جميع أبناء الله، أي بني البشر، فلا ألوهيّة منفصلة عن جوهر الإنسان وطبيعته، ولا طبيعة إنسانيّة منفصلة في جوهرها وحقيقتها عن أحديّة الوجود المطلق المظهر لكلّ وجود"[1].

الأديان وجدت لتنير دروب الحقّ والهداية، ولترشد النفوس الضالة عن مسارها الصحيح والسليم، فإذا دخلت الأنانية والمصلحة الذاتية في كثير من الأمور، جعلت بعض رجال الدين يتحوّلون عن المسار السليم، لتحوير وتحريف وتأويل بعض الأمور بما يتناسب وحالات الوضع المناسب التي تمرّ به أمّة أو دولة، وهنا تبدأ الآفات والمشاكل وتنقلب الكثير من المقاييس.

"فالناصري تحرّر من التعصّب والعصبيّة وحيث لا يكون هناك تفريق ولا تمييز يكون الحقّ. فالتعصّب هو آفة الأديان. وبالحقيقة طبع الإنسان على عكس فرديّته وأنانيته على كلّ شيء"[2].

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص ص. ١٦٦ ـ ١٦٧.
(٢) م.ن، ص. ١٦٨.

فدعوة المسيحيّة إلى المشاركة في العمل واعتبارها الكسل مصدر الرذائل. حيث يبدأ توزيع الدخل على أساس الحاجة، كان من الأمور المهمّة بالنسبة لجنبلاط وجعلها بندًا من بنود الإشتراكية التي أسَّسها في حزبه، فإذا كان يحقّ للإنسان الحصول على المال مقابل أتعابه، فينبغي أن يكون حسب حاجته خاصّةً إذا كان هذا الإنسان معيلاً لعائلته وأهله. فكلّ حقّ لا بدّ أن يقابله واجب وإلاَّ يبطل هذا الحقّ. لهذا يجب أن يحلّ التوافق الحقيقي والمشاركة الحقيقية بين الإنسان وأخيه الإنسان.

«وقال المعلِّم أيضًا إنَّ السلام بين الإخوان والمحبّة والتسامح أفضل من الصلاة ومن التقدمة: «فإن أنت تذكّرت وأنت تقدِّم قربانك إلى المذبح أنَّ لأخيك شيئًا عليك، فاترك قربانك أمام المذبح واذهب أولاً واصطلح مع أخيك... إلخ»[1].

على الإنسان أن يجاهد طوال حياته على إبقاء ذاته في النور، في الفرح في السعادة، لهذا يسعى لتطهير نفسه من العصبيّة والأنانية وكلّ السلبيّات، فبقاء الروح والجسد والفكر في حالة من الطهارة يُدخل السلام الحقيقي في الذات، ويتعرّف الإنسان على ذاته الحقيقية فيدخل في المشاهدة الجميلة حيث يشاهد وجه الرب.

حينها يكون الإنسان هو المنتصر الأول، المنتصر على خبائث النفس ووساوسها وشرورها، ويحقِّق التطوّر، تطوّر باتّجاه الحياة باتّجاه الحرّية والإشراق. لهذا قال كمال جنبلاط «إنَّ الحياة انتصار للأقوياء في نفوسهم لا للضعفاء»[2].

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٦٣.

(٢) م.ن، ص. ٤٧.

«الحياة شعلة في يدي(...) وعليّ واجب أن أجعلها أكثر نورًا وتألّقًا قبل أن أسلّمها للأجيال القادمة.

في كلّ حيّ نبضة من الروح ونفحة من الفكر فإن أتمّ تمامه تجلّت فيه الروح كاملة وتجسّد فيه الفكر والوعي على كماله»[1].

روح التآخي والمحبّة تتوهّج بالأنوار وبالفرح، ورسالة المسيح رسالة فرح وحنان، حيث يتفجّر هذا الوجد والشوق للصورة الأزلية، فينفضِ الإنسان عنه عبء السنين عبء الدهور، حتّى لتبدو وكأنها ثورة داخلية يحطّم فيها الضعف والهوان يحطّم فيها كلّ دنس وخطيئة لأنّ في النهاية الغلبة والنصر للروح وحدها.

«(...) هنيئًا للفقراء بتجرّد ذواتهم عن المادّة لأنَّ لهم ملكوت السماوات»[2]. «إنَّ هذه التسمية هي أيضًا صحيحة من وجهة حياة يسوع الناصري وتلامذته وأتباعه وحياة المسيحيين الأوّلين، ومن وجهة الأفكار الاقتصادية والاجتماعية التي تضمّنتها الأناجيل، لأنَّ يسوع الناصري هو في الواقع صاحب رسالة ثورية في جميع عناصرها ومظالمها. هو أعظم الثائرين، وهو شفيعهم على مرّ التاريخ ومثلهم الأعلى، لأنه أراده انقلابًا شاملاً وحاسمًا وتامًّا لجميع أوضاع الإنسان. وقد لا نجد ليسوع مثيلاً إلاَّ بوذا السعيد. ومن المؤسف أن يخفى على الكثيرين من الذين يتصوّرون وجه الناصري، في التفافهم الصنمي حول تماثيله وحول ذواتهم الصغيرة، يغذّون فيها الضعة والشعور الدائم بالخطيئة وبالدنس، أن يخفى على هؤلاء أنَّ يسوع قد رفض

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٤٦.

(٢) الإصحاح الخامس، متّى.

الخطيئة والدنس وتنكّر للضعف المتواضع وللتواضع المتخاذل، وأنه كان المتمرِّد على جميع الأوضاع والحالات الروحية والمادّية، المتمرّد على الحرف باسم الروح، لأنَّ الروح وحده ينقذ»[1].

عندما سئل المسيح كم مرّة ينبغي أن يغفر الإنسان لأخيه الإنسان إذا أخطأ معه إلى سبع مرات؟ فأجاب: بل إلى سبعين مرّة سبع مرات، حتَّى أنَّ الذين يسيئون إليكم لا تعاملوهم بالقبيح، بل أحبّوهم وباركوا لأعنيكم، لأنَّ قانون الحياة والطبيعة يقول إنَّ لكلّ فعل ردّ فعل وكلّ يلقى عمله.

قال بطرس: «يا سيِّد، إن أخطأ أخي إليَّ فكم مرّة أغفر له، أإلى سبع مرّات؟ قال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرّات، بل إلى سبعين مرّة سبع مرات».

وقال المعلِّم في عظة الجبل الخالدة: «تعلمون أنه قيل: تحبّ أخاك وتبغض عدوّك. وأمَّا أنا فأقول لكم: أحبّوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم والذين يضطهدونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات، فإنَّه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين وينزل مطره على الأبرار والظالمين»[2].

وجد جنبلاط في الروح المسيحيّة والمبادئ الإشتراكية أوجه شبه مختلفة، إن كان على الصعيد الاجتماعي، أو الاقتصادي، حيث يحصل العامل على المال حسب حاجته له لا حسب إنتاجه، والعمل من أجل

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٤٧.

(٢) م.س، متى ٥، جنبلاط، ص ص. ٤٣ ـ ٤٦.

تحقيق المساواة ما أمكن بين الطبقات الاجتماعية. وفي منظور جنبلاط لا تفاضل لإنسان على آخر إلاَّ من حيث النشاط والمعرفة.

«وكان بين المسيحيّة الإنجيلية والإشتراكية تشابه وتلاقٍ حميم من حيث الدعوة وعلاقتها بالفئات الاجتماعية ذاتها التي تدعو إليها المسيحيّة والإشتراكية على حدّ سواء: فئات فقراء وعمّال وصعاليك هذه الدنيا، دون سواهم. فلم تتوجّه بشارة الناصري ودعوته إلى الأغنياء ولا إلى أصحاب السلطان وأرباب الوجاهة والجاه (تذكّروا جوابه الصامت على سؤال بيلاطوس: ما هي الحقيقة؟) ولا حتَّى إلى الفئات المجتمعة التي تعوّدنا تسميتها: الفئات البرجوازية المتوسّطة. إنَّه كان يكره الوسط في كلّ شيء ـ لقد خصّ دعوته على حدّ تعبير رينان بـ:

أ ـ الأولاد وبالذين يشبهونهم.

ب ـ معدومي هذه الدنيا وضحايا تفاوت النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي يتنكر للرجل الفاضل المتواضع.

ج ـ الهراطقة والزنادقة والعشارين والسامرين ووثني صور وصيدا[1].

كان المسيح يحثّ أتباعه على تقوية الروابط الاجتماعية يحثّهم على الصحبة والصداقة، لأنَّ هذه المحبّة تبعد الإنسان عن أنانيته وتجعله يفكّر في أخيه الإنسان أكثر من تفكيره بذاته. وبالتالي هذه التضحية بالأنانية تدخله ملكوت السماء.

(١) م.س، جنبلاط، ص. ٢٦٥.

«وكان الناصري يوصي ممثّليه وحواريه بالصحبة وبالصداقة، وهي أقوى روابط الاجتماع وأوثقها وأشدّها استنارة وترويضًا للتضحية في سبيل الآخرين ولخدمتهم. وقد أراد يسوع محبّة الإخوان وعونهم وحبّهم لهذه الصداقة. والصداقة الفاضلة هي المجال والمرحلة والفرصة لنحقّق ذاتنا السامية الخفيّة، وبالتالي ملكوت الله. فكان ليسوع أصدقاء أعزّاء حميمون ومؤتمنون»[1].

هذه الأمور أثّرت أشدّ التأثير في فكر جنبلاط وبناء شخصيّته الفريدة ويبقى الكثير من المبادئ، والرسل الذين أثّروا به كذلك، لكن يبقى الأثر الأكبر لروح المسيح وفكره وشخصيّته، حيث قدَّم جسده قربانًا على مذبح الحياة من أجل البشريّة جمعاء فكان الفادي ورمز الفداء.

وتبقى تعاليمه الأساس الذي ينبغي أن يطبّق في الحياة ويصبح نهجًا للإنسان، لا يرى فيها صعوبة يستحيل تحقيقها على أرض الواقع، لأنَّ الصعوبة تكمن في طريقة التفكير فقط.

(١) م.س، جنبلاط، ص. ٢٦٤.

# الإسلام

يرى جنبلاط أنَّ الإسلام جاء ليكمل مسيرة الإنسان باتّجاه الحقيقة، والسموّ بالنفس باتّباع حميد الفعّال والتحلّي بالأخلاق العفيفة الطاهرة، فبسلوك هذا السبيل تصير النفوس حرّة معتّقة من رقّ الجهالة.

ويقول: «فالإسلام، لمن يتأمّله، معتقد وحضارة. حضارة عريقة قديمة جديدة كتقمّص الماضي في الحاضر وبعث السلف في قالب الخلف ولباسه، والإسلام حضارة شاملة حتَّى للعهد القديم ولبعض ما في الجاهليّة ذاتها. وما كان الإسلام إلاَّ إصلاحًا وعودة إلى الأصل الحنفي، ودعوة إلى ما اندثر مع الوقت في النفوس والذي تحوّلت عنه. وهو على اعتبار أنَّ الجزيرة العربية بلاد مفتوحة لشتّى تيّارات الفكر والعقيدة تتلقّفها وتدخلها من كلّ جانب، من اليونانيّة ومن البابليّة ومن مصر الفراعنة، قلبها، ومن بلاد السند والهند والشرق الأقصى، وكانت طريق التوابل والقوافل من الشرق الأقصى إلى آسيا الصغرى ومن البحر العربي إلى البحر المتوسّط، البحر العربي الآخر تمرّ عبر الجزيرة ذاتها ـ وهو، أي الإسلام، على هذا الاعتبار وسواه قصد به مؤسّسه أن يكون تأليفًا جامعًا، ورابطة شاملة ونهضة دين ودنيا»[1].

بمجيء الإسلام، حلّ السلام بعد أن كان الناس يتقاتلون أجيالاً وأجيالاً، وجاءت الحرّية بمعناها الطليق الواسع مدّة مئة وخمسين عامًا

(١) م.س، جنبلاط، ص. ١٢٦.

تقريبًا في عهود الخلفاء المسلمين العرب، فالإسلام لمن يتأمّله معتقد وحضارة، حضارة تحترم كلّ الأديان وتقدّس حرّية الإنسان إن كان على الصعيد الديني بإداء الطقوس والصلوات أو على الصعيد الفردي حيث يتمتّع الإنسان بحرّيته وطريقة العيش التي يختارها.

«ونحن في الشرق نعيش في هذه الحضارة التي جاءت بالحرّية الدينية مع الرسول الكريم إلى المشرق، بعد أن كان يقتتل الناس أجيالاً وأجيالاً على اختلاف مذاهبهم وتنوّع وجهة تقرّبهم. فحلّ السلام الإسلامي كما يسمّيه أحد كبار المستشرقين، وبه انحلّت عقدة الخوف والتنافر والبغضاء... ثمَّ جاءت الحرّية في معناها الأوسع الطليق، مئة وخمسين سنة تقريبًا في عهود الخلفاء المسلمين العرب، وتجلّت هذه الحرّية الشخصية في المناقشة وفي القول والنشر والتصرّف كما لم تتجلَّ حتَّى اليوم في أيّة حضارة من الحضارات القائمة والبائدة بهذه الرحابة والبحبوحة، قبل أن يسدل عليها حجاب الأعاجم والفتح التركي عتمته وضيقه وعصبيّته»[1].

القرآن الكريم يوصي المسلمين بالمسلك السليم، وباتّباع حميد الخصال والفعال، فلا خير في إنسان نام وجاره جائع، وأروع الأعمال التي يقوم بها الإنسان هي الصدقة، ومحبّة الإخوان، فإذا كانت الدنيا بكلّ ما فيها فانية فإنَّ العمل الصالح هو ذخيرة المؤمن لآخرة صالحة.

يقول جنبلاط:

«ولنصغِ لصوت محمَّد في لغة العرب الصافية، التي تتجلّى

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١٢٧.

بالآيات على حدّ تعبير ماسينيون دائمًا وأبدًا: «من كان له فضلُ ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن يكن له فضلُ زاد فليعد به على من لا زاد له»... «ومن كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع، بخامس». «ما آمن بي من نام شبعان وجاره جائع إلى جانبه، وهو يعلم».

ومن أروع الأحاديث: «إنَّ ما لك ما أكلت فأفنيت، وما لبست فأبليت، وما تصدّقت فأبقيت، وما دون ذلك فلغيرك»[1].

اليتيم هو أكثر من يستحقّ الصدقة، ويستحقّ الإحسان والعمل الخيّر، حتَّى قيل: إنَّ من وضع يده على رأس يتيم يكسب أجرًا. فمساعدة الأيتام والأرامل والمعوزين واجب وفريضة يفرضه الدين ومن طلب رضا ربّ العالمين، عليه أن يتّبع وصايا الدين، وثروة المسلم يجب أن تصرف لغايات إنسانية ونبيلة.

«(...) من ضمّ يتيمًا بين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتَّى يستغني عنه وجبت له الجنّة البتّة». وكان يقول الرسول الكريم: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسَن إليه. وشرّ بيت فيه يتيم يُساء إليه». وكذلك الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وكالذي يقوم الليل ويصوم النهار. ومن أقواله: «لئن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته أفضل من أن يعتكف في مسجدي هذا شهرين». وقيل: «يا رسول الله، من أين لنا صدقة نتصدّق بها؟»، فقال: «إنَّ أبواب الخير كثيرة، تدلّ المستدلّ على حاجته وتسعى بشدّة ذراعيك مع الضعيف، فهذا كلّه صدقة منك

(١) م.س، ثورة في عالم الإنسان، ص. ١٥٣.

وعلى نفسك». ومن أجمل ما قاله عن أبي موسى الأشعري إنَّه سمع محمَّدًا يقول: «لن تؤمنوا حتَّى ترحموا. قال: يا رسول الله كلّنا رحيم، قال: إنَّه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنَّها رحمة عامّة الناس ويمنع الإسلام الربا منعًا باتًّا»[1].

الإسلام دين سلام وتسامح، وهذا ما ظهر بجلاء ووضوح في زيارة عمر بن الخطاب إلى القدس حيث رفض الصلاة في الكنيسة كي لا تتحوّل من بعده إلى جامع. والإسلام احترم مشاعر الناس وطقوسهم وعباداتهم، وجمع الإسلام بين فكرة الفتوحات وفكرة «لا إكراه في الدين»، ومن هذا المنطلق فغير المسلم لا يتوجّب عليه الجهاد من أجل معتقد ليس معتقده. لهذا فرض الإسلام الجزية وهي ليست فريضة زجرية أو إهانة للشخص بقدر ما هي احترامًا لمعتقده، ومساندة لمال الخزينة.

«أمّا في العهود الإسلامية، فنشاهد الحكم الأموي، وقبله الحكم الراشدي، أبرز ألوانًا عديدة من التسامح، منها زيارة عمر بن الخطاب إلى القدس ورفضه الصلاة في الكنيسة المسيحيّة لكي لا تتحوّل من بعده إلى جامع. وهذا العمل في الحقيقة من طبيعة الإسلام، لأنَّ الإسلام الذي جاء أخيرًا، وقبِل الأديان الأخرى التي سبقته، وكذلك طبيعة التكوين البشري الذي انتشر فيه الإسلام في الجزيرة، حيث كان هناك اليهود مسيطرين على أقسام عديدة من الجزيرة العربية، وبخاصّة المدن التجارية، فكانت المدينة (يثرب) في يدهم؛ فكلّ مكان يوجد فيه تجارة نجد اليهود موجودين دائمًا وأبدًا. وكان هناك أيضًا إمارات وملكيّات مسيحية كبيرة قائمة في الجزيرة. ولا شكّ أنَّ اتّصال النبيّ مع المسيحيين واليهود والتراث

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٤٥.

الذي عاش ضمنه النبيّ جعله يكون، كخاتم للأنبياء، أكثر انفتاحًا على بقيّة الأديان.

«(...) فالإسلام تبنّى الجهاد من أساسه، ليجمع بين السيف وانتشار العقيدة، بين فكرة الفتح وفكرة لا إكراه في الدين، ومن هنا فالشخص غير المسلم لا يتوجّب عليه الجهاد»[1].

يرى جنبلاط الأهمّية البالغة للإسلام وللرسالة التي دعا إليها الرسول الكريم (صلعم) فالإسلام دين انفتاح ومعرفة وغفران وثواب، فهو لم ينفرد بالوحي ولم ينكر قداسة الأديان الأخرى، بل احترمها واحترم تابعيها. كما أكّد مجيء المسيح برسالته، بعد أن أنكرته أمّة اليهود وما زالوا حتّى اليوم غير مصدّقين بذلك، فقدّس نبؤة المسيح وكرّم السيِّدة العذراء في الكتاب الكريم.

«وفي هذا المرعى، وعلى ضوء هذا الاستشفاف كلّنا مسلمون «لتتمّ مشيئتك في هذه الدنيا كما هي في السماء». ولم يحتكر الإسلام منذ نشأته مسلكًا ولا ادّعى الانفراد بالوحي، ولم يغلق السماء في وجه أحد، وإنَّما جمع بين الكتب السماوية جميعها، فالإنجيل والتوراة والقرآن وسواها من رسالات الأقدمين كتابه... وإنَّما هدف إلى الإصلاح وإلى العودة إلى دين ابراهيم الجامع الأصيل»[2].

ومن الآيات القرآنية التي تأثر بها جنبلاط: ﴿لله ما في السماوات وما في الأرض﴾[3].

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١١٥.

(٢) م.ن، ص. ١٢٥.

(٣) القرآن الكريم، البقرة، ٢/٢٨٤.

خلق الله الوجود بكلّ ما فيه وأوكل الإنسان على رزقه، خصّه بنعم كثيرة لأنه تميّز بالعقل عن غيره من المخلوقات، وعلى المؤتمن أن لا يخون الأمانة، وإنَّما الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنّة، وبهذا ينال الإنسان الفوز العظيم.

"الملك ملك الله وإنَّما الإنسان على أرضه قيّم ووكيل. الله هو المالك لكلّ شيء يتصرّفون بملكه تصرّفًا. ﴿ألم ترَوا أنَّ الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرضِ وأسبغ عليكم نعمةً ظاهرة وباطنة﴾[1]. ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا﴾[2]. ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها يأكّلون﴾[3]. ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[4].

﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنّة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون، وعدا عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾[5].

﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾[6].

السعي إلى التوحيد والتحقّق مطلب النفوس البشرية جمعاء، وهو أقرب من كلّ قريب، عالِم بالغيب، لا تخفى عليه خافية،وهو أي الله

(١) القرآن الكريم، لقمان، ٢٠/٣١.
(٢) القرآن الكريم، البقرة، ٢٩/٢.
(٣) القرآن الكريم، النحل، ٥/١٦.
(٤) القرآن الكريم، الملك، ١٥/٥٦٢.
(٥) القرآن الكريم، التوبة، ١١١/٩.
(٦) القرآن الكريم، البقرة، ٢٨٤/٢.

علّة الوجود كلّه، والكلّ يبحث عنه وهو أقرب من حبل الوريد. هو الدواء لكلّ نفس متألّمة، لهذا قال سقراط: «إعرف نفسك».

«النهج أو الطريق المباشر الذي يقصد التعرّف إلى الحقّ، تنزّه وتعالى عن كلّ تنزيه واعتلاء من خلال الإنسان ذاته، ومن معراج الروح الإنسانية التي يسكنها الحقّ تعالى، أو الأتمان العظيم، كما يسكن هذا العالم بأسره، إذا استعطنا القول، وينيرها كما ينير كلّ ذرة من ذرّاته. «إعرف نفسك» على حدّ ما كان منقوشًا على مدخل هيكل «دلف» الشهير في يونان الحكماء الأقدمين وفي حقيقة ما يعبّر عنه الشاعر في قوله:

دواؤك منك وما تشعر ... وداؤك فيك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

أو قول الآية القرآنية الكريمة: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾، «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد». «من عرف نفسه فقد عرف ربّه». (حديث). «إنَّ للربوبيّة سرًّا، هو أنت، تخاطبه كلّ عين، لو ظهر لبطلت الربوبيّة» «(سهل التستري)»[1].

الصوم في معناه الحقيقي، والذي أمر به القرآن الكريم في الشهر الكريم شهر رمضان المبارك، ما هو إلاَّ رياضة للنفس كي تترفّع عن الشهوات والرغبات والتطلّع إلى النور الحقيقي، الذي يضيء الذات ويضيء الأرض والسماء، والصوم هو تمهيد للرضى والتسليم وللركون الداخلي إلى مشيئته. والرضى والتسليم هو التوحيد والإسلام الحقيقي وما الصدق إلاَّ الصراط المستقيم الذي يشبّه بأنه أدقّ من الشعرة

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١٨١.

فبالصيام عن المآكل والمحارم والمنكرات، والصيام بقلب طاهر نقيّ، يدخل الإنسان في الفرح في السعادة في الانعتاق من أهواء الدنيا ومشاغلها.

«(...) الصيام وضع لأجل سلامة الجسم وطمأنينة الفكر وتمكّن الضمير من الانصراف إلى التأمّل، والمخاطر من الارتفاع إليه والركون إلى حدْسه ووحيه المتجلّي في الوجه نورًا لطيفًا صافيًا، كمن وضع قنديلاً في جبين عقله يستضيء به في ظلمة منعطفات هذه الحياة.

والصوم في معناه الأصيل وفي نزعته الحقيقية هو صوم النفس عن الرغبات التي تشتّت وتبعثر وتعمل في تجزئة سعي الفكر وتوق العاطفة ومطلب الروح بكاملها...»[1].

(...) الرضى والتسليم هو التوحيد والإسلام الحقيقي، وإنَّما تعلّق النفس بالبدن كالحجاب لها عن حقائق الأمور...

ولا يقود هذا المسلك إلاَّ للصدق في مغزاه الأرفع وفي دلالته الأكثر تقرّبًا وشفاعة واستدراجًا على النعمة واستدرارًا للنعيم. والصدق باب الكشف ومعراج الحدْس والطريق منه وإليه»[2].

الحياة نعمة لمن يقدّر النعمة ويعرف كيف يحيا هذه الحياة، بحبّ وتواضع ورغبة في العطاء أكثر بكثير من رغبة الأخذ والاستئثار والطمع، فمن أراد السلام والنعيم الأزلي فليغلق نوافذ الحواس ليضيء النور المتوهّج أبدًا في الداخل، فيدرك يقينًا دون أدنى شكّ أنَّ الدنيا بكلّ ما فيها، لا توازي هذه المشاهدة، هذا الرضوان النابع من إيمان الإنسان بذاته

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١٢٤.
(٢) م.ن، ص. ١٢٤.

من استكشافه لحقيقته حيث يرتقي في معراج الجهاد الأكبر حيث الأزل واللاّفناء.

ونختم هذه الفقرة بنصّ من جنبلاط:

«وأخيراً أليست رسالة الإسلام في النهاية هي التضحية المستمرّة المثابرة لأجل الله ولأجل الآخر الذي يقطن في حشاشة قلبه، الإله المبارك العظيم؟! والإسلام رضى وتسليم. والرضى والتسليم نهاية العلم والتعليم. ثمَّ أليست هي ذاتها العبرة والشرعة لكلّ حياة والتي تربط الموت بالحياة دائمًا وأبدًا والتي تتعدّى عند المتحققّين والحكماء الحياة والموت في آنٍ واحد، فيتطهّر الكائن من شاطئ الأزل والأبد ويعود كما هو في حقيقته بلا ولادة ولا صيرورة ولا انتهاء ولا فناء عندما يضحّي الإنسان بنفسه أمام مذبح ذاته الجوهرية ومحراب جنانه ووجهة كعبته فيدور على محوره، أو يكون الواحد الأحد يدور به عليه وهو لا يفطن تمامًا فيلقي بنفسه في أتون جوهر العرفان، فتموت النفس ضحيّة سائغة راضية مرضيّة ومقبولة، وتمحي آثار الفردية وصفات الكينونة الظاهرة ليتجلّى الباطن ولتسطع شمس الحقّ من خدرها السرمدي المتغلّف في فناء الإنسان وفي بقاء وجود الذي لا يزول؟»[1].

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١٣٤.

# الهندوسيّة

الدين الهندوسي مرتبط بالفلسفة الهندية، ومن الصعب الفصل بينهما وهي تعكس تنوّع المفاهيم والمسالك والتعرّجات، والدين ليس في النهاية إلاَّ العودة إلى المصدر إلى الينبوع الذي انبثق منه الوجود بكلّ ما فيه من آلهة وبشر.

«(...) ... لأنَّ الفلسفة في الشرق الأقصى وفي الهند بشكل خاصّ مرتبطة بالدين، لا تنفصل عنه، فهي تعكس إذًا تنوّع مفاهيمه ومسأله وتعرّجاته...

على أنَّ الأديان الهندية، وبشكل خاصّ الهندوسيّة Hindouisme ليست كسائر المعتقدات الروحية التي نعرفها في المشرق وفي الغرب، أي مجموعة من الاعتقادات من لا يؤمن بها جميعها لا يستطيع أن ينتظر الخلاص، إنَّ الهندوسيّة نهج في الحياة، واتّجاه عامّ في التفكير وفي الاعتقاد وفي التصرّف، يجمع شتّى ألوان المذاهب الجماعية والفردية ومختلف أصناف الممارسات والتصوّرات، كنهر ضخم واسع، يؤلّف في مياهه جميع الجداول والسواقي والأنهار التي تصبّ فيه، أوكالمطر المنهمر الذي يغذّي جميع السواقي والأنهر والجداول، فيتنوّع ويتلوّن بأشكالها ومظاهرها وأوصاف أوديتها وتعرّجات انسيابها وهي في الأصل واحد، على حدّ تعبير الأوبانيشاد الرائع الشهير»[1].

(١) جنبلاط، الفلسفة واليوغا في بلاد الحكماء، الطبعة الأولى، الدار التقدّمية: ٢٠٠٥، ص. ٤٥.

«منه نشأت البحار والجبال جميعها. ومنه تجري الأنهر المتعدّدة الأشكال... منه ولدت جميع النباتات والعصارة التي تغذّيها... هو الذي يقيم في الكائنات كالروح الباطنة»[1].

الأسفار الهندية ليس لها تاريخ معيّن لنشأتها، فالبعض يقول إنَّها أوحيت للهندوس سنة ألفين قبل المسيح والبعض الآخر يقول إنَّها أوحيت قبل ثلاثين ألف سنة قبل المسيح. لقد كانت تنقل بواسطة السماع، إلى أن دوّنت هذه الأسفار بكتب سمّيت «الفيدا» وهي مكتوبة باللغة السنسكرتية.

«بدأ تدوين «الفيدا» سنة ١٨٩٩، وظهرت المطبوعات، فكان أول من دوَّن لغة في الهند هو بانيني، وأطلّت عليها السنسكريتسة. والهندوس بإيمانهم المطلق بالإيحاء والإلهام يؤكّدون أنَّ الحكيم «فيبرا» هو أول من تلقى الوحي.

ثمَّ جاءت من بعده مجموعة معلّمين ملهمين يسمّون «الريشي» هؤلاء أنبياء نزل عليهم الوحي عن طريق الإله «براهما» الذي بلّغهم محتويات الأسفار الفيدية المقدّسة.

تطوّرت الهندوسيّة وتأثّرت بتيّارات داخلية وخارجية حوّرت في بعض الأحيان معطياتها الأصلية. وهكذا عرفت مراحل ثلاثًا هي:

أ ـ المرحلة الفيدية.

ب ـ المرحلة البراهمانية.

ج ـ المرحلة الهندوسية.[2]

---

(١) المنداكا أوبانيشاد، ص. ٢٧.

(٢) م.س، كمال جنبلاط واليوغا والحكمة الهندية، ص. ١٨٩.

تتميز الهندوسيّة عن الأديان بأنها نهج في الحياة، واتّجاه عامّ في التفكير والاعتقاد، والهندوسيّة لم تكفّر أي مذهب أو اختبار قام، بل حضنت وضمّت إليها كلّ معتقد، فأنغام الكفر والتكفير والهرطقات ليس لها وجود على الإطلاق كما في الشرق الإسلامي والغرب.

«والمعتقد الهندوسي ـ لو كان فعلاً دينًا في المفهوم الذي نتصوّره ـ لكان يتطوّر عبر التاريخ بتشذيب نفسه على الدوام، أو بتكفير كلّ مذهب أو اختبار قام في كنفه، كما حصل في الشرق الإسلامي وفي الغرب...

بل إنَّ هذه المذاهب نمت، وتجلّت هذه الاختبارات، وظلّت تعيش من ضمن الهندوسيّة ذاتها عالقة بها كالأغصان بالنسبة لجذع العريش الواحد... فنغمة الكفر والتكفير والزندقة والخروج والهرطقة وسواها من التعابير لا يُسمع لها حسّ ولا تلقى مقاومة في مجال ولادتها ونموّها... وحتّى البوذيّة التي قام شري شنكاراتشاريا الحكيم الفيدانتي الشهير، ليحارب بعض مرتكزاتها الخاطئة، كما عبّر عنها أتباع مولى الشفقة البوذا السعيد Boudha، لينتشل الهند من حوزتها، إنَّ البوذيّة نفسها ما لبثت أن امتصّتها الهندوسيّة البرهمانية التقليدية من ضمن تراثها واختبار كبار صديقيها وأوليائها، فأضحى «مولانا البوذا» أحد متحقّقي الهندوسيّة وحكمائها، تتوجّه إليه العبادة وطقوس التكريم، ونقرأ سيرته وآياته ويتمثّل بها على غرار كريشنا Krishna و راما Rama وسواهما»[1].

(١) م.س، الفلسفة واليوغا في بلاد الحكماء، ص. ٤٩.

مرّت الهندوسيّة عبر ثلاث حقبات:

**١ـ الحقبة الأولى، حقبة الفيدا:** وتعود إلى منتصف الألف الثاني قبل المسيح حيث نزل الهند آريون من منبطحات إيران العليا وامتزجوا بسكان الهند الأصليين، ولا بدّ من أن تمتزج الثقافات والأداب والطقوس أيضًا، وتقسم الفيدا إلى أربعة: الريغفادا، السمافيدا، اليجورفيدا، والأترفافيدا.

تحتوي الفيدا على مجموعة أشعار وأناشيد رائعة تُظهر مدى ارتفاع قدرة الأقدمين على التأمّل حيث التفتيش عن الحقيقة.

«وتوجد في كتب الفيدا مقاطع وأشعار وأناشيد رائعة تظهر الارتفاع المدهش التي توصّلت إليه بعض تأمّلات الأقدمين ومحاولاتهم في حقل التفتيش عن الحقيقة؛ ولا نجد أجمل من ذكر أحدها، والذي يستدلّ منه على بطلان الاتّهام بالوثنيّة الذي يتوجّه أحيانًا إلى بعض الأديان ـ والوثنيّة إن كانت قائمة في هذا المعنى فهي في كلّ معتقد ودين، وكلّ من يعبد الله بدون معرفة إنَّما يدخل في عداد عباد الأصنام»[1].

**٢ـ الحقبة الثانية، حقبة المهابهاراتا:** هي حقبة وفيها قصّة الحكيم الملك راما، وفيها نشيد المولى البغفادغيتا للحكيم كريشنا، وهي جامعة لمختلف ألوان الفلسفات حيث تنحلّ الازدواجيّة في أحديّة المطلق، حيث الطهر والتحقّق الكامل.

«الحقبة الثانية هي حقبة المهابهاراتا وخاصّة الرمايانا أي قصّة راما الحكيم الملك، ونشيد المولى أي البهاجفات جيتا للإله الحكيم كريشنا...

(١) م.س، فيما يتعدّى الحرف، ص. ٤٧.

والبهاجفات جيتا من أجمل أدب الهند الروحي وشعره، وهي جامعة لمختلف ألوان الفلسفات من ثنائيّة وثنائيّة معتدلة، وأحديّة مطلقة أو «لا ازدواجيّة» يكاد الإنسان يتعرّى من كلّ ما عليه للدخول في هيكلها المقدّس. وتتضمّن الجيتا أيضًا مسالك اليوغا المتنوّعة ممّا يدلّ على قدم هذه المسالك في تاريخ الفكر والروحانيّة الهندية.

وهذه الكتب في الواقع، يتلخّص فيها ربَّما جميع ما كتب عنها فيما بعد وما نقرأه اليوم من فلسفة... فهي زبدة لا يرتوي أحدنا من الورود إليها...»[1].

لا يمكن للإنسان أن يستوعب الفلسفة الهندية والمعرفة التي تحتويها دون مرشد حكيم حيث تكون الأسرار مكشوفة له، وهؤلاء الحكماء كما يقول جنبلاط، لا يخلو منهم عصر ولا زمان، والحقيقة عندما تخرج من فمهم تكون أثمن من الذهب.

«وفي هذا المجال، لا بدّ من ذكر كتابين شهيرين يتغاضى عنهما معظم الباحثين أحيانًا، وهما تاج هذا البناء الفلسفي الروحي الضخم، ولم يتعدّاهما الفكر الهندي فيما بعد أو لم يصل إلى مستواهما إلاَّ ربَّما في تآليف شري شنكارا وعظات الحكماء وأقوالهم الذين لا يخلو منهم عصر ولا زمان، والذين يتوصّل اليهم المريد في كلّ أونة وفي كلّ مكان، وهؤلاء هم الذين يشكّلون هذه السلسلة العجيبة الحيّة المتّصلة، والتي لا تنقطع، من الحكماء والأقطاب والمعلّمين المرشدين، وليس آخرهم من المعروفين رامانا مهاريشي وراما كريشنا وفيفكنندا، ولا شري أتمانندا

(١) م.س، فيما يتعدّى الحرف، ص. ٤٩.

العظيم الذي ينثني العقل أمام بحر ينبوعه ودفق مياه أعماقه، هذه القدرة الفكرية العجيبة وقوّة التمييز وسعة الاطّلاع التي تجلّت فيه.

وهذان الكتابان هما: اليوغافاسيستا للحكيم فاسيستا، والأشتفكرا سمهيتا لمؤلِّفها الحكيم اشتفكرا وهي محاورة بينه وبين الملك جاناكا، أو بالأحرى هي تفسير الحقيقة وشرحها للمليك الطالب المريد... والرسالة السمهيتا (...) هي أروع وأرفع ما كتبه بنو البشر... وطبعًا لا يستطيع المريد أن يتفهّمها وأن يتذوّقها على سحرها وجمالها إلاَّ إذا كان قد سمع مضامينها من فم أستاذ حكيم[1]...

**٣ـ الحقبة الثالثة، حقبة الأوبانيشاد:** تبدأ حوالي ألفي سنة قبل المسيح ويبلغ عددها المائتين. وهي ترمي إلى تحرير الفكر من التصلّب والتحجّر، وتهدف إلى توضيح ما تضمّنته الفيدا من تراث روحي واختبار أصيل، وتبدو الأوبانيشاد وكأنها تستصرخ الضمائر النائمة والتائهين في غفلة عن المعرفة الحقّة.

"وهي تعادل في الفكر الهندي وتوازي ما كانت عليه رسائل إخوان الصفا، وربَّما الغنوسطيكيّة أي العرفانيّة بالنسبة للحضارة الإسلامية وللعالم القديم. وهي ترمي إلى تحرير الفكر التقليدي الذي يبدو وأنه تصلّب وتحجّر في ممارسات الفيدا ومفاهيم الأضاحي والقرابين والصلوات الطقسية واسترسال في علوم نظرية ومعتقدية وسحرية لا فائدة روحية منها مباشرة، وتهدف إلى توضيح ما تضمّنته الفيدا من تراث روحي واختبار أصيل، على حدّ ما ورد في الأوبانيشاد ذاتها من انتقاد لاهب واستصراخ.

(١) م.س، فيما يتعدّى الحرف، ص. ٤٩.

«يتوهّمون أنَّ الأضاحي والتقدّمات هي ما يجب أن تفضّل على غيرها، أولئك الضالّون. فلا يعرفون شيئًا أفضل منها...».

وفي مكان آخر: «يتحرّكون في الجهل المطبق الذين يظنّون أنهم علماء يصدمون بعضهم بعضًا بعنف ـ كالعميان يقودهم أعمى» (المنداكا أوبانيشاد)[1].

ما يميز الهندوسية عن غيرها أنها استطاعت الجمع بين الحكمة والمعرفة، ولم تتعرف على سلبية الرفض والتكفير، ولم تكبل علماءها وحكماءها، كما فعلت الأديان الأخرى، بل عرفت بفضل حكمائها كيف تحضن وتضم إليها كلّ انفصال أو ابتعاد عن جوهر الحقيقة الفيدية الذي لا يتغير ولا يتبدل على الإطلاق وهذا ما يؤكده جنبلاط بأن هذه الحقيقة هي نفسها من أيام امحوتب الفراعنة والحضارة اليونانية القديمة، وحتَّى يومنا هذا.

«(...) إنَّ بعض الديانات لمميّزة بالتوفيق بين الاثنين مبقية على الجمع بين الحكمة والمعرفة، وبين ممارسة الطقوس التعبّدية. إنَّ هذا شأن الهندوسيّة، أمّا باقي الأديان، فقد قطعت هذه الصلة وقد غالت في هذا القطع والفصل، فاضطهدت حكماءها ومتصوّفتها ومرشديها؛ ألزمتهم بالشريعة وكبّلتهم بقيودها. لذلك نجد الجيل الجديد، وبخاصّة العلماء منهم في أنحاء العالم، راغبين في الشريعة الأبدية، في المسلك الهندوسي، مقبلين عليه ومتوجّهين إليه. إنَّ الفضل العائد إلى حكماء أمثال شري أضي شنكارا، وشري شنكاراتشاريا من كانشي، وشري أتمانندا من تريفندروم وشري رامانا مهاريشي، وشري تابوفانام سوامي وأمثال

(١) م.س، فيما يتعدّى الحرف، ص. ٥٣.

هذه المنارات في عودة ما نسمّي بالعالم التقدّمي المتحضّر الشقيّ إلى التعاليم الرفيعة والدين القويم والأوبانيشاد والبهاغافات غيتا والفيداتنا. إنَّ الروحانيّة حقّ، إنَّها الحقيقة، الحضارة الأصيلة على حدّ تعبير شري شنكار اتشاريا من كاشي، الذي عرّفها بقوله: «ينبغي أن يكون لنا الحسّ الرفيع النبيل. إنَّ الأفكار السامية لتخلق إنسانية مترفّعة سامية. إنَّ هذا هو لبّ الحضارة وجوهرها. إنَّ الإنسان المتحضّر على وفاق مع العالم كلّه. وهو مصادق للكلّ غير معادٍ لأحد.

ويردّ في المحاورات الروحانيّة لشري أتماناندا من تريفيدروم قوله: «الفيدانتا هي سعي حثيث ودائب وراء الحقيقة المطلقة».

«الـ V. Caramarga هي تفتيش عن تجربة الحياة المتكاملة». «إنَّ الفيدانتا لتتمّة وتكملة لكلّ الأديان»[1].

تميّز الإنسان عن باقي المخلوقات والموجودات بالعقل، بالوعي الذي يستوعب كلّ الصور وكلّ الأمور، فكما يقول الحكماء إنَّ الوعي لا ينقص ولا يزيد إنَّما الذي يتغيّر هو محتوى الوعي، ومضمون الوعي. وكلّما تطوّر الوعي دخل عمق الحقائق أكثر فأكثر ليتوصّل إلى المعرفة الشاملة الكاملة، حينها تتحرّر النفس من كلّ القيود ويصبح الإنسان حرًّا منعتقًا من رقّ الجهالة.

«الوعي هو في صميم التكوين الإبداعي، كالنقطة بالنسبة إلى الدائرة، وكنور الوجود بالنسبة إلى الوجود ذاته، ولولا الوعي، أي اليقظة الجوهرية لكان العمه يغطّي كلّ شيء على حدّ تعبير الصوفيين،

(١) م.س، الفلسفة واليوغا في بلاد الحكماء، ص. ٩٣.

ولمَّا كان الوعي، أي اليقظة بمعناها الحقيقي، يتجلّى في نهاية المطاف بالتطوّر الإبداعي الحياتي، في مجلى العقل البشري»[1].

«الوعي بحدّ ذاته لا ينقص ولا يزيد، ولا يشرق ولا يغرب، على حدّ آية الحكيم شنكارا، وإنَّما محتوى الوعي، مضمون الوعي، هو الذي يتغيّر ويتبدّل، وبهذا التغيير يختزن الفكر صورًا جديدة، ومفاهيم جديدة، فيشحن الباطن بعلل وأسباب تدفع الإنسان في طريق التغيير. وتحقّق الإنسان للوعي في ذاته يجعله حرًّا، فالوعي والحرّية شيء واحد فما دام الإنسان يخضع فقط لسببيّة فكره، وما يجري حوله من مسالك العلل والأسباب، فلا حرّية في تصرّفه ولا اختيار في إرادته فهو يخضع لقدره، كائنًا من كان.

ولكن هذا النور الجوهري الباطني، الذي هو خلفيّة لكلّ كينونة، يصدق في أحايين أن يبرز، أي أن يتحقّقه الكائن، ولو لبرهة، وإذ ذاك يخرج هذا الكائن من قدر السببيّة ونطاقها، إلى مدار الحرّية فينطلق التطوّر آنذاك في مسارات جديدة منعتقًا من سجنه؛ فالتطوّر على الدوام هكذا، تلاحم وتناقض واستنارة وتفاعل دائب بين الحرّية وبين القدر»[2].

يؤكّد جنبلاط أهمّية وجود المعلّم «الرجل الحكيم» أمام المريد الطامح للوصول إلى بحر السعادة الرحب، لأنَّ أسرار الحقيقة تبقى كالماس الثمين مخبّأة لا يكشف عنها إلاَّ لمستحقّها، وهذا الكشف شعر به جنبلاط عندما كان يسمع شرح النصوص على يد معلّمه الذي يصفه بـ«العظيم» وبأنَّ الكلمات كانت تخرج من فمه أثمن من الذهب نفسه.

(١) م.س، الفلسفة واليوغا في بلاد الحكماء، ص. ١٠٧.

(٢) م.ن، ص. ١١٠.

«المعلّم الروحي أو «الغورو» (Gourou) هو إنسان مشعّ، هو نور وضّاء، الجاذبيّة تشدّنا نحوه تلقائيًّا، وجوده يقرّبنا ينزعنا من ظلمة نفوسنا. كمن يخرج من حجرة كان محبوسًا في ظلمتها، فنقول: «ها هي الشمس في الخارج».

المعلّمون الروحانيون هم بشر تجاوزوا القداسة نفسها. وجودهم وحدهم يولّد في نفوسنا اليقين الكلّي»[1].

«فالحكيم المتحرّر المتحقّق هو قطب عالم المحسوسات وإليه يتوجّه التكريم والتقديس في العالم الظاهر لا إلى الإله برهما Brahma أو شيفا Shiva القاطن وفق الميثولوجيا في السماوات.

ولأنَّ الحكيم المنعتق من سلاسل عبوديّة الأنا ومن آثارها لم يعُدْ شخصيًّا في المعنى التقليدي المعهود، وليس له جسد ولا حواس إلاَّ بالنسبة لحواسنا نحن وفكرنا الناظر إليه، فهو الحقيقة ذاتها والروح العظيم Mahatma التي لم يبقَ فيها أثر لازدواجيّة على الإطلاق، أو لموجة تعلو هذا المرجع الذي يعود إليه تصويب المعتقدات جميعها، على ضوء استطلاعه واختباره، وهو الإمام الحقيقي للدين ولكلّ دين ـ وهو في الواقع فيما يتعدّى كلّ معتقد ودين. فهو محض الوجود الذي يتزيّا بوهم ظاهر الوجود»[2].

وتبقى كلمة أخيرة ما تعني الهند بالنسبة لجنبلاط فيقول: «الهند، بالنسبة إليّ، هي جوهريًّا لقاءاتي مع الحكماء تنزل من المعلِّم إلى المريد،

(١) جنبلاط، الحكيم ليس لديه موت، النهار ١٩٧٤/٧/١٢، ص. ٧.

(٢) م.س، فيما يتعدّى الحرف، ص. ٦٢.

إنَّها الهبة المباشرة ممَّا يسمّى العقل الأرفع، والمعلِّم، باتّصاله هو الذي يكشف الحقيقة القائمة منذ الأزل في المريد. الحكيم لا يوحي شيئًا إلى المريد، لا يعرفه المريد. إنَّما يجعله يستوعبه بكلّ بساطة، تخيّلوا أنكم قد التقيتم شخصًا ما يسألكم عن عقده، إذ يخال إليه أنه أضاعه، فتجيبونه: العقد؟ ها هو حول عنقك»[1].

ويتابع جنبلاط في كتاب آخر له ليؤكّد ما أعطته الهند من أمور مهمّة جدًّا. فيقول: «هذه هي التجربة التي حاولت دائمًا البحث عنها وقادتني خطواتي حيث يجب أن أذهب. ولقد عرفت ذروة السعادة حين التقيت حكيمًا كبيرًا، هو أحد أكبر الحكماء الذين برزوا في هذا العصر، وربَّما هو الأعظم في زمانه.

هذا الحكيم يستطيع، على طريقة سقراط، بعث الحقيقة فيك من خلال حثّك على التفكير المنطقي وإزالة كلّ ما هو موضوعي وأناني في داخلك، من أجل أن يرميك في واقعك الذاتي. هذا هو الفقه الحقيقي، هذا هو المعنى الحقيقي لنعمة الروحانيّة، لأنه لا يمكن لأحدهم الصعود إلى السطح إذا لم يكن لديه سلّمًا، يستطيع أن يجرّب هذه المحاولة لكن دون جدوى»[2].

وفي كتابه «الفلسفة واليوغا» يؤكّد جنبلاط بأنَّ ما أعطته إيّاه الهند لم يعطِه أحد. وفي هذا يقول جنبلاط: «هذا التفسير للإنسان، والكون والله هو الذي أبحث عنه في الهند. الحقيقة الواحدة، الفريدة والمطلقة، هي قاطرة كلّ شيء.

(١) م.س، الفلسفة واليوغا في بلاد الحكماء، ص. ١٥٤.

(٢) م.س، آفاق نورانية، ص. ٩٥.

لماذا في الهند؟

لأنَّ الحكمة تدنّت في كلّ مكان إلاَّ في الهند. فهي لا تزال البلد الوحيد الذي يمكن للمرء أن يرى فيه سقراط، أفلاطون أو أفلوطين بلحمه وعظمه»[1].

### أ ـ اليوغا

اليوغا وهي طريق يسلكها الطامح للحرّية للانعتاق، للتطوّر، وهي مسلك عرفاني تطهيري توصّلاً إلى طبيعتنا الحقيقية.

إذا كان الوجود كلّه حركة، فنقيض الحركة السكون، وبالحركة والسكون تكون حياة الإنسان، يقوم الإنسان خلال نهاره بأعمال كثيرة وحركة مستمرّة، وفي نهاية نهاره يشعر بالحاجة الملحّة للراحة، للسكون، محاولاً استعادة ما جرى معه خلال نهاره، كشريط تسجيل، ثمَّ يخلد للراحة.

الحياة كسطح البحار دائمة الحركة والأمواج، أمَّا أعماق البحار فيحلّ فيها السكون، هكذا الإنسان لا يعرف الراحة ولا السلام إلاَّ بالعودة إلى نبع السلام والسكون الداخلي، ولكي يصل إلى هذا السكون بحاجة إلى معلِّم يعلِّمه تقنيّات اليوغا على أنواعها.

«ثمَّ تأتي مدارس اليوغا Yuga على تنوّعها، وهي ممارسات خلقية أو فكرية أو جسدية يقصد منها تقوية الفكر والوصول بالإنسان إلى الاطمئنان الداخلي العميق، وإلى هذا الصمت المطلق لأمواج الأفكار

(١) م.س، الفلسفة واليوغا في بلاد الحكماء، ص. ١٥٦.

والعواطف وبذورها؛ هذا الصمت المتجلّي، الذي هو أعمق وأقدر من كلّ حوار، وأسطع من كلّ معرفة خارجية وحديث، إلى أن يستطيع الفرد أن يميِّز وينظر، من خلال هدوء سطح البحار وزوال حركة الأمواج تمامًا منها، كلّ ما يختلج في داخل البحار وقعرها اللاّمتناهي»[1].

اليوغا ومعناها التوحيد هي رياضة روحية وجسدية وفكرية، تعود لتحيي هذا الإنسان من الانفصال الحاصل بين الفكر والجسد، بين الفكر والروح، بحيث عندما يهدأ الفكر ويصبح الإنسان قادرًا على ضبطه، وأبعاد الأفكار الواهمة المضلِّلة «مايا أو illusion» فتنحلّ جميع العقد، وتصبح الرؤية أكثر وضوحًا وما كان بيدو مزدوجًا يحلّ في الوحدة.

«أمّا الميزة الثالثة، فهي النظرة التشاؤمية، بالنسبة لمفاهيمنا للعالم... والفلسفة الهندية تعتبر أنَّ كلّ هذه الدنيا المحيطة خداع ووهم illusion، وأنَّ لا حقيقة لها كما تبدو وليست في ظاهرها كما هي في جوهرها... وقد تحسّس الصدّيقون والزهّاد والحكماء والهنود، ربَّما أكثر منّا وممَّن في الغرب، بتناقض الحياة القائم وآلامها وعذاباتها، وأنَّ لا لذّة فيها في النهاية إلاَّ ويعقبها ألم وتجريح، وما من فرح إلاَّ وبعده كبت، وأنَّ ليس هنالك حرّية في هذا الوجود؛ بل كلّ ما نراه وما نحن عليه مرتبط ومعلَّق بسببيّة العلّة والمعلول والولادة والموت والبداية والنهاية والتعلّق بالأغراض وبالرغبات واستعبادها إيّانا... وليس سوى الأعمى الذي لا يدرك ذلك!»[2].

(١) م.س، الفلسفة واليوغا في بلاد الحكماء، ص. ٦٨.

(٢) م.ن، ص. ٦٨.

اليوغا تعلّم الإنسان كيف يسبر غور أعماقه الداخلية، حيث تنحلّ جميع العقد، ويحلّ الصمت الرهيب، هذا الصمت الذي أبلغ وأهمّ من الذهب ذاته.

اليوغا أنواع وألوان تناسب جميع عقول وأمزجة البشر ومنها: يوغا الحبّ Bhakti-Yuga، يوغا العمل Kama-yuga، ويوغا العقل أو الملوك Raja-Yuga، والهاثا يوغا Hatha-Yuga، وأيضًا التانتكريكي Tantrisme.

«واليوغا أنواع وألوان تتّفق مع أمزجة الناس واستعداداتهم وطباعهم: فيوغا الحبّ Bhakti-Yuga تؤثر مسلك القلب والعاطفة والوله، وهذا هو العشق الإلهي على حدّ تعبير الصوفيين.

ويوغا العمل Kama-Yagu التي تعتمد طريق الانصراف إلى الخدمة وإلى النشاط البشري دونما التعلّق بنتيجة العمل وثماره، أو الاهتمام الداخلي بمصيره الأخير. وأفضل مثال عليها الحكيم كريشنا.

ويوغا العقل، وهي يوغا الملوك Raja-Yuga التي تتركّز على تقوية الفكر بشكل مباشر، أي باعتماد وسائل لحصر الفكر وتحديده وتوجيهه وتحويله.

وأخيرًا لا آخرًا، لأنَّ السلسلة تكاد لا تنتهي: الهاثا يوغا Hatha-Yuga وهي تتعلّق بترويض للجسد وللنفس بشكل خاصّ، ونلاحظ العلاقة القائمة بين الفكر وبين تنفّس الرئتين، عند الإنسان ووتيرة هذا التنفّس وارتباطها برقاص الفكر، وأنَّ مصدر كليهما واحد في الطاقة الحيّة Prana.

ويجدر التحذير، على هامش هذا الحديث الصغير، بأنَّ بعض أنواع اليوغا، وبخاصّة التي تتعلّق بترويض الفكر وحصره والسيطرة على النفس والطاقة الحيّة، لا يجوز ممارستها بدون مرشد أو حكيم، لأنها قد تقود أحيانًا إلى المهالك»[1].

إنَّ شرعة التطوّر والحياة، تجعل هذا الكون الفسيح يمرّ بأدوار وقد يبلغ عشرات مليارات السنين من سنوات الأرض، وتعيش البشرية ضمن هذه الأدوار حقبات متنوّعة وكلّ حقبة لها أربابها وقوّادها. ومن هذه الأدوار: دور الساتيا يوغا Satya-Yuga، ثمَّ التريتا يوغا Treta-Yuga، ودور الدوابارا يوغا Dwapra-Yuga، وأخيرًا كالي يوغا Kaly-Yuga أو دور الحديد. وفي كلّ دور تتغيّر التقنيّات ويتغيّر الفكر والمفاهيم.

«ولكن هذا الدور الفسيح للتكوين الذي قد يبلغ عشرات مليارات السنين من سنوات الأرض، ما بين بدايته وبين نهايته أي بين ألفه وبين يائه، يشمل في طيّات نشره وإبداعه عددًا كبيرًا جدًّا من الأدوار المتوسّطة والصغرى. ونحن لا نزال نعيش في بدء أو منتصف دور من هذه الأدوار الوسطى أو الصغرى. وهو الدور أو الكور الذي اصطلح الحكماء الهنود على تسميته بدور الحديد، كالي يوغا Kali-Yuga، وهو الرابع في مجلى تسلسل حياة البشرية في مختلف أجناسها وتعاقبهم على وجه هذه الأرض، فهو كما يمكن تصوّره دور أو كور خاصّ بالنظام الشمسي لا أكثر...

(١) م.س، الفلسفة واليوغا في بلاد الحكماء، ص. ٦٥.

وطبعًا في هذا الكور الأخير المحدود زمنًا، يصعب علينا، بل يستحيل ربَّما، تصوّر تكرار الإطار الاجتماعي والسياسي ذاته في مداه... والملاحظ والغريب في نظرة الهنود الأقدمين إلى توالي الأكوار. الأدوار الصغرى من ضمن الدور، هو أنهم كانوا يقسّمونها تمامًا على شاكلة محتوى الجدليين المعاصرين لها:

**أوّلاً ـ** دور الساتيا Satya-Yuga، ويكون فيه الخير مسيطرًا تمامًا... وتكون فئة البرهمان، أي رجال الدين هي المسيطرة والمهيمنة.

**ثانيًا ـ** دور التريتا Treta-Yuga... وتكون فيه الكشتريا Kshatrya أي الشرفاء، أي القادة، أي رجال التوجيه السياسي والإدارة هي المهيمنة... وتضعف نسبياً فيه سيطرة الخير...

**ثالثًا ـ** دور الدوابارا يوغا Dwapra-Yuga، وتكون فيه السيطرة لفئة التجّار Vaisya الفايشيا، أي رجال المال ويخفّ فيه أثر الخير في المجتمع...

**رابعًا ـ** كالي يوغا Kali-Yuga وتكون فيه الهيمنة للفئة الاجتماعية الرابعة، وفق مفهوم العمّال، أو ما يمكن تسميتهم بعامّة الناس، وفيه يضعف أيضًا عمّا سبق في الكور الماضي، تأثير الخير في المجتمع ـ ربَّما كان ذلك ناجمًا عن الصناعة الحديثة وتأثيرها الضارّ...»[1].

اليوغا إذًا مسلكيّة وتقنيّة للوصول إلى الحقيقة، حيث يتجلّى الوعي في أعماق الذات فتشرق النفس كالذهب الصافي، ويشعر اليوغي بالنِّعم التي لا تحصى، بالسعادة، بالفرح، متخلّصًا من كلّ الآلام والأحزان

(١) م.س، آفاق نورانية، ص ص. ٦٠ ـ ٦١.

والمخاوف، وبهذا الانعتاق تكون الحرّية التي هي مطلب كلّ روح بشرية. فيشعر بالسيادة على نفسه وعقله غير متعلّقًا بشيء من مقتنيات الدنيا وأغراضها، ويهيمن الحبّ على قلبه فيتوجّه به لكلّ المخلوقات، لكلّ الوجود بلا حدود.

«كلّما جلس اليوغي متأمّلاً أشرق عقله بنور المعرفة، وغمر الحبّ قلبه وكسب طاقات مجدّدة. واليوغي المتحقّق يقوم بعمله بأمانة وإخلاص، وبجدّية وإتقان، لأنه يعرف واجبه والغاية من وجوده. في العرف اليوغي التقليدي هناك ظاهر وباطن للكون. فالظاهر وإن بدا لنا متفرّقًا ومختلفًا إلاَّ أنه وحدة متكاملة، والباطن هو الوحدة في الوجود. ويجمع هذه الوحدة قانون شمولي، تقوم ركائزه على الحبّ، وعلى عمل الخير والخدمة»[1].

كمال جنبلاط تعلّم اليوغا وتعرّف على أنواعها، ووجد أنَّ الهاثا يوغا التي تهتمّ بالجسد رغم أهمّيتها لا توصل إلى المطلق لذا وجد التأمّل أو الراجا يوغا أو يوغا الملوك هي التي ترفع الإنسان من حدود النسبي إلى المطلق.

وأجاب جنبلاط عندما سُئل: «هل مارست الراجا يوغا؟».

قال: «في بداية حياتي مارست اللون الأول، الذي يتلازم أحيانًا مع يوغا الجسد، أي «الهاثا يوغا»، ولكنَّني سرعان ما أدركت أنَّ التأمّل بواسطة تحديد الفكر، يقود إلى انسداد في الطريق، لأنَّ المطلوب أن نتعدّى الفكر والفعل، ونرتفع نحو المطلق. أمَّا الكرامات أو القوى العجائبية، فهي ملهاة مضرّة في طريق طالب الحقيقة، لأنها تجسِّم أنانيته، والمطلوب

(١) م.س، كمال جنبلاط واليوغا والحكمة الهندية، ص. ١٨٠.

منه أن ينسى هذه الأنانية تمامًا وكمالاً، والقوى العجائبية، هي كمبلغ من المال، المحدود، نجمعه ثمَّ ننفقه.

وهكذا بالنسبة للفكر، فبعض القوى التي تجمعها تنفذ بعد مرور سنين قليلة، وبعضها بعد اثني عشرة سنة، وبعضها أكثر بقليل، ويعود الإنسان كما كان قبل ممارسة هذا اللون من التأمّل»[1].

نستنتج من كلّ ما تقدَّم، أنَّ كلّ طريق يسلكها المؤمن توصل إلى الحقيقة إلى المطلق واليوغا إحدى هذه الطرق، حيث التوجّه بالمحبّة والعطف والحنوّ على الآخرين، طريق يختارها المريد ليرتفع عن كلّ الدنيويّات توصّلاً إلى السعادة إلى الفرح، لأنَّ فرح العطاء أعظم وأكبر وأهمّ بكثير من فرح الأخذ، في فرح العطاء مكاسب، أرباح لا يقدِّرها إلاَّ فاعلها ـ أمَّا يوغا العمل والتضحية بالذات الأنانية الفردية من أجل الآخرين وسعادتهم، هذا العمل المنزّه عن كلّ غاية عن كلّ كسب شخصي، تجعل الإنسان يشعر بأفراح وكأنه مالك الوجود، فعندما ينظر اليوغي إلى الفرحة والسعادة التي تغمر الأشخاص من حوله، يشعر بالغبطة وكأنه يحلِّق في رحاب الحقّ.

أمّا الهاثا يوغا فإنَّها تهتمّ بالجسد والتنفّس وكيفيّة حصول الانسجام بين الذات والجسد وهذا من الأمور المهمّة، لأنَّ الروح لو استطاعت الوصول إلى التحقّق بمعزل عن الجسد لما احتاجت للجسد، ولكن بما أنَّ هذا الأمر مستحيل دون الجسد، وجب على اليوغي الاهتمام بالجسد ونظافته لأنه بيت الروح وعلى قدر نظافة زجاجة السراج يسطع نور السراج بشكل أبهى وأفضل، لذا كانت الهاثا يوغا مهمّة.

(١) م.س، الفلسفة واليوغا في بلاد الحكماء، ص. ١٦٢.

أمَّا الراجا يوغا أو يوغا الملوك وهي رياضة بالغة الأهمّية لأنها تحصر الفكر بالاهتمام الداخلي، وهذه الرياضة تهدّئ الفكر الذي يصفه الحكماء بأمواج البحر المتقلّبة، فحينما يهدأ الفكر يغطس في أعماق الذات، حيث تبرز الحقيقة ـ يبرز الوعي الداخلي فتنحلّ جميع العقد، وكلّ المستحيلات والأمور المستعصية، وتظهر الحقيقة بوضوح ويصبح المرء أكثر قدرة على معرفة الصالح من الطالح لنفسه، ويسير دون أدنى ريب في طريق الحرّية والانعتاق، متحرِّرًا واثقًا، مترفِّعًا عن كلّ الصغائر، كاسبًا الهدف الأسمى التي توصل إليه كلّ الطرق الصوفية التي يسلكها المريدون، حيث المشاهدة والانغماس في الوحدة، في المطلق، والتي هي غاية الغايات.

### ب ـ الأتمان نور الوعي

تأثّر جنبلاط بالفلسفة الهندية أشدّ التأثير، وترجم الكثير من الكتب منها لـ«كريشنا مورتي» وأيضًا كتاب «أتمادارشان» للحكيم معلِّم كمال جنبلاط شري أتماننداـ فكلمة أتما تعني الذات الحقيقية (الجوهر الأصيل ـ دراشان تعني الإدراك ـ والمقصود بكلمة أتمادارشان إدراك الذات الحقيقية. وتعني تحقيق الذات وأيضًا قد تعني وسائل تحقيق الذات.

«بين الروح الأصيلة (الأتمان) وعنصر الوجود الأزلي (البرهمان) ارتباط أزلي أصيل... فعندما تنكشف لنا حقيقة ذاتنا ويتجلّى لنا جوهر كياننا وأصالة شخصيّتنا لا يبقى بين الروح المتحقّقة الطليقة وبين اكتناهها لحقيقة الوجود إلاَّ مرحلة واحدة، إذا تعدّتها الروح «وأزاحت الستار الشفّاف بينها وبينه» على حدّ قول راماكريشنا ظهر لها وتجلّى فيها

البرهمان في صمت فاهم، في وعي كلّي شامل لا يقترب منه دنس الفكر ومحدوديّة الكلمة، وتتمتّع هي به وتصير إيّاه ـ والبرهمان هو العنصر الأزلي الذي ليس له اسم ولا تحديد ولا شكل ولا جنس ولا صورة... ولا يتمكّن الطالب من اجتياز المرحلة وعبور الصراط المستقيم ومن رفع الحجاب المكنون إلاَّ بنعمة من الرحمن وفيض مستجيب من حنانه وهو ـ ترفّع وتعالى ـ لا يرفض أبدًا هذه النعمة وهذا الفيض للسائلين المتعطّشين المعوزّين والذين نفوسهم كالصحارى تتحرّق وتتقلّى بانتظار المطر»[1].

طريق التحقّق هي ذاتها طريق الوعي طريق المعرفة، حيث يتعرّف الإنسان على ذاته الحقيقية والتي هي مصدر كلّ معرفة خارجية أو داخلية لكن عندما يتوجّه الانتباه إلى هذا الوعي الذي يعي كلّ شيء ندخل في صيرورتنا في ذواتنا حيث النعمة العظمى والجنّة الحقيقية.

«(...) وقد أشار إلى ذلك الرشيد في الأوبانيشاد: «كلاَّ، إنَّ هذا الأتمان لا يكتنه بالعقيدة ولا بتقديم الأضاحي ولا بتعاليم كثيرة. لا يكتنه إلاَّ الذي هو اختاره: «فالأتمان هو الذي يكشف له طبيعته الخاصّة بـ«نعمة المعرفة»... «ولكن الذي يسعى ويجهد بهذه الوسائل، إذا توفّرت له الحكمة، يدخل أتمانه منزل البرهمان»... وتبطل إذ ذاك الصفات والمحدوديّات والازدواجية، «ويذهل المبصر في شهود الجلال»، ويتمتم الجنان بما لا تصدّقه ولا تدركه الكلمة ولا الفكر، أنا هو وهو أنا... وترتفع الحجب جميعها، وتنكشف الأسرار والمكنونات، ويشمل الإدراك المنفتح والوعي المحدّد الوجود بكامله باطنه وظاهره، وتشرق

(١) م.س، الحياة والنور، ص. ١٣.

النفس كالذهب المحترق وتملؤها السعادة العلوية التي لا تعادلها سعادة، وإنَّما السماء التي وعدنا بها في داخل ذاتنا، هي سماء نفوسنا، والنعيم في التطلّع إلى وجهه والتوحّد فيه وصيرورتنا إيّاه، فنستمدّ من معينه، قدرة من قدرة ومحبّة من محبّة ومعرفة من معرفة وغبطة من غبطة ونورًا من نور. وهو «نور الأنوار» فإذا توجّهنا فيما بعد إلى الخلائق كنا منه القبس والأداة والصورة. كان يقول راماكريشنا لأحد زائريه: «إنّي أبصره أشدّ وأوضح ممَّا أبصرك مقابلي»[1].

كلّما تعمّق الإنسان في أتمانه أي في ذاته كلّما استقرّ في السلام والسعادة، وتبدّد الوهم وانحلّت الازدواجيّة في الوحدة، حينها يحصل الانسجام والتناغم الداخلي وبالتأكيد الخارجي، لأنَّ الداخل هو المحدَّد الأول للاتّزان للعمل الناجح، فالاستقرار الداخلي مبعث الراحة والفرح والسلام الذي تنشده وتعوزه كلّ النفوس الفردية على وجه المسكونة.

«إنَّ النور الذي يدرك أغراض الحواس، هو الأتمان: ذلك الجوهر الذي لا يتغيّر ولا يزول، ذلك الواحد بدون الثاني، الذي يقيم إلى الأبد»[2].

The light in the perception of sense objects is the changeless Atma, the one without a second which abides in filling all [3].

لأجل أن نراه، كما هو، يجب أن نفصل عنه الأغراض، أو أن نجعل الأغراض تشير إليه. يجب أن نحوّل «الأنا» من الجسد إلى الأتمان، عندئذٍ يحصل التحرّر من القيود وتفيض السعادة ويعمّ السلام.

---

(١) م.س، الحياة والنور، ص. ١٤.

(٢) م.ن، ص. ١١٨.

(٣) Atma-Darshan-Sri Krishna Menon-Atmananda-P.121.

الأتمان، هو هذا الانسجام الكلّي الذي لا يتبدّل ولا يضمحلّ والذي فيه الأفكار والعواطف، تغطس وتغرب فعندما نراه وندخل فيه، ونستقرّ به، باعتباره «الأنا» فإنَّ ذلك يزيل جميع الأوهام ويجلب السلام الأبدي»[1].

كلمة وعي هي كلفظة الأنا، نتوجّه بالتعبير عنها بعد كلّ فعل نقوم به لكن بالنسبة لجنبلاط الأنا تعني هذا الجوهر الأصيل الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل، كذلك كلمة وعي نقولها عند إدراكنا أو استيعابنا لكثير من الأمور من خلال حواسنا، لكن الوعي الذي يقصده جنبلاط هو هذه الذات المشعّة المشرقة بذاتها على الدوام.

١ـ « سافيت، (الوعي) له وجهان المشروط وغير المشروط. الأول هو الذي ينير أغراض الوعي، أمّا الثاني فهو محض وعي.

٢ـإنَّ الذي لا يستطيع، بواسطة التحليل الدقيق والتمييز، أن يتوصّل إلى الوجه غير المشروط للوعي يبقى مقيمًا في الوجه المشروط. إنَّه سيتوصل إلى اللاّمشروط مع مرّ الزمن إذا لم يظلّ قانعًا بالمشروط»[2].

٣ـ«إنَّ الذي يسطع بي مباشرة، قبل وبعد كلّ فكرة، قبل وبعد كلّ عاطفة هو «الأنا»(الأتمان) ذلك الوعي الذي ليس له غرض.

٤ـ هذا الأتمان الذي يسطع دائمًا كالنعيم في النوم العميق، هو ذاته الذي يسطع أيضًا عندما نحصل على غرض كنّا نرغب فيه.

---

(١) م.س، الحياة والنور، ص. ١١٩.

(٢) م.ن، ص. ١٣٠.

٥ـ بنوري العالم يسطع، وبدونه لا يوجد شيء: أنا النور في إدراك العالم[١].

الذات، الأتمان، الوعي، تدلّ إلى الشيء ذاته، على الشيء نفسه، هو الشاهد على أعمالنا، وتصرّفاتنا وهو الذي ينبّهنا إلى أخطائنا، بالمعرفة والتقرّب من إنسان حكيم يعلّمنا كيفيّة التعرّف على هذه الذات وعندما نستقرّ بها في الذات الواعية، تستقرّ وتستقيم جميع أمورنا، حينها ندرك بشكل واضح ما معنى السلام الداخلي، والسعادة الحقيقية، فالنعمة والنعيم في الداخل فلنتعرّف على ذواتنا، ولا ننخدع في ظواهر الأمور والحياة اليومية. فالأتمان يعطينا ما لا تقدر على عطائه كنوز الدنيا كلّها. الأتمان هو الحقّ، هو الحقيقة الخالدة.

«في الحقيقة، الإلهي
هو في داخلك،
كائنًا ساميًا مطلقًا، نعيمًا داخليًّا أزليًّا.
هو موجود، يظلّ ولا يزول،
لا تالي له، غير قابل للتجزئة،
شعشة، الوعي المطلق،
الشاهد على العقل
فيما يتعدّى الوجود واللاّوجود،
الإلهي هو الكائن الحقّ في جميع المخلوقات»[٢].

(١) م.س، الحياة والنور، ص. ١٣٧.
(٢) م.ن، ص. ١٥٥.

للتحرّر من الشهوات العديدة. للتحرّر من الأنانية القاتلة، للتحرّر من كلّ موبقات الحياة والعصر الذي فيه نعيش، لتستقيم جميع أمورنا علينا التعرّف على الأتمان على الوعي، هو كما سبق وأشرنا قريب قريب جدًّا، هو الساكن في الأعماق، جوهر كلّ كائن، هو النور الذي يسطع على الدوام، يكشف لنا خبايا الأمور، وحقائق الحياة والوجود، فندرك إدراكًا لا يخالطه شكّ بأننا من النور الأزلي، ومهما طال بنا الزمان لا بدّ من العودة إلى النور الذي وإن بدا وكأنّنا انفصلنا عنه، لكنّنا به وهو بنا، وليعيننا على كشف الجوهر، وتمزيق الحجاب، لنحلّ في الوحدة الأبدية.

# وحدة الأديان

بالنسبة لجنبلاط جوهر الأديان واحد، وما دام هذا النور هو الذي يتوهّج في كلّ كتاب، وفي كلّ معرفة، فلا فرق بين إنسان وآخر، وبين دين ودين، فمن هذا المنطلق نحن جميعًا مسيحيون ونحن جميعًا مسلمون، وكلّ عيد يمرّ على هذه الديانة أو تلك علينا أن نشارك به، ليس من باب المجاملة، بل من باب المحبّة والاحترام والاعتراف قلبًا وقالبًا بأنّنا جميعنا مؤمنون إيمانًا راسخًا لا يتزعزع بأنَّ إله المسيحيّة هو نفسه إله الإسلام والبوذيّة واليهود ومجال التلاقي والتضامن والاشتراك واجب وملازم لا مفرّ منه. يقول جنبلاط:

"ويتلاقى الإسلام والنصرانيّة وسواها من المعتقدات في هذا النور، إنَّ النور، النور الحقيقي الذي يضيء (قلوب) جميع البشر جاء إلى الدنيا، وبه كانت الحياة، والحياة (أي الوجود الحقيقي) كانت نور البشر (من إنجيل يوحنّا). وورد في القرآن الكريم ومن أجمل آياته: ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نور كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنّها كوكب درّي نور على نور﴾"[1].

"يرى كمال جنبلاط في المسيحيّة والإسلام، ومن قبلهما اليهوديّة تجليّات متنوّعة لجوهر واحد جوهر التوحيد، وخطى متكاملة في مجرى واحد، مجرى التوحيد. وليس عجز العامّة عن بلوغ هذه الحقيقة أو

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١٢٦.

إدراكها بملغ لها أو بحجّةٍ ضدّها، فكم أجمعت العامّة في تاريخنا الطويل على أمرٍ ثمَّ أجمعت على نقيضه»[1].

ما قيمة حياة الإنسان، إذا لم يتعرّف على جوهره القدّوس الساكن في الأعماق والذي هو نبع السعادة والفرح والفيض الحقيقي، إنَّ الإيمان أولى الدرجات التي ينبغي سلوكها، لكن متى وصل الإنسان إلى جبل المعرفة لم يعُد بحاجة للإيمان وفي هذا المقال يقول جنبلاط:

«(...) وكلّ في سلسلة تدرّجه وارتفاعه وتوقّله وقربه من اللهب المقدس الأخير ـ لهيب الذات الصمد ونوره ـ يتمسّك بصخرة من حجارة الإيمان الملقاة هذه، يبصر انعكاس بعض الشعاع فيها على ازدياد وانفراج، أو على ضيق واحتجاب، على قدر طهره وتطلّعه وشوقه وصفائه، وعلى ما تلمّسه أو تجلّى فيه من معرفة... والمعرفة هي في النهاية باب الله لا الإيمان... وإنَّما معظمنا وكثرتنا الغالبة تأخذها دهشة الصخور الملقاة على جوانب الطريق المتعرّج المتعمّق الصاعد، أو تتلهّى بأشكالها وألوانها ومغانيها، وتكتفي بما بلغته من إدراك بعض السنابل المشعّة الذهبية الصادرة من زاوية الوجدان ومن فجوة صغيرة في حائط الإيمان الأعمى، ويفوتها أن تقترب من هذا الثقب الذي ينبجس منه النور من خلال حجاب العقل، لتضع عينها من خلال هذه الفجوة، فتدرك أنَّ مصدر النور هو الشمس الجوهرية وراء جميع الكائنات والطلاسم والأحاجي وأسرار الحياة والموت والارتقاء على السواء... وكأنّنا، ونحن نتعثّر في المسلك الصعب، وهو الصراط المستقيم ذاته أو

(١) م.س، كمال جنبلاط... لزمن آخر، ص. ١٥٦.

هو درب ملكوت النفس، عبّاد أصنام أي عابدو صخور في هيكل الواحد القدّوس»[1].

حقيقة الأديان البحث عن الخالد الدائم الذي لا يزول وهو موجود في أعماق الذات، وهو نبع السلام والسعادة الداخلية، وكلّ إنسان يمرّ بلحظات يشعر خلالها بسعادة عظيمة وفرح واغتباط ويتمنّى أن تدوم عليه هذه النعمة وهذه السعادة والإنسان غير مدرك أنها لحظات غنوص في الذات، لحظات توقّف الفكر عن مشاغله.

«وهكذا تعرّم وتعلو هذه الموجة الروحية النازعة إلى العودة إلى الأصول والمصادر الأولى والينابيع الزاخرة البادئة، في كلا الاتّجاهين والنهجين لتبيان حقيقة الإنسان الواحد مهما اختلفت مواجهة الحقّ ومسالك السعي إليه، وللتأكّد على هذه الحقيقة الحكمية الخالدة أنَّ هدف الدين ليس فقط تكوين المعتقدات وتنفيذ الطقوس، بل هو في تمكين الكائن البشري من الاستدلال على حقيقة وحقبة جوهره وعين منبت حياته والعروج به أو الإسراء إلى حيث تنزل الروح في مساقط الوجود»[2].

يؤكّد جنبلاط أنَّ هؤلاء الرسل والأنبياء أتوا لتثبيت الرسالة ولإكمال الرسالة الآلهية، وهم بكلّ تأكيد خير معين للبشريّة جمعاء، فإذا كان التاريخ بالنسبة لهيغل مسار لتطوّر الروح، فإنَّ التاريخ أيضًا مسار لتتميم الرسالة الآلهية والهدف النهائي واحد، تحرير الإنسان من قيود الحواس والدنيا توصّلاً للحقيقة الأزلية.

(١) م.س، فيما يتعدّى الحرف، ص. ١٣.

(٢) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١٤١.

«أمّا أثر هذا الكائن المتفوّق المتعالي والمتسامي في التاريخ وتكوينه فنتركه إلى تقدير كلّ بصير. يكفي أن نلمح أنَّ نشوء هؤلاء القادة الكبار بيننا يفتح فجوات واسعة تستقطب البشريّة في أدوارها المتعاقبة، تبعث الحبّ والأمل ونسمة من رياح الهناء والفرح، كانفراجات الغيوم عن السماء الزرقاء الزلالية في مخيّلتنا المتذكّرة»[1].

وفي النهاية الأديان واحدة في جوهرها، وفي إرشاد هذا الإنسان إلى جوهره القدّوس الواحد، فمهما برزت الاختلافات والتغيّرات والتبدّلات، فالوعي الأزلي، والحقيقة المطلقة، والروح في ثبات دائم لا يعتريها زوال ولا تغيّر وهناك تكمن حقيقتنا الحقيقية.

«علينا أن نبغي في الحياة وجوديّة كاملة شاملة، وأنَّ لا محيد لنا عن أن نلجّ طريق البطولة الجامعة لجوهر ما في الدين ـ والذي فيه كلّ دين يلتقي ـ ولخلاصة ما في هذه الحياة الدنيا من قيمة... فاتركوا لقيصر، أي للغرب الزائف، وخذوا من الله روح الدنيا وجوهر اليقين، ولتكن، في هذا الباب، كلّ حياة لنا ملحمة: هذا يعيشها على أساس النصرانيّة، وذاك على جوهر المحمديّة، وآخر على هامش الهندوكيّة أو البوذيّة، أو سمّ ما شئت من الأديان ـ فكلّنا وكلّهم نلتقي. فالطريق واحد، والسماوات واحدة، والأرض لمن شاء فيها الصيرورة الظافرة والتجلّي»[2].

هكذا نجد جنبلاط قد غرف من كلّ دين ما يعينه، وما يساعده على تخطّي محدوديّة الفكر والتقليد، فوجد أنَّ الأنبياء والحكماء غيث

(١) م.س، فيما يتعدّى الحرف، ص. ٧٠.

(٢) م.س، آفاق نورانية، ص. ٣١.

من الرحمن، عزَّ وجلَّ، أنزلهم على الأرض لتنوير العقول ولهداية الناس إلى الحيّ القيّوم الذي هو غاية الغايات، وحيث الأزل والسعادة التي تسعى إليها جميع البشريّة دون استثناء، وكلّ يسلك طريقه ولا يستعجل أحدًا العودة، لأنَّ الثمرة لا ينبغي قطفها قبل النضوج. وكلّ طريق يلجأ إليها المؤمن هي طريق الله.

# الفصل الثالث

# الصوفيّة
# في
# فكر كمال جنبلاط

١ـ الحقيقة أولاً وأخيرًا

٢ـ الاهتمام بالجسد جزء من أدب الحياة

٣ـ المعلوم الشريف (الحكمة)

# الحقيقة أولاً وأخيرًا

سعى كمال جنبلاط خلال حياته بدأبٍ واجتهاد، لا يعرف الملل ولا الكسل باحثًا عن الحقيقة، ما قرأ كتابًا إلاَّ وكان يفتّش عن هذا النور فيه، ما كتب إلاَّ وكان مبتغاه إظهار وجه الحقيقة الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل، وللوصول إلى هذه الحقيقة، علينا أن نتّبع الصراط المستقيم مسلك الصدق القويم، فنشعر بالخير، ونفكّر بالخير ونفعل الخير، حينها تسطع الحقيقة بمجدها، فتحيي النفوس، وتستقيم جميع أمور حياتنا، أعرف الحقّ والحقّ يحرّرك. وفي الحقيقة يقول جنبلاط:

"فلنسع إلى الحقيقة أولاً، فهي التي تستطيع أن تبدّل منّا أكثر ما نستطيع أن نبدّل نحن من أنفسنا، ولنفعل الحقّ، ولنقل الحقّ ولنفكّر بالحقّ، عندما يتوجّب ذلك لا عندما أنانيتنا تقضي بذلك... فالحقّ لا يفعل ولا يقال إلاَّ بروح عدم التبجّح وعدم الأذيّة للآخرين.. طريق الصدق هي المفتاح لمن ابتغى القضيّة لا المعرفة طريق للحقيقة...

طريق الحبّ هي المفتاح، لأنَّ في كلّ ما نحبّ يزول شيء ممَّا نحن عليه من انزواء وتقلّص وتحديد...

طريق الشجاعة هي المفتاح، لأنَّ من لا تعوّد تدخله الخشية ـ أيّ خشية ـ يكون دون أن يدري قد أطمأنّت إلى سكناه الحقيقة"[1].

(١) جنبلاط، من أجل المستقبل، الطبعة الثانية، الدار التقدّمية: ١٩٨٧، ص. ٢٩٨.

كلّ طريق يلجأ إليها المؤمن بقلب نقي، ونيّة صافية، وسعي دؤوب لرياض الحقّ، لا بدّ من أن يصل المريد حينها إلى الحقيقة التي لا تتغيّر ولا تتبدّل ولا تعرف الزوال، ومن ينحرف عن هذا المسار يقع في الشرك وفي الصنميّة وفي التعصّب الأعمى الذي يوصل إلى الجهل، والجهل مناقض للحقيقة، مناقض لطبيعة الإنسان الحقيقية الجوهرية، وبفيض من الرحمن يدخل الإنسان في أتمانه أي ذاته الجوهرية مدركًا الحقيقة بأبهى صورها، وأسمى معانيها.

«المعتقدات جميعها، كما أوضحنا طريق، أي وسيلة لا غاية، الأديان طريق والأحزاب طريق، والعلم طريق، وكلّ عمل أو سعي بشري طريق، طريق للاقتراب من الحقيقة، لتحقيق الحقيقة التي قد تتوزّع وتتفرّع، ولكنَّها واحدة في جوهرها وفي شمولها وفي إطلاقها. ومن يتصوّر غير ذلك يقع في شرك الصنميّة صنميّة الحزب وصنميّة العلم وصنميّة القوميّة وصنميّة السعي البشري على إطلاقه.

ومن تلبّس بالصنميّة تلبّس بالتعصّب، تعصّب الدين، وتعصّب الحزب، تعصّب العلم، تعصّب القوميّة. والصنميّة وصنوّها التعصّب يعنيان في الحقيقة الجهل، الجهل المطبق لما تعبد ولما نؤمن، ولما نفعل، ولما نتوهّم أننا نعلم ـ الجهل للحقيقة ـ الإنسان لا يتعصّب ولا يتصنّم إلاَّ عن إيمان ـ لا عن يقين أي عن إيمان متعام، عن إيمان غير مدرك، غير بصير. وقد أوضحنا فيما قبل الفرق الشاسع بين الإيمان وبين اليقين. إنَّ الذي يبصر النور مثلاً لا يتعصّب للنور، إنَّ الذي يبصر الشمس لا يتعصّب للشمس، إنَّ الذي يبصر الحقيقة لا يتعصّب للحقيقة. العلماء الحقيقيون ليسوا متعصّبين، الأولياء والقدّيسون ليسوا متعصّبين، الأبطال ليسوا

متعصّبين... التعصّب واقع الجهلة الذين يحاولون أن يقنعوا الآخرين بما هم ليسوا به مقتنعين»[1].

الإنسان العارف هو الإنسان الذي تأصّلت في داخله أنوار المعرفة الحقيقية، وهذه المعرفة تنير له دربه وترشده بالاتّجاه السليم، فإذا كان غذاء الجسم الحلال ـ فغذاء الروح المعرفة وليست أي معرفة، بل المعرفة الحكمية الجوهرية، لأنَّ الحكمة وحدها قادرة على تحرير الإنسان من كلّ القيود، وعندما يتحرّر الفكر من كلّ القيود يشعر الإنسان بالسعادة الحقّة وبالسيادة على الذات والجسد. إذًا المعرفة الداخلية هي مصدر السعادة، هي الثبات، هي الحقيقة التي لا تزول ولا تتغيّر، ولا تتبدّل. سئل جنبلاط: «هذا البحث عن الحكمة ألا يحصل دون العودة إلى بعض الأسس المرتكزة على قاعدة حياتية ما؟

أجاب: نعم بالتأكيد؛ لكن المعرفة للحقيقة تساعدنا على أن نزيل من ذاتنا ما يمكن أن نتعلّق به. ومن أعظم المفاهيم التي رسّختها الهند واليونان: بما أننا «نحن» قدرة على المعرفة الصافية، فغذاؤنا الروحي الحقيقي هو إذًا غذاء المعرفة التي تحرّرنا وتخلّصنا. ولا يكتمل تحرّرنا إلاَّ بواسطة المعرفة، وبواسطة تفكيرنا الموضوعي الذي يصبح عنصرًا مساعدًا حين يتحوّل باتّجاه البحث عن مصدره الأساسي. فالحصول على المعرفة إذًا، يحرّر الإنسان من كلّ قيد.

نحن ننجذب للأشياء الخارجية لأنها باعتقادنا تؤمّن لنا الفرح والسرور، ولكن حين نتحقّق بواسطة المعرفة الداخلية ندرك أنَّ الفرح

(١) م.س، من أجل المستقبل، ص. ٢٩٩.

موجود في ذواتنا لا في الأشياء. نحن نستطيع تبديل الأشياء التي نتعلّق بها بما هو السعادة الخالصة والموجودة في ذواتنا.

الأشياء التي نتعلّق بها تتبدّل وتتغيّر وتزول، بينما السعادة الخالصة التي تتحقّق بواسطة المعرفة الداخلية هي دائمة ثابتة، لا تتغيّر ولا تتبدّل ولا تزول.

عندما يتوصّل الإنسان إلى هذه المعرفة يحيا في الظاهر كسائر الناس، ولكنَّه في الواقع يبقى متحرِّرًا من كلّ رغبة دنيوية ويصبح لعلاقته مع العالم معنى آخر... وبديهيًّا، من أجل خير الآخرين، وبهدف التصرّف تجاههم كشاهد أو كنموذج، ولكي لا يعتبر خارجًا على جماعته، فهو يحيا حياته الطبيعية ملتزمًا بالقاعدة التي وضعوها وبالفضيلة التي اقترحوها ويتصرّفون من خلالها. ويشكّل التصوّف نداءً بحدّ ذاته، نداءً عميقًا للمعرفة، نداءً عميقًا للإخلاص وبذل الذات هذا الواقع يفتح الباب أحيانًا أمام المتصوّفين الحقيقيين ليدخلوا «الملكوت الحقيقي الموجود في داخلنا» ويصبحون «أصحاب المعرفة»»[1].

الحقّ، الحقيقة، المطلق كلمات نرمز بها لمعنى واحد، لنور واحد لا يتعدّد ولا يتغيّر، هذا النور الساكن في أعماق الإنسان، يمكن معرفته وإدراكه بالعقل الأرفع، وهذه الحقيقة خالدة موجودة منذ الأزل وباقية إلى الأبد، وهذه المعرفة للحقيقة هي مصدر السعادة، بل هي الجنّة الحقيقية التي وعدتنا بها وتكلّمت عنها كلّ الأديان والمعتقدات.

(١) م.س، آفاق نورانية، ص. ١٠٥.

وعندما سئل جنبلاط هذا السؤال: «يجب أن ندرك الحقيقة، أيمكننا ذلك، ومن بعد التوقّف عند هذا الحدّ؟

يجيب جنبلاط: إن لم نكن نحن الحقيقة النهائية فكيف يمكننا أن نعرف هذه الحقيقة، أو كيف نتمكّن من الوصول إليها؟ إنَّ الحقيقة تُعرف لدى البعض وتُخفى على البعض الآخر، إنَّها البداية والنهاية، إنَّها الحقيقة المطلقة: أبدية، أزلية، مشعّة، لا تتجزّأ، بل لا تتغيّر ولا تزول... والجنّة ليست كما يصفون، فيها حدائق وملذّات أو غير ذلك من الأمور، بل إنَّها السعادة الفكرية؛ إنَّ المعرفة المطلقة هي الجنّة الحقيقة ولا جنّة غيرها، والسماء هي تلك السموات التي نعلّقها وتشغل حيّزًا من أفكارنا»[1].

الفلسفة الهندية تكلّمت عن الحقيقة، وشرحت مفهومها، لذا لا نجد تناقضًا أو تباعدًا في المضمون والتعبير بين الأديان الإبراهيمية والدين الهندوسي، ففي كتاب الحياة النور الذي ترجمه جنبلاط، وفي تعريب «آتمادارشان» للمعلِّم «شري كريشنا مينون أتماننداً» يوضح معنى الحقيقة، وبالوقت نفسه عجز الكلمات عن إعطاء الحقيقة وهجها وحقّها، لذا وللوصول إلى الحقيقة علينا أن نتعدّى جميع الأفكار ونرتفع فوقها وذلك من خلال التأمّل حينها نختبر الحقيقة، ونجد صعوبة التعبير عن الحقيقة عند المتصوّفة العارفين أيضًا حيث أكّدوا عجز اللغة عن التعبير.

«١ـ إنَّ الكلمات التي لا تتغيّر ولا تتبدّل أو ليس لها شكل حتَّى بمضمونها السلبي لا يمكنها أن تظهر الحقيقة كما هي.

(١) م.س، آفاق نورانية، ص. ١١٠.

٢ـ من المستحيل أن تظهر الحقيقة كما هي. والألفاظ، مهما كانت دقيقة التعبير، تبقى عاجزة عن إظهار الحقيقة. فالكلمات ليست سوى إشارات ودلالات.

٣ـ فإذا تأمّلنا بالذي تعنيه الكلمات حرفيًّا، وأخذنا الحقيقة من خلال معنى التعبير، فإنَّ اختيارنا للحقيقة يكون مساويًا لعجز التعبير عن احتواء روحيّة المعنى.

٤ـ وعندما نتصوّر الحقيقة، في ما يتعدّى جميع الأفكار، ونتوجّه بتأمّلنا وفق ذلك، فإنَّ الكلمات يمكنها أن تساعدنا وتقودنا إلى مستوى تنعدم فيه جميع الأفكار... عندئذٍ نختبر الحقيقة.

٥ ـ هل يمكن التأمّل فيها على أنها ما يتبقّى بعد إزالة كلّ ما هو موضوعي من «الأنا» الظاهرة؟

٦ـ هذه الفكرة التأمّلية نفسها تصل آليًّا في النهاية إلى نقطة توقّف في سكون التوقّف تشعّ طبيعة الفرد الحقيقية.

٧ـ إنَّ الإنسان الذي يفتّش في طبيعة الأشياء بهذه الطريقة الدقيقة ويكتشف هذه الحقيقة، ويقيم بها، هو الروح العظيم الذي توصل إلى غرضه وعرف الشيء الفريد المتوجّب عليه معرفته وأضحى مطمئنًّا إلى الأبد»[1].

الحقيقة سرّ دفين في داخل كلّ إنسان، لكن على قدر الشوق والسعي الدؤوب لاختبار هذا الوعي الجميل تتحقّق النعمة ويصل

(١) م.س، الحياة والنور، ص ص. ١٢٣ـ ١٢٤، و١٢٨.

المريد، باليقظة الداخلية، لكشف كلّ حجاب توصّلاً للحقيقة والتي هي من الأمور المهمّة جدًّا. في تلك اللحظة التي يحصل بها المريد على هذه النعمة تكون الولادة الحقيقية، هذه الولادة التي كتب عنها ميخائيل نعيمة في روايته «اليوم الأخير» حيث تعرف موسى العسكري بطل الرواية على حقيقته الحقّة، فكانت الولادة باتّجاه الأزل باتّجاه النور الذي لا يضمحلّ ولا ينتهي ولا يزول.

يقول جنبلاط:

« فهذا الوعي في الإنسان الذي تدرك البصيرة الظواهر النفسية والظواهر الحسّية، يعود ـ إذا ما تجرّد عن الأغراض التي يقع عليها وينيرها ـ إلى نبعته ونقطة مصدره، فإذا به قائم بذاته أزلي أبدي، فيما تعدّى الزمان والمكان، وهما من نتيجة فعل التناقض ومن معاييره. وحيث إنَّ الأنا لا تنفصل عن الكينونة البسيطة والحقيقة الأخيرة التي تبطّن وتغلّف كلّ وجود ظاهر، فلا بدَّ أن تكون هذه الحقيقة كلّها في كلّ شيء. وحيث إنَّ الأنا من ضمن صفاتها الجوهرية، تتضمن هذه الطاقة العجيبة للبصيرة، أي لليقظة، أي للمعرفة، أي للوعي: فإنَّ أقرب الموارد في معرفة هذه الحقيقة ـ معرفة كيانية لا غرضية ـ هو هذا التقصّي لمكنون الذات البشرية. وكان أحد الصوفيين يقول بحقّ: «من عرف نفسه عرف ربّه».

ولذا يقول هيراقليطس أيضًا: «لأنَّ مقام الإنسان هو ذاته مقام الألوهيّة، أي هو ذاته عين الحقيقة»[1].

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص ص. ٧٤ ـ ٧٥.

يرى جنبلاط أنَّ هناك من يفصل بين الله والحقيقة، وهؤلاء بالنسبة له هم المشركون والضالّون عن الرؤية السليمة والقدرة على التمييز. أمَّا الذين لا يفصلون بين الحقيقة والله فهم أهل النور والمعرفة وهم يسعون من خلال الورع العقلي والشغف الداخلي للارتقاء ولاختبار الحقيقة، والحقيقة نور ساطع لا يغيب لا في الأزمنة ولا في المعتقدات ولا في الأديان. وعندما تنحلّ عقد الازدواجية تسطع الحقيقة الجوهرية في الذات، ومن يطمح لرؤية قرص الشمس المنير لا يكتفي بشعاعٍ خفيف.

« أمَّا الفصل والتمييز الثاني، أي بين الحقيقة والله، فهو الصنميّة بعينها، والضلالة بذاتها، فمنهم من يتعبّدون الله ويستشفّونه بواسطة بصائر عيونهم وبصيرة سرّهم الباطن ووعيهم الصميمي الدفين ـ وعصب العين الشحمانية امتداد لهذه البصيرة ـ فهم المشركون والضالّون في أيّ دين وفي أيّ زمان...

أمَّا القسم الآخر فهم الذين لا يميّزون ولا يفصلون بين الحقيقة والله. فالحقيقة بالنسبة إليهم هي الله، هو الحقيقة ولا شيء سوى ذلك. فهم أهل المعراج وأهل النور والضياء ـ وما من نور، في كلّ زمان وفي كلّ مكان، إلاَّ ويرتفعون إليه من خلال استقصائهم للحقيقة في كلّ شيء، كمن يختبر في شغف الورع العقلي الرفيع الحقّ والخطأ في جوانب ذاته، أو كمن أضحى هو ذاته المختبر (بكسر الباء) والمختبر (بفتح الباء) وهذا الذي تعمل فيه بصيرة الاختبار. فالحقيقة موجودة في كلّ معتقد وفي كلّ كتاب وفي كلّ دين « إنّني لم آت لأهدم الناموس أو الشريعة بل لأكمل الشريعة أي لأجعلها تتحقّق في أرفع آيات تحقّق المعنى في الفعل، والنيّة في الفكر، والبصيرة في مشاهدة الأشياء وكما

هي، لا كما يصوّرها لنا خداع الأشكال والأسماء والرغبات. هذا التجسّد الحقيقي الذي يطلب من كلّ منّا»[1].

لا يستطيع الإنسان الوصول إلى الحقيقة إلاَّ بالعلم والعمل مجتمعين والمعرفة أولى درجات العرفان، وكلّما تعمّق الإنسان في المعرفة كلّما انحلّت عقد الازدواجية وثبت باليقين وتوصّل إلى التحقّق حيث يرى أنَّ النور واحد في كلّ مثوى ومكان وفي كلّ عصر وزمان، والرسالة السماوية جوهرها واحد وإن تغيّر صاحب الرسالة. وما دام الأمر كذلك، على ماذا تختلف البشرية؟ أوليس من السذاجة والغباء أن تقوم الحروب بين الأديان أو بين أتباع دين واحد؟ وهم لو أزالوا الغشاوة التي تعمي البصر والبصيرة، لأدركوا يقينًا أنَّ الجهل هو الذي يسيطر على العقول لا الوعي المتيقّظ السعيد.

«وإذ ذاك، عندما لا نعود نفصل بين الله ككائن وكاسم، وبين الحقيقة ـ وهي جوهر الوجود وجوهر الله ـ تنتفي من نفوسنا ازدواجيّة العلم والإيمان، والدين والمعرفة ـ في مفهومها العادي وفي مفهومها الآخر أيضًا: «ولا يتمّ إيمانكم إلاَّ بالمعرفة». فتنحلّ عقدة النفس، لأنه لا يعود هنالك تناقض وتنافر بين القلب والعقل. وإذ ذاك تنجلي أمام بصيرتنا، حقيقة الدين، كلّ دين، وكلّ دين هو معتقد بشري وكلّ دين هو معتقد منزل، فلماذا هذا الاختلاف؟ فكما في الداخل يكون الإنسان كذلك يكون في خارجه، وإنّنا من الذين يؤمنون بمحمَّد وبالناصري وبكلّ رسول وبكلّ دين، ولا نميّز بين قول وقول آخر إلاَّ بما يتوافق

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٩٤.

مع الحقّ. وفي النهاية علينا أن نتساءل: هل نحن نطلب الحقيقة أم نعبد الأديان؟ وعبّاد الطريق لا تصلهم بصاحب الطريق صلة. فهم الذين يكتفون بنور الشمس الذي يضيء لهم بعض سبل الحياة ولا يعرفون وجههم ليبصروا تألّق القرص المشعّ في بساطة مجده»[1].

النعمة لا يحصل عليها إلاَّ مستحقّها، والمعرفة لا يسعى إليها إلاَّ الراغب بها، والحقيقة لا يدنو منها إلاَّ طالبها، حيث يعلم طالب الحقّ، قيمة الحقّ ويكون أيضًا قد وصل إلى مرحلة من الرقيّ العقلي والنفسي ما يخوّله الولوج في المعرفة والتحليق في رحاب الحقّ، لهذا شدّدت الأديان على إعطاء المعرفة على قدر تحمّل صاحبها لها لأنَّ كلّ زيادة على عقل المتلقّي يدخل المتلقّي في الحيرة أو السخرية وفي كلا الحالتين يبتعد عن المسار السليم وهذا يؤدّي إلى التهلكة.

يقول جنبلاط:

«تحظّر الكتب المقدّسة على الصدّيقين الروحانيين أن يتحدّثوا عن الحقيقة كما هي إلى الأفراد الذين يسيطر على فكرهم فقط (أي الزمنيين)، لأنَّ الحقيقة تتأذّى من جرّاء ذلك وتشوّه لأنّ أولئك الأفراد يفهمونها من مواجهة النسبية العرضية العادية التي يعيشون فيها دون سواها، فيجدون من المستحيل التوفيق بين الحقيقة وهذه المواجهة، وإذ ذاك يباشرون بالهزء بالحقيقة ذاتها، وهذا الهزء يجرّهم إلى التهلكة. فيجب أن نتجنّب مثل هذه الكارثة مهما كلّفنا الأمر»[2].

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٩٥.

(٢) م.ن، ص. ١٨٤.

ولد الإنسان على وجه المسكونة لهدفٍ سامٍ، للمعرفة للولوج في أعماق الذات، والتي هي مصدر السعادة والفرح، هذه المعرفة تعني العرفان الأكبر تعني الحقيقة بوجهها البهيّ السنيّ السامي، إذا عرف الإنسان هذا الأمر عرف سبب وجوده حينها تنحلّ جميع العقد، وما كان يبدو مزدوجًا وما يبدو متضادًّا ينحلّ في الوحدة الراسخة الأبدية.

والحياة تدفع بالكائن الحيّ نحو التكامل نحو التطوّر توصّلاً إلى الصيرورة التامّة في الفكر والروح وينعكس ذلك على الجسد وعلى حياة الفرد ككلّ. على الإنسان المعرفة وعدم التيه والعمى في دنيا الحواس والأوهام، باحثًا عن السعادة باحثًا عن الحقيقة في الأغراض والمقتنيات، فالبحث المخادع هذا يجعله يركض طوال أيام حياته، ودون جدوى ولا فائدة وعندما يمضي العمر بالتعب والعمل المضني تراود الإنسان مثل هذه الأفكار يا ابن آدم هل قتلت الدنيا أم الدنيا قتلتك؟ وإذا كان حظّ الإنسان كبير من اليقظة والوعي يعلم أنه روح، أنه وعي، أنه حقيقة ساطعة نادرة الوجود، فيدخل في إتمانه العظيم مدركًا سرّه وأسرار الوجود إلى التوحيد المحض، والاستقرار بالحقّ.

عندما يصل الإنسان إلى حالة الطهر الداخلية، يصل إلى مراحل التنبّؤ. هذا الأمر لا يعترف به الكثير من الناس وخاصّة العلماء، لكنّها حقيقة موجودة لا نستطيع إنكارها، لأنَّ علم الغيب الحقيقي يحتاج إلى شفافيّة مرهفة حيث يصبح صاحب الحالة من أصحاب الكرامات كما يقال. وجنبلاط يؤمن ويؤكّد وجود هذه الغيبيّات، وبالمقابل يقول إنَّ العلم رغم التطوّر الحاصل لا يستطيع أن يكشف عن جوهر وماهيّة الأشياء، بينما العرفان والأديان توصل إلى هذه الحالة.

في الغيبيّات يقول جنبلاط:

«عندما نتحدّث عن الغيبيّات التي تتضمّنها المعتقدات الدينية والمسالك العرفانية والصوفية ونهزأ بالمتعلّقين بها، أو نتصوّر، من وجهة سطحية العلم التطبيقي الدارج العادي، بطلانها، بدون تمحيص ولا تدقيق ولا إمعان في المعرفة، يغيب عن بالنا أنَّ العلم الحديث المتقدّم، وفي جميع أنحاء العالم المتمدّن، قد حطّ بنا الرحال ونفذ بنا في مسيرته الأخيرة إلى موطن من الرموز والأحاجي يصعب على الفكر تصوّرها أو حلّها، هي أيضًا أقرب إلى الغيبيّات الدينية من أيّة نظرة عقلانية عادية للوجود.

ويتابع:

عند حدود الفكر وارتطامه بصخور النسبيّة وعقبات الكيفيّة الأينية، ومدارات انغلاق العلاقة بين الشخص المدرك والغرض المدروك، ينطلق العرفان ليكمل معرفة الأشياء ويكشف عن حقائقها وماهيّاتها وجوهرها، بأداة مستكشفة أخرى، أرفع وأرقى وأقرب إلى استيعاب اللطيف الباطن مكوّنها، هي العقل الكلّي أو الأرفع»[1].

علم الغيب هذا الذي دافع عنه جنبلاط بأنه موجود وحقيقة واقعة وإن كانت هذه الحقيقة، أو لنقل النعمة أو الهبة الإلهية غير متوفّرة لكلّ البشر، بل لقلّة قليلة منهم، هذه القلّة التي غاصت في أعماق الحكمة وأعماق الوجود، فوصلت بنعمة المولى إلى التحقّق وهذا ما حصل مع جنبلاط عندما كان يقرأ بعض المخطوطات لحمزة ابن علي حيث سمع صوت هرمس وأئمّة العرفان في مصر القديمة وكأنه يسمع إذاعة أسرار

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص ص. ٢١٢ ـ ٢١٣.

القرون المطوية الأولى المتبقّية في بطون الأثير وفي هذا المقام يقول جنبلاط:

«ولمّا كنّا نقرأ لحمزة ابن علي[1] في بعض المخطوطات التي عثر عليها أخيرًا، كنّا نشعر وكأنّ كوّة منيرة هائلة قد فتحت لنا في مجال معرفة المجهول من الأحقاب المنصرمة، وأننا نسمع زخم نداء الأجيال يتنزّل إلينا، فنصغي، في ذهول التسبيح وانشراح العقل وسكون القلب، إلى ما يبدو لنا صوت هرمس ذاته وأئمّة العرفان في مصر القديمة، وإلى تعاليم فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وبعض حكماء إيران والهند السعيدة وسواهم عليهم السلام، في أطهر وأصفى وأسلم جدول متّصل ينقله إلينا، كمن ينصت إلى إذاعة أسرار القرون المطوية الأولى في تضخّم وتكثّف الصدى المتبقّى لها في بطون الأثير. ولعلّه اختبار يفيد منه العاكفون على دراسة حكمة اليونان ومصر القديمة، والإسلام والنصرانيّة وسواها من المعتقدات الشرقية.

(...) وكنّا نعتقد ولا نزال، أنَّ الحكمة واحدة في كلّ مثوى وزمان لا تتجزّأ ولا تختلف في الجوهر، لوحدة الحقيقة ووحدة الكشف عنها، ووحدة الروح والعقل البشري»[2].

كمال جنبلاط يعرف تمام المعرفة أنَّ الذي يتكلّم عن كرامات وغيبيّات لا يوضحها تمامًا، بل يرمز إليها لأنه يعتقد بأنَّ من وصل إلى مثل هذه الحالة وتكلّم عن كلّ ما يتنبّأ به يكون كمن ادّخر مبلغًا من المال وأخذ يصرف من هذا الرصيد، وهناك بعض التنبّؤات التي لا تصحّ

(١) حمزة ابن علي: سيِّد من أسياد المسلك الحكمي التوحيدي.

(٢) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٢٠.

لأنَّ أصحابها لا يملكون الشفافية الكافية. وقراءة المستقبل تبقى لقلّة قليلة ونادرة تقريبًا من البشر.

يقول جنبلاط:

«التنبّؤ خاصّة من خاصيّات الفكر، فعند تقوية هذه الخاصّة بالإمكان معرفة ما قد يحدث. لكنّ أيضًا هناك أخطاء ترتكبها هذه الخاصيّة، إذ لها محدوديّة، فهناك تأويل يكون خاطئًا. لهذا السبب يكون الإنسان حذرًا من التنبّؤات. والعقل حين يصبح شفّافًا يضحي بإمكانه أن يدرك بعض الأشياء بنسبة معيّنة أو كبيرة، لكنّ الأشخاص الذين يدركون هذه الأشياء لا يتكلّمون عنها، وحين يتكلّمون عنها يضعونها ضمن رموز يصعب تأويلها، مثل نوسترادموس[1] لا نعرف أنها تحقّقت معه التنبّؤات إلاَّ بعد أن تتحقّق، لأنه وضعها ضمن رموز غريبة، وفي أحد كتبه قال: «إنّني سأموت في الهند وأنا في المكتب وفي يدي القلم في السنة الفلانية». وقبل يوم من وفاته قال: «غدًا ستأتون وتروني ميتًا» وفعلاً في اليوم التالي جاءوا ووجدوه ميتًا في الشكل الذي وصفه.

هناك أبحاث في هذا الحقل إذ ليست كلّ التنبّؤات تصحّ، لأنّ أصحابها لا يكون لديهم الشفافيّة. وحتَّى قراءة الأفكار لها محدودية، وهناك قسم من العقل لا يدخل ضمن قراءة الحدود بخاصّة عندما يكون التفكير تجريديًّا إلى حدّ معيّن، فيجب أن يكون التفكير ضمن صور حسّية، وفي مستوى معيّن»[2].

(١) ميشال دو نستردام (١٥٠٣ ـ ١٥٦٦)، عالم فلك وطبيب فرنسي.

(٢) جنبلاط، فلسفة العقل المتخطّي ـ فلسفة التغيير ـ الجدليّات،الطبعة الأولى، الدار التقدّمية: ٢٠٠٣، ص. ٢٣٦.

قال الحكماء الهنود عن جنبلاط إنَّه حكيم، وهذا ما تؤكّده الأستاذة نهاد أبو عيّاش التي عايشت جنبلاط في بعض المراحل حيث تقول إنَّه بحقّ يستحقّ لقب العارف.

تقول أبو عيّاش في جنبلاط:

«مسلك جنبلاط مسلك كلّ موحد، مسلك طهارة ونقاوة وصفاء، وقد كان ممارسًا لرياضة المعرفة وأعطى بحقّ لقب العارف.

جنبلاط وصل إلى درجة التحقّق بدليل أفعاله وأقواله وهالة السطوع التي كانت له والاستقطاب للخلق. وهو يعرف من هو في ١٣ جيلاً، وقد أعطى إشارات حول ذلك دون توضيح ـ وإذ يقال شوهد في القمر أقول إنَّه ملأ الدنيا، وعند محبّيه بان في القمر ـ أي بعد في القمر ـ نور أثيري وتألّق نفسًا مطمئنّة في عودة إلى نور الأنوار، وإلى الحقّ الأصل والمصدر»[1].

أشير في نهاية هذا البحث حول «الحقيقة» أكتشف من جديد إلى دقّة توصيف أستاذي الدكتور محمَّد شيّا لأعمال كمال جنبلاط قاطبة، حين كتب في مطلع مقدّمته لأعمال كمال جنبلاط المحقّقة تحت عنوان «بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق»: «لو كان لنا أن نختصر أعمال هذا المجلّد كافّة في جملة واحدة لقلنا إنّها بحث عن الحقيقة أو بحث في الحقيقة، ولأنّ للحقيقة أكثر من وجه، وأكثر من مرتبة أو درجة؛ ولأنّ الحقيقة لا تكون نظريّة فقط، وإنَّما هي عملية كذلك، وممارسة وعمل من وحي الحقيقة، واتّجاه الوجه الأخير أو التجلّي الأعلى للحقيقة،

(١) م.س، شجرة الجوز، ص. ١٨١.

تبدو صوفيّة كمال جنبلاط، أو تصوّفه، الوجه الشخصي العملي الذي يستكمل الحقيقة في وجهها النظري الأول»[1].

الحقيقة نور يتألّق في الوجود، وفي داخل الإنسان، فمن استضاء بنور الحقّ هو الإنسان العارف هو الإنسان المتحقّق، الحقيقة هي الشعلة التي تضيء حياة الوعي، تضيء حياة هذا الإنسان الذي وجّه ذاته باتّجاه العظمة، باتّجاه الأزل حيث السرمديّة والخلود، وحيث يتعرّف المرء على ذاته الحقيقية فينعم بسعادة وبسلام لا يعادلهما كنوز وخيرات الدنيا كلّها.

(١) م.س، كمال جنبلاط... لزمن آخر، ص. ٥.

## الاهتمام بالجسد جزء من أدب الحياة

كمال جنبلاط يدرك تمام الإدراك، أنَّ الروح لتكمل مسيرة تطوّرها لا بدَّ من حلولها في الجسد، وبالتالي لهذا الجسد المادّي حرمات ومتطلّبات وحاجات على الإنسان الاهتمام بها. وكلّما كانت زجاجة القنديل نظيفة بلورية، كلّما أشرقت شمس الذات الخالدة، من هنا برز اهتمام جنبلاط بحاجات الجسد وبآداب الحياة. وهناك سبب آخر جعله يهتمّ لهذا الموضوع وهو أنَّ شباب هذا العصر تريد التنكّر لكلّ حضارة عريقة ولكلّ التقاليد الموروثة وهذا بالتأكيد انحراف عن المسار السليم وعن سنّة الحياة والتطوّر.

«عايشنا جيلاً من الناس في أواسط عمرنا، أغرّته مفاهيم سطحية كثيرة كالديمقراطية والسيادة الشعبية، والتقدّم والتحرّر والاشتراكية والثورة وسواها ـ ولم ننفذ إلى حقيقة هذه المعايير والمفاهيم ـ فأضحى يهيم على وجهه، يطلب هذه الأشياء، كما برزت له في سطحيّتها، فلا يجدها. وهي في الواقع معضلة شباب عصرنا، وشباب العالم... فوفرة العلم، كما هو موزّع، أي بشكل أفقي، خلقت نوازع جديدة وفئة اجتماعية من الناس تريد تقويض كلّ تقليد، والتنكّر لأيّ اختبار تاريخي، والارتداد عن المدّ الحضاري المعنوي السالف، لكي تحاول الإبداع من لا شيء ـ وهو طبعًا المستحيل لأنه مناقض لسنّة الحياة والتطوّر والتحوّل ذاته ـ من العدم لا يخرج شيء...

(...) والإنسان في النهاية ظاهرة لواحديّة تتعدّاه، ولمحور نظامي régulateur on center يفرض مسار نموّه الجسدي والعقلي ضمن إطار تخطيطه وتصميمه، فسبحان العقل الذي هو متجلٍّ قائم في كلّ شيء، لأنه نظام الكون... ومن خرج عن نظامه فسد وأفسد، واجتذب المحن والكوارث له ولمجتمعه، لأنّ قدر الأفراد السببي هو الذي يكون قدر الجماعة. هذا النظام الذي لا يخرج عنه نظام عيش الإنسان هو الأدب في الذي عنيناه في معناه الأسمى وفي مشاركته في الإبداع»[1].

الأدب هو مرقاة التحضّر الحقيقي في الإنسان، هو احترام النفس والتي من خلالها نتوجّه لاحترام الآخرين، ومن يعرف قيمة القيم يحترم قيم الآخرين وتقاليدهم وعاداتهم، وباتّباع مسالك القيم الحميدة والفعّال المهذّبة ترتقي النفس وتعلو منزلتها، حينها يدرك الإنسان معنى الحضارة في جوهرها الصحيح والسليم لا الحضارة المزيّفة، والتهذيب يبدأ من الخارج فيوحي المظهر بما يحويه الجوهر.

«مفهوم الأدب هو احترام النفس واحترام الآخرين. ومن لا يحترم نفسه ويعتبر قيمها فكيف يصحّ له أن يتوجّه إلى الآخرين بالاعتبار والاحترام؟ (...) ومن لا يستوي له تهذيب خارجه فكيف يستقيم له تهذيب داخله؟ ومن لا يحترم الآخرين فكيف يتوفّر له أن يتوجّه إلى ذاته بالثقة والاحترام، وهي بداية مرقاة التحضّر الحقيقي في الإنسان؟ ولا معنى للحضارة إلاّ في هذا التهذيب لأفكار النفس وشواعرها ولحركات الجسم واعتمالات الجوارح.

(١) م.س، أدب الحياة، ص.٧.

(...)ولا نفطن معظم الأحيان إلى أنَّ هذه الثقافة الإنسانية موجودة في تقاليدنا وحضارتنا الشرقية العربية الأصيلة التي جاءت إلينا من خلال اختبار الأجيال، وآداب الجدود وتهذيبهم، واستنارتهم بالخلق السليم والنهج السويّ، وأنَّ علينا أن نحيي وأن نحافظ على هذا التراث الأدبي الخلقي في حياتنا الفردية وفي حياتنا الاجتماعية»[1].

نلاحظ بوضوح أنَّ الأدب عند جنبلاط خارجي وداخلي، فحركات الجسد والجوارح والحواس توحي بمدى الاتّزان الداخلي والراحة النفسية، كما وأنَّ الداخل أساس لكلّ أفعال وتصرّفات الإنسان، فالإنسان السويّ، المنسجم داخليًّا مع ذاته، يبرز هذا الانسجام في حركات الجسد والجوارح، وفي أحاديثه وكلماته وأفكاره.

فمثلما تؤثّر الحواس بما تلتقطه من العالم الخارجي على الفكر والخيال كذلك الأفكار والمشاعر تؤثّر على حركات الحواس والجسد. لهذا كان واجب التهذيب والأدب، الالتزام بالسلوك القويم. ومن جملة الآداب التي كتب عنها جنبلاط، أدب الدخول ـ أدب السلام ـ أدب الأكل ـ أدب الشرب ـ أدب النظر ـ أدب السمع ـ أدب الشعور ـ أدب الفكر... إلخ.

في أدب الدخول يقول:

«على الداخل إلى البيت أن لا يتطلّع يمينًا وشمالاً ليلحظ ما لا يجب عليه أن يلحظه داخل الأبواب، أو لكي يسرق بعض المشاهد من حرمة وحشمة الدار، ولا يهتمّ بنظرة إلى ما تتضمّنه وتحويه من فرش وأناقة، وأوضاع للحيطان وللسقف قد تكون على ثراء أو فقر أو تواضع

(١) م. س، أدب الحياة، ص. ٩.

أو غنى، أو انعدام في الترتيب أو انتظام على السواء، فالعيون الملقة والتي تشعّ بالحشرية تؤذي وما أثقل أرباب الحشرية والوقاحة! فأدب النفس يبدأ عندما نتخلّى عن هذه الحشرية وعن هذا الملق وعن هذه الوقاحة في التطلّع والتسرّق، وإنَّما يحترم الإنسان نفسه على قدر ما يحترم الآخرين»[1].

«(...) فكما أنَّ المادّة تؤثّر في الروح، فكذلك تؤثّر النفس في المادّة، لأنَّ كليهما ضدّان يتواجدان بالمقابلة وبالتكامل، كما يتواجد اللطيف في مواجهة الكثيف، وفق القاعدة الجدلية المعروفة... وكلاهما أي المادّة والروح من أصل واحد يتعدّاهما في وحدة الوجود. وفي النهاية يجب أن لا ننسى أنَّ شرعة السببيّة تتحكّم بكلّ شيء في العالم الظاهر والباطن، فلا يخرج شيء عن الرضوخ لها... وهكذا فإنَّ كلّ ما يحصل لنا من اختبارات ومحن زماننا على الصعيد الفردي، كما هو ذلك على الصعيد الجماعي، هو ناتج، في علاقة العلّة بالمعلول، عن تصرّفاتنا ونشاطاتنا السابقة، فلا يلومنّ أحد أو جماعة إلاَّ نفسه ذاتها...»[2].

معاملة الجسم تبدأ بمعاملة الروح، وتنقية الأفكار من كلّ السلبيّات، وتثبيت الأفكار الإيجابية فيه، فالاهتمام بالرياضة البدنية ونظافة الجسد الخارجية وتنقية الجوارح والأعضاء التي تنقل صور وأمور العالم الخارجي كالعين والأذن، والاهتمام بنظافة الأعضاء التي تدخل رمق الحياة لهذه الروح والجسد معًا كنظافة الأنف لإدخال الهواء النقيّ ونظافة الفم لإدخال الطعام المغذّي والتنبّه لأنواع الأطعمة التي نتناولها، لأنَّ

(١) م.س، أدب الحياة، ص. ١٤.

(٢) م.ن، ص. ٨١.

الطعام يؤثّر في الفكر، والفكر يؤثّر في المشاعر والتصرّفات، لهذا اتّبع جنبلاط النظام الغذائي النباتي وهو القائل إنَّ الحيوان عندما يُذبح يشعر بالقلق والخوف وكيف لا! وهو يواجه ويصارع الموت، وبالتالي هذا الخوف وهذا القلق ينتقل إلى كلّ أعضاء جسم هذا الحيوان، وعندما نأكل نحن البشر هذه اللحوم تنتقل هذه المخاوف والأحزان إلى مشاعرنا وأفكارنا. وفي كلمة أخيرة «إن لجسدك عليك حقًّا».

«ومعاملة الجسم تبدأ بمعاملة الروح، وبتطهير الفكر، وبإشاعة نواميس العقل في كلّ ما نفكّر ونسعى إليه. فالإنسان من هذا القبيل كلّ لا يتجزّأ. وفي المقابل تجب العناية بهذا الجسد من ناحية الرياضة، الرياضة الطبيعية والسهر على ترويض الحواس وتنقيتها، لأنها هي النوافذ على العالم الخارجي ومنها تدخل انعكاساته إلى المخيّلة المصورة.

وكذلك تجب النظافة والراحة، واستنشاق الهواء النظيف، واختبار الأكل الصحيح، وضبط الأعصاب، وحبس الجهد عن التسرّب إلى التوافه، والتأدّب بالعقل والكلام، وعدم هدر الطاقة بما لا يفيد وبما لا يحفظ مستوى هذه الطاقة النفسية الحيّة متوازية في اتّصالها، كأنها صلة بنهرِ الحياة ذاته، نغرف منه ولا ينفذ.

وهذه المرآة لحواسنا التي هي الجسم، يصحّ لنا آنذاك أن نقدّرها على حقيقتها، على اعتبارها هذه الكثافة للطاقة التي هي فيه، فهي مرآتنا ونحن لها مرآة، والحقّ من وراء جميع هذه المرايا ينجذب إليها وتنجذب إليه، ويلعب بإبداعها، وتستنير بظلّ ذلك الإبداع لتعود من حيث أتت وتنزّلت. فإذا بالخلق تجلّ دائم، من خلال تبدّله الظاهر وخداع التكوين وخداع الأقمصة والحواس، لهذا السرمدي الذي لا يتبدّل ولا يزول.

ولذا كان للأكل والشرب أهمّية خاصّة ليس فقط في تكوين الجسد السليم، بل في تكوين النفس والعقل السليم، لأنَّ الجسد يتكوّن من الأكل والشرب وما هي عليه كثافاته ولطائفه. والفكر بدوره، بما يحتوي عليه من أفعال للعقل وللعاطفة، ينشط ويتكوّن من لطائف هذا الأكل والشرب ذاته. فالمآكل والمشارب هي المرتكزات والعناصر والقوالب التي تشخّص فيها الأفكار وتنزّل المعقولات، وتنطوي وتنسكب العواطف والمشاعر. فسبحان من أبدع الإنسان من لطافته، ثمَّ كثّفه فجعله جسدًا، فإذا به بشر سويّ»[1].

الإنسان ببعده عن الطبيعة في المآكل والمشرب وشتّى أمور الحياة إنَّما يقضي على ذاته بذاته، فالطعام المطهو يسبّب الأمراض الكثيرة الجسدية والنفسية على حدّ سواء. وهذه الأمراض تعيق الإنسان عن التطوّر والوصول للمعرفة الحقيقية والتي من أجلها خُلق أولاً وأخيرًا.

تطرّق جنبلاط بشكل موسّع وفي أكثر من كتاب، في كتاب «أدب الحياة» أو «نكون أو لا نكون» وكتابه المهمّ «العلاج بعشب القمح» كتب عن التغذية السليمة والأطعمة الحيّة وأعطى أكثر من مثال عن شعوب تعيش بسلام ومحبّة وطمأنينة مثل «شعب الهونزا» لأنها تعتمد على الغذاء الطبيعي الصحّي، وأعطى أمثلة عن الطعام المطهو وكيفيّة تأثيره على الجسد والفكر والتجارب التي أجريت على الفئران وكانت النتيجة التعامل العدائي فيما بينها وهذا التسمّم في الخلايا والدم يفسد العقل وما قيمة الإنسان دون القوّة العاقلة فيه.

(١) م.س، أدب الحياة، الصفحات ٣٠ ـ ٣٦ ـ ٣٧.

«فالتغذية غير العادية تحدث ظاهرة يمكن تسميتها بـ«تسمّم الدم بالغذاء».

قد يبدو من الصعب الاقتناع بأنَّ الطعام هو الذي يقرّر عمليّة تطوّر الإنسان، أو التسبّب بانحطاطه السلالي. ولكن أليست هي نوعيّة الطعام التي تقرّر مصير يرقانة النحل التي تولد النحلة العاملة ذات الحياة القصيرة، أو الملكة التي تعيش حياة أطول؟

إنَّ نتائج التسمّم تظهر بأشكال مختلفة في الحياة الفردية والاجتماعية. إنَّ الإنسان يفقد غريزة الانتساب إلى جنسه وإلى الطبيعة المحيطة به. فهو لا يشعر ولا يعرف لماذا يعيش، ويجهل مصيره. إنَّ الإنسان، وقد تسمّم «بالأطعمة الميتة» بنزعة عمياء، إرضاءً لحاجاته، قد أوجد الظروف التي ساعدت على تحويل عمليّة انحطاط جنسه بشكل بطيء، إلى عمليّة إفساد تصاعدية. ولقد سمّم ذلك عقله لدرجة أنه لم يعد يرى ويفهم كيف أنه أفسد الهواء والماء والأرض والطعام، واتّخذ سبيل القضاء على نفسه بنفسه. وها هي الأعراض بادية في الأدب والصحافة والتلفزيون والسينما والمسرح، وفي «عبادة الموت»، وسوى ذلك من مظاهر الحياة الحديثة: «عبادة المرض»، هذا بالإضافة إلى الظاهرات الأخرى كالأمراض النفسانية وهوس التسلّح والحروب»[1].

جنبلاط القائل: «إنَّ لجسدك عليك حقًّا»، يعلم أنَّ رغبات الجسد كثيرة، لكنّ دائمًا الاعتدال في كلّ شيء يؤدّي إلى التوازن الداخلي والخارجي على حدّ سواء، فالإنسان إذا انغمس في شهواته وغرائزه

(١) جنبلاط، نكون أو لا نكون، الطبعة الثالثة، الدار التقدّمية: ١٩٧٨، ص. ٩٠.

الحيوانية انسفل وأصبح بمستوى الحيوان، لأنَّ هذه الطاقات الحيّة الموضوعة في الجسد منها تنبع الحياة، ويستمرّ نسل الإنسان في هذا الوجود، لكنّ كلّ شيء زاد عن حدّه انقلب إلى ضدّه، لذا كان الزواج الباكر من الأمور المهمّة جدًّا والتي تنصح به الحضارة الهندوكية، وبهذا العمل يبعد الإنسان عن نفسه قدرًا صعبًا سوف يواجهه لا محال نتيجة الإفراط والتفريط في طاقات الغريزة الحيّة. إذًا الحبّ في مفهوم جنبلاط هو انجذاب للذات الجوهرية في الآخر وهذا الحبّ لا يزول ولا يتغيّر إلى نقيضه. لذا يوصي باتّباع الحبّ الحقيقي وباتّباع الطبيعة في كلّ الأمور لأنَّ الطبيعة ليس فيها خطأ، إنَّما ما يعلق في الفكر وما يتوهّمه العقل يشكّل الخطأ بحدّ ذاته.

«وفي ملاحظة مستوعبة لأعماق النفس البشرية، يوصي الحكيم شري شنكارا من كاتشي بضرورة الزواج الباكر، لدى البلوغ أو بعده بقليل، لكي لا تتلطّخ النفس بأفكار الانجذاب الجنسي، وبعواطف نار الاشتهاء، فتضحى لها تصوّرات ومفاهيم تجانب عفويّة هذه الغريزة الشريفة بحدّ ذاتها في الإنسان. لأنَّ الذي يدنّس الإنسان هو فكره، وبه يدنّس الطبيعة كما هي في عفويّتها. وكم من شباب وشيوخ تعمر في نفوسهم الدعارة الفكرية! ولو كانوا انصرفوا إلى الزواج الباكر، لكانت بقيت هذه النفوس طاهرة، لما عشّشت فيها، وانضافت إلى جبلة خلقها الطبيعي، العقد النفسية والتراكيب الهامشية الشعورية الزائدة. والزواج في هذا المعنى، وفي هذا التحقّق الباكر، تعفّف، كما ترشدنا إلى ذلك حكمة الموحّدين: «ومن يرد أن يلقى مولاه في أيامه طاهرًا مطهّرًا، فليتعفّف بزوجة، وما من شاب موحّد مؤمن تحصّن بزوجة في حداثة

سنّه، إلاَّ عجّ شيطان إمارته يقول: يا ويلتاه، ثمَّ يا ويلتاه، لقد عصم هذا الإنسان منّا ثلثي حكمة شرعته، وأغلق أبواب التية، وفتح باب الهدى والرضوان»[1] (س.ر.ص. ٢٢٥ ـ ٢٢٦).

«علينا دائمًا أن نرفع طاقة الحياة فينا ـ والتي تتمثّل في ما تتمثّل به في الغريزة الجنسية ـ وأن نرتفع بهذه الطاقة إلى مستوى ومكنة تحويلها إلى طاقات ونشاطات لطيفة ورفيعة. وإنَّما النزعة الجنسية، بما تحويه من تيّار حيّ Libido هي لبنة واقعية يجب أن نستخدمها لأجل بناء شخصيّتنا وخلقنا وعقلنا وقيمنا، وفي توضيح تطلّعاتنا البهية، وفي كلّ ما يجعل للحياة الدنيا معنى هو فوق مسرى الحيوانية المحض ومجاريها النابضة في عروقنا»[2].

نرى بوضوح عند جنبلاط أنَّ للجسد حاجات يجب أن نؤمّنها له. لكن حذار أن تزداد الأنانية في الذات لتتحوّل هذه الحاجات إلى رغبات، لأنَّ كلّ فعل وكلّ امتلاك يزيد عن الحاجة يصبح وكما قال غاندي عنه «سرقة». وكأنَّ الإنسان يسرق أخاه الإنسان، لكنَّ كلّ هذا لن يمرّ دون الوقوع بنتائج لهذا الفعل أو ذاك، إن كان خيرًا فخير وإن كان شرًّا فويل. فالصلة بين الجسد والروح صلة وثيقة، فكلّما قلّت الكثافة ظهرت اللطافة على الوجه والتصرّف، وعمرت الذات بالطمأنينة والسلام والعكس تمامًا صحيح.

كيف نستطيع أن نحقّق هذا الانسجام بين الروح والجسد؟ يعطينا جنبلاط بعض النصائح؟

---

(١) م.س، أدب الحياة، ص. ١٤٨.

(٢) م.ن، ص. ١٤٥.

يقول: «لا يفوتنا طبعًا أن نوضّح أنَّ للمآكل أثرًا في اصطناع حالة التهييج الجنسي غير الطبيعي. وخصوصًا التغذية باللحوم وبالسمك، وبالبيض وبالمآكل المطهوّة، وعدم القيام بأيّ نشاط مادّي لصرف هذه الطاقة من المآكل... فاندفاع الشهوة بالإنسان ينجم عادة عن اختزان المآكل فيه، بحيث يكون لها، في ذلك، طريق آخر لاستهلاكها وإفرازها، وإنّنا ننصح بالطعام النباتي، وبالاعتدال بالمأكل والمشرب، وبالامتناع عن تناول الكحول والتبغ وألوان المنشّطات والمخدّرات، وحتَّى القهوة والشاي التي يفوق ضررها نفعها، ومجانبة حياة المدينة والصخب ما أمكن... كما نوصي بالقيام بنشاط جسدي معتدل في كلّ يوم، ونشاط أقوى وأطول في كلّ أسبوع. وممّا لا شكّ فيه أنَّ ممارسة الرياضة، ومنها اليوغا، تخدم في هذا الاتّجاه، بما توفّره من استرخاء في العضلات، ونشوة في الأعصاب، وراحة في العقد الفقرية العصبية وفي خلايا الدماغ، وشعور بالانسجام ناجم عمّا يوفّره تكامل أعضاء الجسد في نشاطاته الفيزيولوجية، ويجدر أيضًا أن تعود الحياة الخشنة والبسيطة، والتعرّض لتقلّب الطقس، وللبرودة، والصقيع، والحرارة. وكذلك تشنيف الآذان وسماع القلب بالإنصات إلى الموسيقى المتناغمة المريحة، وترويض الذهن والشعور بالفنون وبالشعر والأدب من روائع ما خلّفته العصور. وأخيرًا قليل من الصلاة، والتأمّل كلّ صباح ومساء، وقبيل هدأة الأكل، تفيد الجسد والروح كثيرًا في إشاعة الاطمئنان والسكون في أعضاء الحواس في الفكر والشعور، فالصلاة صلة بالطاقة الكونية التي نحن جزء منها، بل نحن هي»[1].

(١) م.س، أدب الحياة، ص. ١٤٤.

الإنسان في مفهوم جنبلاط وحدة لا تتجزّأ، وهو هذا الكثيف وهذا اللطيف الساكن في الأعماق، لا يمكن معرفة هذا الإنسان إلاَّ بالعودة إلى عدد من العلوم والاختصاصات، وكلّ اختصاص يؤدّي إلى دراسات ونتائج تختلف عن غيرها.

فالإنسان هو هذه الجثّة الهامدة التي يشرحها ويدرسها العلماء، هو هذه المواد الكيماوية التي تؤلّف الأنسجة والسوائل في الجسم، هو هذا الكمّ الهائل من الخلايا التي تولد وتموت في كلّ لحظة من لحظات عمرنا، الإنسان هو هذه الأعضاء المتّصلة المنفصلة، والتي تكون بتكاملها هذا الجسد، هو هذا العقل وهذا الوعي وهذه الشخصيّة، وهذا الشعور، هو يتكامل بتكامل كلّ هذه الأعضاء والطاقات، وإنَّ ما يميّز الإنسان عن غيره من الكائنات هو هذه القوّة العاقلة "العقل" والذي به يتطوّر ويرتقي ويرتفع ليدرك حقيقة وجوده، مكتشفًا أعظم طاقاته الروحية والتي ما أن يعيها حتَّى يدرك أنه خالد لا يزول وما الأجساد إلاَّ أقمصة ترتديها الروح لتكمل مسيرة تطوّرها واكتمالها الحقيقي.

# المعلوم الشريف (الحكمة)

إنَّ اهتمام كمال جنبلاط بالأديان والمعرفة وشغفه للمطالعة، كانت بذرة أصيلة متأصّلة في داخله. وباهتمامه بهذه الموضوعات، جعل هذه البذرة تتفتّق من تحت التراب وتتغذّى بنور المعرفة وأوكسجين العشق العميق للمطالعة، فنمت هذه البذرة لتشكّل نبتةً تختلف بكثير من الأمور عن غيرها من نبات العقل والفكر والشعور، فكوّنت الفكر الجنبلاطي والشخصيّة الجنبلاطية.

يقول تيموفييف في كتابه "الرجل الأسطورة" إنَّ اهتمام جنبلاط بالحكمة التوحيدية، قد بدأ على ما يبدو في سنّ الفتوة، لكن من الممكن أن يكون قد تلقّى الدروس الأولى منذ الطفولة، ولمّا بدأت التساؤلات تثقل فكره وعقله، خاصّة قضايا الوجود، توجّه إلى الفكر الديني باحثًا عن الجواب لتلك المسائل.

وأيضًا يقول تيموفييف إنَّ الفترة بين ١٩٣٨ حتَّى ١٩٤١ غير مدروسة من حياة جنبلاط، لكن حسب المعلومات في مذكّرات معاصريه تقول إنَّه التقى للمرّة الأولى وعلى نحو جادّ التقاليد الدرزية الدينية، حتَّى ولج عمق المعاني وأسرارها الخفيّة.

"وساعده في ذلك الشيخ أبو يوسف فريد أبو حمزة، صاحب المجموعة النادرة من المخطوطات الدينية الدرزية الذي ألمَّ بمستلزمات التأويل منذ شبابه الباكر حين مارس تدريس العربية في ثانوية راشيّا.

ووفقًا لإرشاداته انكبّ جنبلاط على مطالعة «رسائل الحكمة» حتَّى استوعبها سطرًا سطرًا. واستمرّ التعاون الفكري بينهما سنوات طوال إلى أن توقّف بوفاة الشيخ أبي يوسف عام ١٩٦٥»[١].

الحكمة كما يراها جنبلاط واحدة كالحقيقة لا تتغيّر ولا تزول، والحكمة تخرج إلى الوجود على ألسن الرسل والصديقين والحكماء العارفين. فهذه الحكمة واحدة من زمن أمحوتب إلى يومنا هذا، والجوهر النوراني الفريد واحد مهما تعدّدت الوجوه وتعدّدت المسارات.

«وأضحينا ندرك اليوم أنَّ التوحيد سلسلة ذهبية متّصلة الحلقات من المعارج والاستطلاعات والإشراقات والتوجّهات، ومن الأنبياء والرسل والحكماء والأولياء، لم تنقطع منذ فجر التاريخ البشري. وإنَّما ولد الإنسان منذ البدء في حقيقته أو طبيعته الجوهرية موحّدًا كاملاً ولا يفوته إلاَّ التذكّر لمثل هذه الحال»[٢].

«المطلق»، قال جنبلاط «موجود في كلّ شيء مخلوق، بل إنَّه هو كلّ شيء موجود. هو كلّ شيء وكلّ شيء إيّاه، وعليه يكون الإنسان، أي حقيقة الإنسان أو الذات self، هو المطلق، هو الألوهيّة. إنَّما الناس لا تعي هذا، فلا يعدو الإنسان حسب تفكيرهم كونه فردًا ذا أنانية آنية ego، له فكر وحواس وعواطف مختلفة، منفصل عن الله الذي خلقه وأوجده. إنَّ هذه الازدواجية، هذه الثنائية ليست حقيقية، وعندما يعي الإنسان هذا ويدركه يستنير بالذي تسمّيه المسيحيّة الروح القدس ويسمّيه

(١) م.س، الرجل الأسطورة، ص. ٧٧.

(٢) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١٣٠.

الدروز العقل الأرفع. لقد أشار الصوفيون المسلمون إلى هذا الإنسان الحقيقي والإنسان الكامل، أو الإنسان المتكامل".

مسلك التوحيد هو مسلك الأحديّة وهذا ما يؤكّده القرآن الكريم. إيّاكم والشرك بي هذا من قول الله تعالى، وهذا ما تؤمن به أمّة التوحيد أو الموحّدون الدروز" وهذا جوهر كلّ دين وكلّ حقيقة. أمَّا العقل الأرفع فهو صلة الوصل الدائم بهذا الجوهر الفريد، هو الفيض النوراني وهو الأداة الإشراقية الرفيعة.

"(...) وفي الحقيقة لا ولاية على الموحّدين، ولا على الأنام كافّة، إلاَّ للعقل الأرفع... أمَّا العقل الذي نعني فليس هو العقل العادي للكلمة، أي هذه الوظيفة التي تمكّن من القياس والمقارنة والتمييز والمحاكمة في ما بين أغراض الحواس ومعقولات الفكر... إنَّما العقل المقصود هو العقل الأرفع، هذا الفيض اللطيف والصورة البسيطة النورانية المتجلّية في كلّ حين، وهذه الأداة الإشراقية الرفيعة... وهذا العقل الأرفع هو صلة واتّصال دائم بهذا الجوهر الفرد الفريد، لأنه مد وامتداد، وفيضه ونوره فينا، لا ينفصل عنه، ولا يجانبه"[1].

وميزة ثانية في مسلك الحكمة والتوحيد، هو ذلك الانتساب العلني الصريح والمطلق إلى العقل. والعقل هو الكلمة، "اللوغوس" في البدء، وهو أخيرًا "العقل الكلّي الأرفع" مبدأ كلّ مسالك العرفان وغايتها في آن، وإلى ميّزات مسلك التوحيد الأخرى، يبقى أن أبرز ما في هذا المسلك هو حجم العقل فيه وأولويّته المطلقة، برأي جنبلاط، و"الدرزية هي دين العقل".

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص.١٢٨.

والعقل في مسلك الحكمة، وبالمعنى التوحيدي، هو خلاصة لكلّ العقل البشري في وجوهه الظاهرة والمستترة. وإذا كان مسلك التوحيد، امتداد لتيّار العقل النسبي، في المصدر الشرقي الهندي الفارسي، وللتراث الحكمي المصري القديم عند امحوتب أو هرمس الهرامسة، إلاَّ أنه وفي المرتبة الأولى امتداد مباشر لتراث العقل عند فلاسفة الإغريق والذي يمتدحه جنبلاط، وبخاصّة فيتاغورس «الحكيم» وهيراقليطس «أبو الجدلية» وأفلاطون «عليه السلام» و«مولانا» أرسطوطاليس. والمصدر الآخر للعقل في التوحيد هو العقل الإسلامي الذي يبدأ بمحكمات القرآن، ثمَّ في أعمال فلاسفة الإسلام، ولدى متصوّفيه ومتحقّقيه أخيرًا.

وجنبلاط يرى، وبحقّ، أنَّ محمّدًا (ص) هو الذي شقّ طريق الحكمة بدءًا من اعتكافه في جبل حراء... وقالت العرب يومها أنَّ محمَّدًا قد عشق ربّه »[1].

مسلك الحكمة، مسلك الورع والتقوى والتنبّه إلى الذات واعتمالات الجوارح وشطحات الفكر، بالمراقبة الذاتية وتصحيح ما يبدو غير صحيح، وتنقية النفس والفكر من كلّ الشوائب، والسير في الطريق القويم وعلى الصراط المستقيم والذي هو من أهمّ صفات الموحّد والذي يعنى به «الصدق» يسير الإنسان بخطى ثابتة باتّجاه الحقّ واكتشاف الحقيقة والسموّ بها إلى أرقى وأرفع الدرجات والتي هي الحكمة. والحكمة لا تتغيّر ولا تنفصل في أيّ زمان وأيّ مكان.

«فالحكمة لا تنفصل، في أيّ زمان أو مكان، عن الاستطلاع الأخير

(١) م.س، كمال جنبلاط... لزمن آخر، ص.١٦٣.

للعقل ونزعته الجوهرية إلى معرفة مصدر انبثاقه وأصل ينبوعه ومعين إبداعه. ولا ينفصل هذا المسلك التوحيدي (أي الدرزي) بشكل خاصّ عن التصوّف العرفاني الإسلامي والتحقّق الحنيف الأصيل الذي استقى هو ذاته ممّا سبقه في اختبار أرباب الحكمة والعرفان الأقدمين. ففي درس هذه المصادر واستطلاع كشفها، يكمن سرّ اجتناب الخطأ في تكوين فكرة صحيحة عن المعتقد التوحيدي الدرزي».

ومطلب التوحيد هذا هو في منطق نهج العقل البشري وتقصّيه وسيره واستطلاعه. فالشعور (أي القلب) يطلب التوحيد والوحدة، ولا تطيب له السعادة إلاَّ إذا غمرته غبطة واحدة، متّصلة، عميقة، دائمة، لا تتبدّل ولا تتغيّر»[1].

إنَّ الموحّدين الدروز يقرّون ويعترفون بالدين الحنيف بالقرآن الكريم، وهم يعتبرون أنفسهم «وديعة الإسلام» ويرفضون أيّ قطع عن النبع الأصيل والمصدر الروحي الأساس للمعرفة وللتأمّل، كما يحترمون ويقدّسون كلّ الكتب السماوية كالإنجيل والتوراة، ويرون أنَّ النور الذي يضيء الوجود بكامله هو نفسه الجوهر الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل في كلّ الكتب السماوية. تعدّدت الطرق والمعارج، والهدف واحد والأصل واحد.

«أبرز هذه الأخطاء التاريخية، التفريق بين دعوة الإمام حمزة بن علي ومولانا الحاكم بأمر الله، في محاولة لقطع صلة الموحّدين، أي الدروز بالإسلام، وهو أمر لا يرتضيه الموحّدون لأنفسهم ولمعتقدهم.

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١٩٥.

وإنَّما يعتبرون أنفسهم "وديعة الإسلام"، وقد حشر جميع الموحّدين به بعد انقضاء فترة الشريعة العيسوية وظهور الإسلام، كما قال الأمير السيِّد جمال الدين عبد الله التنّوخي وهم يعتبرون القرآن المستند الرئيسي لمصادرهم الروحية ووحيهم وتأمّلهم، كما يعتبرون الإنجيل والتوراة من الكتب المقدّسة وأنَّ تسميتهم بالفقراء والعارفين تسجمهم في مسالك العرفان الإسلامية الكبرى في هذا الدور من الزمن. وهم من الفرقة التي أشار إليها الإمام أبو حامد الغزالي حجّة الإسلام، بعد أن أمعن في تصنيف المحجوبين بظلمة نفوسهم والمحجوبين بمحض الأنوار في قوله: "وإنَّما الواصلون صنف رابع تجلّى لهم أيضًا أنَّ هذا "المطاع" موصوف بصفة تنافي الوجدانية المحضة والكمال البالغ لسرّ لا يحتمل هذا الكتاب كشفه: وإنَّ نسبة هذا "المطاع" نسبة الشمس في الأنوار. فتوجّهوا من الذي يحرّك السموات ومن الذي يحرّك الجرم الأقصى، ومن الذي أمر بتحريكها إلى الذي فطر السماءات وفطر الجرم الأقصى وفطر الآمر بتحريكها، فوصلوا إلى موجود منزّه عن كلّ ما أدركه بصر الناظرين ببصيرتهم، فإذا وجدوه مقدّسًا منزّهًا عن جميع ما وصفناه من قبل (مشكاة الأنوار، ص ص.٩١ ـ ٩٢)"[1].

"جنبلاط ـ إنَّ الدرزية مذهب يؤمن بأنَّ الحقيقة ممكنة البلوغ، أي أنَّ الحقّ هو الحقيقة المطلقة، يمكن معرفته وإدراكه بالعقل الأرفع، إنّها لمعرفة، لحقيقة وجدت منذ وجود الإنسان. والمذهب الدرزي توارث هذا الإرث وخبره بالتجربة منذ آلاف السنين، فرؤية الحقّ وجهًا لوجه، أي معرفته، لا تكون بالإيمان، بل تكون بالتيقّن والاعتقاد؛ وعليه يكون

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص.٢٣.

المذهب الدرزي مذهبًا عقائديًّا. ليس لدى البعض منهم التعطّش للمعرفة، والبعض الآخر يكتفي بالإيمان ويتوقّف عنده من غير أن يرغب فعلاً بمعرفة الحقيقة النهائية للأشياء، ذلك أشبه بمن يرغب أن يكون فيزيائيًّا ويتابع البحث فيما يختصّ بانتشار الـ«electrons» لنواة الذرّة، ويصل إلى معرفة الصيرورة النهائية للكون»[1].

الموت والولادة حالات طبيعية دائمة، في كلّ ثانية يموت الكثير من البشر والملايين تولد من جديد، ومذهب التوحيد «الحكمة» تقرّ بهذه الحلقة المستمرّة، أمَّا سبب ارتداء الروح هذه الأقمصة البشرية فهو أنها لم تصل إلى التحقّق، إلى المشاهدة حيث الانعتاق من سلسلة الموت والولادات المتعدّدة. وفي هذا المنحى يقول جنبلاط:

«طالما لا يزال الإنسان جاهلاً، أي طالما أنه لم يحقّق الله في نفسه فإنَّه سيخلق من جديد على الأرض. لكنَّ الذي توصّل إلى الإشراق لا يعود إلى هذا العالم ولا إلى غيره من العوالم.

يضع الفاخوري مصنوعاته في الشمس لكي تنشف ويضع المصنوعات التي احترقت على النار والتي لم تحترق؛ وعندما تمرّ المواشي في الساحة العامّة تدوس أحيانًا هذه الآنية. فيلقى الفاخوري أجزاء الفخّار المحترقة بعيدًا، ولكنّه يجمع الأجزاء التي لم تطبخها النار ويعجنها من جديد في كتلة كبيرة من الطين، ثمَّ يعود إلى شغلها على الدولاب لكي يصنع منها أواني جديدة.

وحقًّا أقول لكم إنَّه ما دام الإنسان لم يحقّق الله في ذاته فعليه أن يعود إلى أيدي الفاخوري، أي أن يولد من جديد مرارًا عديدة.

(١) م.س، آفاق نورانية، ص. ١١٠.

إنَّ حبّة الأرز التي انقلت لا تنبت ـ لا يمكن للحَبّ المسلوق أن ينبت أبدًا. وكذلك الذي أصبح سيّدًا كاملاً فإنَّه لا يعود إليه، عليه أن يولد من جديد في هذا العالم. إنَّ الإنسان الذي لم يبلغ نفسه السيادة، الإنسان الذي لم يكتمل، فإنَّ عليه أن يولد من جديد إلى أن يصبح متحرّرًا»[1].

الموحّد هو الإنسان المقرّ بلسانه المصدّق بجنانه بوحدانية الله عزّ وجلّ، وهو الإنسان الذي يتطلّع إلى الأسس بوهج التوحيد ونور المعرفة، والتوحيد الذي يعني معرفة الله بالأحدية لا يمكن الوصول إليه إلاَّ بالعلم والعمل مجتمعين، فالموحّد يدرك أنه لا يكفي ترداد الصلوات والكلام الإلهي، بل عليه العمل بها والالتزام بموجباتها، لأنه يدرك يقينًا أنَّ هذه النفس متى تجوهرت وصفت إذ لم يلازم الاهتمام بها، عادت جاهلة بعد تقواها. إذًا طريق النور طريق فرح وسعادة إن عرفنا كيف نحافظ عليها ونسبر غور عمق ذواتنا حيث يسطع هذا الكائن القادر المشعّ على الدوام. وفي هذه اللحظات السعيدة لحظات الانغماس في الذات يصرخ العارف من أعماق قلبه «الله وأكبر، لا إله إلاَّ هو». هذا الوله والوجد والعشق للصورة الأزلية لا يصل إليها إلاَّ الموحّد العارف الذي سلك طريق الحكمة والعرفان والتوحيد.

«وبعد، يعتبون على الموحّدين ويأخذون عليهم، إن هم لم ينجذبوا، خارجًا، ونزولاً وانحرافًا وعماهة، إلى هذه الأشباح الظاهرة في الكون الحسّي السحري المحيط بهم، وإن هم أرجعوا بصيرتهم إلى الباطن الخفي، وتطلّعوا، في داخلهم وفي داخل الأشياء، إلى حيث

(١) م.س، آفاق نورانية، ص. ٤٥.

هبطت من نقطة الإبداع جميع هذه المبدعات المتسلسلة المتجلّية في سمط عقد النجوم وأكاليل المجرّات والسدم وفي العوالم المجهرية المشعّة، الدائرة في أفلاك الخلايا والذرّات، وفي نور سماوات نفوسهم؟ فسبحان من جعل العارفين، في الحقلين، والمنطلقين، والسفحين، وفي الباطن والظاهر، يتلاقون ليصدحوا على «مآذن أفئدة قلوبهم» بنداء الوحدة النابع الهادر من صميم وثنايا هذا الوجود، ذلك النغم الأزلي الذي بعث بهم العشق والتوق في الحالتين، والذي به وجد وكان العالم الظاهر والباطن على حدّ سواء، وهل ينفصل أحدهما عن الآخر إلاَّ في منطق المحال؟ وسبحان من أوحى إلى النوري، رضي الله عنه، قوله العجيب: «إن الله لطف ذاته فسمّاها حقًّا وكثّف ذاته فسمّاها خلقًا». تعالى إبداعه عن كلّ وصف وتشبيه»[1].

كلّ الأنبياء والرسل والمرسلون لأداء الأمانة التي ولّيت لهم، كانوا جميعهم على مستوى الأمانة لأنهم في الدرجة الأولى آمنوا ودخلوا في اليقين الذي لا يخالطه شكّ، وإلاَّ كيف ينجح بأداء الأمانة وبثّها إن لم يكن هو مقتنع بها! والرسالات السماوية التي أنزلها الله للهدى والمعرفة لم تختلف في جوهرها وإن بدا بعض الاختلاف في المضمون والأسلوب والغارقون في أنوار المشاهدة أصبحوا أنوارًا أغلقوا البصر وفتحوا البصيرة الداخلية، فهم لم يختلفوا في مرآة كينونتهم ذاتها ولا في نعيم وجدانهم، لهذا يرى جنبلاط أنَّ نهر الإشراق والحكمة والعرفان ما زال يتدفّق منذ أقدم الحضارات حتَّى يومنا هذا.

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص.١٩٨.

«فسبحان من جعل الرسل والأنبياء موضع سرّه ومقام استتار أمانته وأداة نشر هدايته، وأئمّة تنظيم شؤون جماعته، والقيّمين بالقسط فيما بينهم، وعلى تتميم السنة الملائمة الفاضلة، وتنفيذ مضامين الشريعة وما تعلو به من صدق وأخوّة ومشاركة وطهر ورحمة واستقامة وأمانة، وجعل المتحقّقين الحكماء سرجًا منيرة في سماء وظلمة الفكر وجهل كثافة الجسد ومتاهة حجب الحواس، نشهد من خلال شفافيّة كثافتهم وضياء وجوههم وبهاء تصرّفهم ونورانيّة كشفهم، الحقيقة الأزلية التي تقطن في عين أعماق أفئدتنا من حيث تتنزّل نفحة الحياة، فنراهم ببصيرتنا العقلية وبصائرنا الشحمية، من الداخل ومن الخارج في آن واحد، وعلى التمام كمن ينظر إلى عمود نور ونار متوهّج، أو كمن يرى ذاته الجوهرية ـ بعد فناء ذاته الظاهرة الفردية ـ في مرآة كينونة ذاته وفي معين وجدانه... ﴿فأينما تولوا فثمَّ وجه الله﴾[1].

وسلام على صفوة المرسلين ـ وكلّ رسالة تمّمت ما جاءت به التي سبقتها ـ الذي جعل هذا النهر العامر بالإشراق والحكمة والعرفان يقوم في حمى إسلامه، وكأنهم كواكب منيرة تسبح في أفلاك سماء مقادير الروح»[2].

الحكمة الخالدة منذ الأزل وإلى الأبد، وجوهر الحكمة واحد، هو الله، هو الحقّ، هو الحقيقة، هو المطلق، هو البرهمان كما تسمّيه الحضارة الهندية، هو الأول وليس قبله شيء وهو الآخر وليس بعده شيء، منزّه، عالٍ، ليس كمثله شيء.

---

(١) القرآن الكريم، البقرة، ٢/١١٥.

(٢) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٢٦.

وبالحكمة تكمن الاستنارة وتشرق الذات بأنوار قدسية، وعندما يحِن وقت الكشف يبصر المبصر ما لا عين رأته ولا خطر على بال بشر، والرحمن من فضل غيثه ورحمته للعالمين جعل لهم أنوارهم في داخل ذواتهم لعلّهم يبصرون. ومن شاهد هذه الذات يغرب وجهه عن الدنيا لأنه يدرك يقينًا أنَّ الحياة الحقيقية هي في الغنوص الداخلي في الدخول كما يقول جنبلاط إلى حيث «هو المعلّم».

«لا يمكن فصل الحكمة عن المعرفة، لأنه كما أنَّ معرفة جوهر الأشياء وماهيّة إبداعها ونواميسها الطبيعية الحقيقية هي المرتكز الأساسي للحكمة ونموّها وسطوعها في الإنسان، كذلك فإنَّ الحكمة هي النتيجة الحتمية لتلك المعرفة، هي انبثاق منها عفوي، هو تتويج لامتلاء النفس بها... لأنَّ الفم يتحدّث من بحبوحة القلب وعطاء جوده، وفق التعبير الإنجيلي الشهير.

والحكمة هي استنارة الباطن بإشراق نور المعرفة، كمن ينير شمعة ـ هي علم العقل الأرفع فيما نعنيه، أي الكشف الروحي Initiation ـ ليبدو بها ظلمة سراديب الفكر ومهاوي القلب.

وإذا ما تنزّل هذا الكشف في خلايا الروح، واستقرّ في ثناياها كمن يتركّز في محور ذاته وفي نقطة بيكار دائرة عالمه الداخلي وعالمه الخارجي، دنيا الأفكار والعواطف، ودنيا الحواس، حلَّ الانسجام في نشاطات العقل الأدنى والفكر وفي تصرّفات الحواس والجسد، فأضحى الكائن كاملاً تامًّا متوافقًا مع مثال شرعة إبداعه، في سعي الموجودات الظاهرة إلى استكشاف مثالاتها التي تبطّن سماء العقل في فعل إبداعه،

وفق النظرة الأفلاطونية المعروفة. فسبحان من ارتقى به المعراج إلى كوى الاستشراق هذه والاستبصار لأنه يكون قد أشرف على بداية النهاية، أي على حافّة نعمة التجلّي. وهل يتجلّى الإنسان إلاَّ في حقيقته الأصيلة فيه، وكيف يضحّي شيئًا آخر سوى ذاته الجوهرية؟! وهذا هو الذي يسمّيه أرباب الحكمة في جميع الأمكنة والعصور، التحقّق أو التحقيق Self-Realization: «إنَّهم أهل التحقيق رجال الأعراف، (والأعراف مكان شهداء الدين (وسنرى لماذا)، سادة الأمم (أي الذين يستطيعون ترقيتهم وتوجيههم، أي الذين تتوفّر فيهم شروط الإمامة الحقيقية، أي أئمّتهم بالحقّ والهداية)، ومن هذا التصوّر لدور الحكماء برزت الآية: ﴿لا شيخ ولا إمام عليكم إلاَّ بما يطابق الحقّ﴾ وهي عنوان كلّ حكم عادل وسلطان واع، أي الديمقراطيّة الحقيقية»[1].

الحكمة مصدر الروحانيّات، وروح الحكمة المعرفة، ورأس الحكمة مخافة الله، فمن سعى خلال حياته للوصول إلى الهدف المنشود، لا بدَّ سيصل وكما يقول جنبلاط داوم قرع الباب لا بدَّ سيفتح لك يومًا، والحكمة غذاء الروح وبها تستقيم الحياة الداخلية والخارجية، فالإنسان الحكيم هو الإنسان القادر على المعرفة الكاملة وعلى حفظ أسرارها، والسرّ يبقى دفينًا في قلب الحكيم وجنبلاط يقول إنَّ سبب السرّية على أنه تقليد متقادم لأهل العرفان في معظم الحضارات والأزمنة. وبهذا يؤكّد جنبلاط أنَّ مسالك الحكمة والعرفان قائمة موجودة في جميع العصور والأدوار. وبهذا تكون الحكمة هي المعتقد الأزلي الأبدي الحقيقي وهي

(١) م.س، جنبلاط، آفاق نورانية، ص ص. ١١ ـ ١٢.

ليست حكرًا على جماعة ولا على فرقة أو ملّة، فكما يقال: ﴿فأينما تولوا فثمَّ وجه الله﴾. فكذلك الحكمة تبقى لأهل الحكمة الذين يداومون على حفظها والعمل بما فيها، والتمييز في معانيها.

فالحكمة لا يخلو منها زمان، وكلّ طريق يلجأ إليها المؤمن هي طريق للوصول إلى الله، إنَّ النفوس العطشى لرياض الرحمان لا ترويها أغراض الدنيا ولا مقتنياتها الكثيرة، بل ما يروي هذه النفوس العطشى هو التعرّف إلى حقيقة الوجود الأخير.

# الفصل الرابع

# كمال جنبلاط
# والمتصوّفة المسلمون

١ـ كمال جنبلاط والمتصوِّفة العرب والمسلمين

٢ـ كمال جنبلاط وابن عربي

أ ـ في وحدة الوجود

ب ـ في وحدة الأديان

٣ـ الاختبار الروحاني ـ الصوفي في حياة كمال جنبلاط

# كمال جنبلاط
# والمتصوّفة العرب والمسلمين

الصوفي، والتصوّف... وما شابهها من كلمات، كان لها عبر الزمن تعريفات كثيرة ومتنوّعة، ومنها أنَّ المتصوّفين لقّبوا بهذا اللقب لارتدائهم الصوف، وهو لباس خشن، يترك أثارًا وأخاديد مؤلمة على البشرة وعلى جلد الإنسان، وفي الصيف يزيد لابسه حرارة وكأنَّ جسده يحترق، لكن ما قصده المتصوّفون قهر النفس والجسد. والمتصوّف إنسان زهد بالدنيا وكلّ ما فيها، لأنه يدرك يقينًا بأنَّ رغباتها كثيرة وهي تغري الإنسان دائمًا، وكلَّما لحق الإنسان دنياه بَعُدَ عن السعادة الحقيقية، لهذا نجد في كثير من أشعار الصوفيين ألفاظًا وتعابير تعبّر عن هذا الوجه للدنيا، وبأنَّ من يلحق الدنيا ومغرياتها الكثيرة لا شكّ خاسر. والسعادة الحقيقية هي داخل الإنسان، في النور الذي يضيء حنايا القلب والفكر.

« فالتجربة الصوفية، حيث تقف «ذات» المتصوّف في مواجهة موضوع حبّها أو معرفتها. هي تجربة جوانية تتحرّك في إطار ذاتية معيشة، بعيدًا عن الحروف، والكلمات... بعيدًا عن «الآخرين». وهي تجربة قرب وعرفان مجالها الحيوي: القرآن والسنّة. تجربة إسلامية من نمط قرآني خاصّ: (اتّقوا الله ويعلمكم الله) »[1].

(١) م.س، المعجم الصوفي، ص. ١٤.

أجمع الصوفيون في كلّ العصور على أنَّ تجاربهم الروحية أمور تستعصي على الوصف وتعلو على التعبير، وآثر الكثيرون منهم الصمت فلم يحاولوا أن يضعوا لها تفسيرًا أو تعليلاً، وإنَّما وصفوا ما أدركوه أو شاهدوه أو كشف لهم عنه من الأحوال بأنها أمور «ذوقية» أو «وجدانية» لا تفي اللغة بالتعبير عنها أو ترجمتها بالألفاظ[1].

يقول جنبلاط:

«العارفون ـ بعد العروج إلى سماء الحقيقة ـ اتّفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلاَّ الواحد الأحد الحقّ. لكن منهم من كانَ له هذه الحال عرفانًا علميًّا، ومنهم من صار له ذلك حالاً ذوقيًّا. وانتفت عنهم الكثرة بالكلّية واستغرقوا بالفردانية المحضة واستوفيت فيها عقولهم فصاروا كالمبهوتين فيه، ولم يبقَ فيهم متّسع لا لذكر غير الله ولا لذكر أنفسهم أيضًا: وهذه الحالة إذا غلبت سمّيت بالإضافة إلى صاحب الحالة «فناء» بل «فناء الفناء»: لأنه فني عن نفسه وفني عن فنائه، فإنّه ليس يشعر بنفسه في تلك الحال ولا بعدم شعوره بنفسه، ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه، وتسمّى هذه الحالة بالإضافة إلى المستغرق به بلسان المجاز اتّحادًا، أو بلسان الحقيقة توحيدًا»[2].

كمال جنبلاط عاشق الحقيقة، التي سعى إليها طوال حياته، إن كان من خلال الأديان، أو الشعر أو الأدب أو الفلسفة... إلخ. يظهر عشقه هذا بوضوح كلّي في كلّ ما كتب، ما ألقى محاضرة إلاَّ وكان يرمز إلى الحقيقة والتي هي غاية الغايات، ما كتب شعرًا إلاَّ وكان الوجد والوله

(١) عفيفي، أبو العلا، التصوّف ـ الثورة الروحية في الإسلام، دار المعارف، ص. ٣٤.

(٢) م.س، مشكاة الأنوار، ص ص. ٥٧ ـ ٥٨. وجنبلاط، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٠٥.

للصورة الأزلية محور الأبيات والقصيدة، ما كتب عن فلسفة إلاَّ ووجد النور الحقيقي منذ الأزل وإلى الأبد هو ذاته ينير العالم في ظاهره وباطنه. في صفاء نزعته الصوفية قالت الأستاذة نهاد أبو عيّاش:

«سمعت للحكيم الكبير شري شنكارا اتشاريا رأيًا في كمال جنبلاط يقول: «إنَّه يتأمّل. والتخاطب بيننا مخاطبة الذات للذات» أمَّا أستاذي الدكتور اليوغي TMP Mahadevan فيقول: «كان جنبلاط مثلي يعمل بصفاء...» في حضرة الحكيم يستغرق في الحضور الإلهي، مأخوذًا بصحوه، وهدوئه، وصفائه ورصانته، السلام والطمأنينة يشعّان هالة لشخصه، دائم التطلّع إلى ذاته، منغمس بنورانيّته، مبتهج في اكتشاف الوحدة الأصل البيّنة في الكثرة»[1].

يرى جنبلاط في الروحانيّة قمّة السعي الدؤوب الذي يركض إليه الإنسان المتيقّظ الواعي ألا وهو الحقّ، وكلّما ارتقى الفكر وتحضّر بالمعنى السليم للحضارة، لا المدنيّة التي ينعتها معظم الناس بالحضارة. ينظر الإنسان حينها نظرة مصادقة لكلّ الكائنات، ويصبح الإنسان على وفاق مع العالم بأسره.

«إنَّ الروحانيّة حقّ، إنّها الحقيقة، الحضارة الأصيلة على حدّ تعبير شري شنكارا اتشاريا من كانشي، الذي عرّفها بقوله: «ينبغي أن يكون لنا الحسّ الرفيع النبيل. إنَّ الأفكار السامية لتخلق إنسانيّة مترفّعة سامية. إنَّ هذا لبّ الحضارة وجوهرها. إنَّ الإنسان المتحضّر على وفاق مع العالم كلّه. وهو مصادق للكلّ غير معادٍ لأحد.

(١) م.س، شجرة الجوز، ص.١٧٨.

بعد تحليلنا لمنحى كلّ مخلوق ولحركة كلّ حدث واكتشاف طبيعته الجدلية، الازدواج والتضادّ، يبدو أنَّ الفكر الإنساني يبدأ بالبحث بالتفتيش عن الخلفية الواحدة الأحدية الأبدية السرمدية غير العرضيّة ولا الزائلة.

يرى في المحاورات الروحانيّة لشري أتماننداً من تريفندروم قوله: «الفيدانتا هي سعي حثيث ودائب وراء الحقيقة المطلقة». الـ vicarmarga هي تفتيش عن تجربة الحياة المتكاملة. «إنَّ الفيدانتا لتتمّة وتكملة لكلّ الأديان»[1].

الشغف الكبير الذي كان جنبلاط يحمله بقلبه ومشاعره جعله يشعر بالامتلاء العظيم كشارب الخمر الذي يطلب المزيد دون وعي حقيقي لذلك، إنَّما الذي سكر من خمر المشاهدة يطلب المزيد والمزيد لكن بوعي وصحوة وقوّة لا يماثلها شيء. وفي هذا الشغف الروحي يقول:

«شربنا المدامة حتَّى سكرنا فلمَّا سكرنا طلبنا المزيد
أحبّك مولاي، حبًّا يحطّم قيد الإله وقيد العبيد»[2]

«وما الصوفيّة الحقيقية في النهاية إلاَّ اختبار هذا الحدس وهذا العقل الأرفع لخير معرفة، للمعرفة الأخيرة وجهًا لوجه. وبذا يصبح للدين في استعلائه معنى، وتكمل به معرفة الدنيا، فتضيء بسراج الحكمة والعرفان»[3].

(١) م.س، الفلسفة واليوغا في بلاد الحكماء، ص ص.٩٣ ـ ٩٤.
(٢) م.س، فرح، ص.١٢.
(٣) م.س، ثورة في عالم الإنسان، ص.٢٠.

المعرفة هي الطريق المؤدّي إلى التحرّر، فكيف يمكن للمرء أن يعشق الأزل دون معرفة! وهو الساكن في الأعماق محض فرح، محض سعادة، وهذا الانغماس في النور الداخلي محض مشاهدة.

«نقطة النفس البديعة تماثل بلورًا تنعكس حوله الأشياء نقطة لم تؤثّر فيها الأفكار، ولم يمسّها شعور الألم أو اللذّة، ولا الفعل، ولا الخير ولا الشرّ فاللون المنعكس لا يدخل في تكوين البلور، كذلك لا تدخل الغيوم في تكوين الماء الذي تتمرّى فيه السماء.

والجاهل يخلط كيانه الذاتي مع اللون الذي يلوّنه. والإنسان الحكيم متحرّر بالمعرفة، من أيّ التباس: فهو يعرف أنه ليس إلاَّ بلورًا»[1].

التصوّف بالمفهوم الجنبلاطي لا يختلف بين بلد وآخر، لا بل هو ذاته منذ الأزل، لأنَّ الحقيقة واحدة لا تتغيّر ولا تتبدّل وهي ذاتها في كلّ عصر وزمان، إن كانت في زمن أمحوتب أو سقراط أو البسطامي أو الغزالي أو جلال الدين الرومي، لا فرق بين متصوّف شرقي أو متصوّف غربي، ولا متصوّف هندي أو متصوّف مسلم. وعندما سئل جنبلاط: «لماذا اتّجهت بتصوّفك إلى الهند؟ وما الفرق بين التراث الصوفي العربي والتراث الصوفي الهندي؟ أجاب بقوله: «من خلال دراستي واطّلاعي على التصوّف العرفاني وجدت أنَّ المعرفة هي مفتاح الإنسان. التصوّف لا يختلف بين مذهب وآخر، وبين بلد وغيره، حتَّى في المنهج التعليمي، منهج إعطاء الحقيقة والكشف هو عند امحوتب مثل ما هو عند سقراط أو أفلاطون مثل ما هو في الصين، مثل ما هو عند الحكيم «رامانا

(١) جنبلاط، السلام، الطبعة الثانية، الدار التقدّمية: ١٩٨٧، ص.١٣.

مهاريشي". هو نفسه في بعض مشاهد شكسبير واللورد تينسون. هو نفسه عند جلال الدين الرومي أو فريد الدين العطّار، أو البسطامي. وهذا يدلّنا على أنَّ طبيعة الإنسان واحدة، لا تختلف من حكيم إلى حكيم"[1].

التصوّف، التأمّل، الدين، كلّها مسالك تطهيرية للنفس للذات للوصول إلى هدف واحد وهو الله الواحد الأحد، وهذه المعرفة توصل إلى المشاهدة حيث الانغماس في النور الحقيقي وحيث تضمحلّ الأنا الفردية تضمحلّ الثنائية، وما كان يبدو مزدوجًا خداعًا ووهمًا، يحلّ في الوحدة وتنحلّ جميع العقد، ويدرك العارف معنى الوجود الحقيقي معنى الحياة بكلّ وجوهها.

يقول جنبلاط: "إذاً ليس هناك من ثنائيّة، بل الكائن البسيط، الحميم، المنير ـ لأنَّ كلمة منير تقترب ربّما، لتوصلنا إلى إدراك ما تصعب تسميته ومقاربته فكريًا، ولكن يستطيع النور وحده إعطاء معنى ما ـ هذا العمق المنير في ذاتنا يشكّل المخزون الحقيقي، بعيدًا عمّا هو ذاتي وموضوعي، بعيدًا عن العلاقة التي تربط دائمًا بين المفكّر والفكر، بين المدرك والإدراك، بين الفاعل والفعل. هذا الإدراك ينقّينا من كلّ المفاهيم، لجهّة التقاليد واللغة، والعلم بحدّ ذاته، وكلّ ما تعلّمناه سابقًا. وهنا أيضًا نتوصّل إلى الرؤيا المجرّدة عن كلّ أنانيّة وموضوعيّة؛ هذا هو الارتقاء الأسمى إلى إعادة انسجام الأشياء، هذا هو الوجود في معناه الحقيقي. بالنسبة إليّ هذا هو التصوّف، وكلّ المتصوّفين يثابرون في طريقهم للوصول.

(١) م.س، الفلسفة واليوغا في بلاد الحكماء، ص. ١٨١.

(...) إذًا ليس الانقطاع عن العالم الظاهر بحثًا، بل وعيًا من أجل التوصّل إلى بعض المسلّمات التي تشكّل الطريق إلى التصوّف مهما كان نوعه، تصوّف المحبّة والعمل، والتقوى الخالصة، أو تصوّف اليوغا؛ كلّ هذه الأنواع تمهّد إلى الانقطاع النهائي عن الجسد. وتجاوز الجسد يشكّل عمليّة إدراكية في داخلنا، تجعلنا نعي أننا منقطعون دائمًا، وأننا نشكّل هذا الانقطاع المطلق الممتزج بهذا الجسد، هذه الطاقة الفيزيائية ذات الشكل الحسّي. إذًا نحن ندرك الطبيعة الحقيقية للأشياء، وهذا ما يساعدنا بشكل بديهي على تحقيق، ليس فقط وحدتنا الذاتية، بل تحقيق وحدتنا مع كلّ ما هو موجود، أي بما معناه، تحقيق الكائن المطلق الموجود خلف كلّ شيء، خلف هذا (الكائن) البسيط الذي هو «أنا»[1].

السعادة، الفرح، مطلب كلّ كائن بشري على وجه المسكونة، وهذه الأمور مطلب العقل، لأنَّ العقل البشري يدرك أنَّ الوحدة أو التوحيد، يملك كلّ هذه المطالب لأنَّ في التوحيد وحدة التفكير وفي الوحدة انسجام مع الذات ومع الكون. والحبّ لكلّ المخلوقات يدخلنا في الوحدة الأزلية والديمومة الحقّة.

«وحدة التفسير ووحدة عقل جميع مظاهر الكون، ولا يرتاح من قلقه الأزلي واستكشافه الأبدي إلاَّ إذا حلّت فيه وحدة التفكير وانسجام الأسباب في فعلها الأول وكانت له نظرة واحدة منسجمة للكون.

والحبّ ذاته ـ حبّ العاشق والمتصوّف والشاعر والفنّان والقائد الاجتماعي والرائد السياسي ـ أليس هو مطلب الوحدة والتوحّد مع

(١) م.س، آفاق نورانية، ص ص. ٩١ ـ ٩٢.

الآخر، مع الآخرين؛ كأنَّ التذكّر الذي في نفوسنا لوحدة مصدرنا وانبثاقنا ولوحدة جوهر أرواحنا ـ وكيف نستطيع أن نفهم بعضنا بعضًا في النطق والفكر والتصوّر لولا هذه الوحدة الكيانية الأولى؟ كأنَّ هذا التذكّر والإذكاء يهيّجان فينا وجد العودة من جديد إلى الواحد الأحد، إلى عين هذه الوحدة ذاتها، حيث يشعّ الوعي والسلام والوجود الحقيقي»[1].

جنبلاط لم يعتمد نهج بعض الصوفيّة في العزلة والوحدة كليًّا، بل كان تصوّفه مختلفًا وروح الأخاء والمشاركة هي التضحية بالذات، بالأنانيّة الفردية لخدمة المجتمع، وهذا ما نصحه به معلّمه الحكيم شري أتمانندا، حيث كتبت الأستاذة نهاد أبو عيّاش في هذا الموضوع:

«رغب جنبلاط بالاستقرار في هذا الذي عرفه علمًا يقينًا، لكنّ معلّمه ـ أتمانندا ـ شجّعه على البقاء في ما قدّر له من عمل قائلاً: «الحظّ ميلاً لديك لاعتزال العمل والاستقرار بالحقّ، ولكن إن كليهما يفضيان إلى المطلق، تشجّع، وإن أوصل العمل إلى الموت، فالأنا الحقيقية لا تموت ولا تفنى «ممّا يعني أنَّ جنبلاط مرسل مكلّف بالإنقاذ»[2].

ونرى أنَّ جنبلاط عمل بما نصحه به معلّمه حيث قال: «فلا يمكن الترفّع فوق الزمان والاجتماع إلاَّ بالولوج فيهما والغوص في أعماقهما»[3].

يحيا البشر في هذه الحياة كالأزهار المتنوّعة. لكلّ زهرة رونقها وسحرها ومواصفاتها التي تميّزها عن غيرها، هكذا العقول والأشكال

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص.١٩٦.

(٢) م.س، شجرة الجوز، ص.١٨٠.

(٣) kamal Jumblat - Démocratie nouvelle, éd. Du PSP Beyrouth 1956, p. 5.

البشرية مختلفة، لكن ما يسكن في أعماق الجسد واحد، وهذا الواحد هو الذي يجمعهم ويوحّدهم، وما البشرية إلاَّ إشعاعات تعكس ضياء الصورة الإلهية الواحدة. ولا يتميّز إنسان عن آخر إلاَّ من حيث المعرفة والنشاط.

« أجاب جنبلاط عن سؤال وُجّه إليه، كيف توحّد بين المتصوّف والإشتراكيّة؟ الإشتراكيّة نظام اجتماعي واقتصادي ومعنوي، يهدف إلى جعل الناس يتساوون ما أمكن في أوضاعهم العامّة، لكنَّ الاشتراكيّة ناقصة، مبتورة، كما نراها في معظم البلدان إذا لم تتوّجها حضارة معنوية تأخذ بعين الاعتبار بأنَّ ما يوحّد الناس ويجمعهم ليس هو الجسد، وأجسادهم شتّى، وليس هو الفكر وعقولهم مختلفة متنوّعة كتنوّع الأزاهير في حديقة الرحمن، لكن ما يجمعهم ويوحّدهم هو معرفة الحقيقة والتحقّق بها، والصيرورة في المحبّة الأصيلة، الإنسانيّة الراسخة الشاملة، التي لا يعود فيها، أنا وأنت، بل يصبح فيها الكلّ واحدًا. هذه هي الصوفيّة من معناها الرفيع، الصوفيّة ملح الأرض، لأنها اختبار الإنسان الرفيع لذاته، وهي ملح الاشتراكية إن صحّ وقامت يومًا من الأيام اشتراكيّة سليمة وإنسانية في المعنى الصحيح للكلمة »[1].

يرى جنبلاط أنَّ مسلك الحكمة والتوحيد المحض هو على نهجين في الاقتراب من الكشف والسعي، كما في الأولين كذلك في الآخرين. وهذان النهجان هما النهج أو الطريق الكوني، بحيث يتعرّف المريد على الذات الجوهرية من خلال الكون وتحليله أي ارتفاعًا من الكثيف إلى اللطيف توصّلاً إلى الحقّ.

(١) م.س، الفلسفة واليوغا في بلاد الحكماء، ص. ١٦٦.

أمَّا الطريق الثاني التي يتعرّف المريد من خلالها على الحقّ يكون من خلال الإنسان ذاته، ومن خلال الروح الإنسانية أو الأتمان العظيم. على أنَّ الحقّ دون شكّ ينير هذه الروح كما ينير العالم بأسره.

"وهاتان المواجهتان للحقيقة الأخيرة أو للوجود الحقيقي تعمر بهما وتتّسم مسالك جميع العرفان والحكمة منذ أقدم العصور، فتارةً يكون النهج الكوني هو السائد عند فريق من العارفين، وأخرى يكون النهج المباشر هو الذي يتبعه ويوحي به أرباب المعرفة الأخيرة.

وكلتا المواجهتين واحدة في الوصول إلى الغاية والتحقّق بالجوهر المبدع الأصيل. وأحيانًا يكون الأسلوبان والنهجان مختلطين ومتمازجين، كما هو واقع بعض طرق العرفان والحكمة في الصوفيّة الإسلامية ذاتها وفي التوحيد الدرزي. والعقل الأرفع ittiV ayhdiV أو العقل الكلّي، أو المطاع على حدّ تسمية الغزالي، رضي الله عنه، هو الناظر والمنظور فيه خلاله في آن واحد، وفي كلّ حال، البصيرة والمجهر. فالذي يريد معرفة حقيقة الماء يستطيع ذلك وفق قول شري أتماننا:

"Jivas, like waves in the sea, come into being, rise and fall, fight against each other and die"

"Waves have their birth, life and death in the sea itself, Jivas in the lord"

"النفوس الفردية هي كالأمواج في البحر تأتي إلى الوجود ترتفع ثمَّ تسقط، تصطخب إحداها بالأخرى ثمَّ تضمحل وتزول...

تولد الأمواج وتحيا وتموت في البحر، وتولد النفوس الفردية وتحيا وتموت في المولى»[1].

طريق الصوفيّة، طريق العارفين المبتهجين بأنوار الحقّ والحقيقة، كتبوا وصفوا بعض حالاتهم وأفراحهم، وسعاداتهم، وشعروا في مكان ما أنَّ اللغة تعجز عن التعبير، وفي أماكن أخرى قصدوا التكتّم كي لا يفهم البعض كلامهم جنونًا وبذلك يشوّهون الحقيقة.

«ولا بدَّ هنا من العودة إلى الإمام أبي حامد الغزالي، رحمه الله، والذي نتبنّاه لتوضيح القصد:

من هنا ترقّى العارفون من حضيض المجاز إلى يفاع الحقيقة، واستكملوا معراجهم، فرأوا بالمشاهدة العيانية أنَّ ليس في الوجود إلاَّ الله تعالى، وأنَّ ﴿كلّ شيء هالك إلاَّ وجهه﴾[2] لا إنَّه يصير هالكًا في وقت من الأوقات، بل هناك أزلاً وأبدًا لا يتصوّر إلاَّ كذلك، فإنَّ كلّ شيء سواه إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض، وإذا اعتبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأول الحقّ رؤي موجودًا لا في ذاته ولكن من الوجه الذي يلي موجوده، فيكون الموجود وجه الله تعالى فقط.

فلكلّ شيء وجهان: وجه إلى نفسه ووجه إلى ربّه، فهو باعتبار وجه نفسه عدم وباعتبار وجه الله موجود. فإذن لا موجود إلاَّ الله تعالى ووجهه. فإذن كلّ شيء هالك إلاَّ وجهه أزلاً وأبدًا. ولم يفتقر هؤلاء إلى يوم القيامة ليسمعوا نداء الباري تعالى «لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهّار»، بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبدًا»[3].

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١٨٢.

(٢) القرآن الكريم، القصص، ٧٨/٣٨٥.

(٣) م.س، مشكاة الأنوار، ص ص. ٥٥ ـ ٥٦. وم.س، جنبلاط، ص. ٢٠٤.

المتصوّف، العارف الذي وصل إلى أعلى درجات الرقيّ والسموّ توصّلاً للمشاهدة البديعة، والتي بها يضمحلّ الإحساس بالجسد والنفس ويفنى في الجوهر الوحيد الفريد، فيعبّر بعد صحوه من نشوة المشاهدة، بكلمات وأشعار ندرك من خلالها روعة المشاهدة وفرحة الجنان التي شعروا بها.

«(...) وسئل الشبلي: «متى يكون العارف بمشهد من الحقّ»، فقال: «إذا بدا الشاهد وفني الشواهد، وذهب الحواس واضمحلّ الإحساس»، وسئل أبو يزيد البسطامي عن صفة العارف فقال: «لون الماء لون إنائه، إن صببته في إناء أبيض خلته أبيض، وإن صببته في إناء أسود خلته أسود، وكذلك الأصفر والأحمر، وغير ذلك». يتداوله الأحوال، ووليّ الأحوال وليّه ـ «كالناظر إلى ذاته في المرآة».

ومن أروع الآيات، «أن سمع أبو يزيد رجلاً يقول: عجبت ممّن عرف الله كيف يعصيه، فقال، رضي الله عنه: عجبت ممّن عرف الله كيف يعبده، أي لا يعشقه ويفني شهوده في معرفته وحبّه، فيضمحلّ حجاب الثنائيّة، ويزول العبد ويبقى الربّ. وتكون الطاعة إذ ذاك ولاية بديهيّة وطبعًا ملازمًا وكرامة لا تنقطع، فينصرف بإرادته تعالى لا بإرادة نفسه»[1].

الحكمة، المعرفة أو العرفان، هي واحدة موحّدة منذ أقدم العصور وإلى الأبد، لا تتغيّر ولا تتبدّل، والعارف يسعى بالحكمة والمعرفة ليزيل حجب كثافة الجسد، وتشرق الأنوار الإلهية فيغرق في النعم، في الفرح،

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٠٣.

في السعادة، فيهدأ الفكر والجنان ويردّد اللسان ما يختلج به القلب، فلا يعود يرى في كلّ الوجود إلاَّ موجودًا واحدًا، ولا يعود يرى فرقًا أو اختلافًا بين دين وآخر، لأنَّ جوهر الحقيقة واحد وجوهر الأديان واحد، وجوهر الوجود واحد، فعلى ماذا يختلف الناس!؟

«ولا نجد لاختتام هذه اللمحة، ونحن إنَّما نملأ كوبًا صغيرًا من شراب راح العارفين، ونغرف إبريقًا من نهر شهودهم وفيض فرحهم، أروع من هذه الآية، عرفانيّة وقرآنيّة على التوالي:

«إنَّ مولاكم جعل لكلّ سبيلاً إليه في نفسه ومن نفسه، ولذلك اختلفت عقيدة كلّ نفس كما اختلفت الأهواء والأرباب، وعين حقيقتها هي الصور للمعبود الواحد في مرآته. ولكن مولاكم الحكيم قد نزّهكم عن تعدّد تلك الصور في توحيد ذاته، وجعلكم أمّة واحدة، ولذلك أبدعكم، فسيروا ولا تتفرّقوا شيعًا، وأنتم تنظرون يا أيّها الذين وحّدوا ذواتهم في أنفاسهم»[1].

إذا كانت الحقيقة في جوهرها واحدة، والروح الساكنة في أعماق كلّ جسد من مصدر واحد، فيجب أن نعترف ونقول بأنَّ لا فرق ولا تفريق بين إنسان وآخر إلاَّ من حيث المعرفة والنشاط وما دام الهدف واحد، فمهما تعدّدت الطرق والسبل يبقى الكثير من النقاط والأفكار التي تتوافق بها هذه السبل، فالتوافق بين الدين والعرفان واضح وصريح وفي هذا التوافق يقول جنبلاط:

«ونرى لزامًا علينا، في نهاية هذه الكلمة، أن نوضّح تثبّتنا ويقيننا،

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٢٧.

أقوى فأقوى، من أنَّ الدين والعرفان الذي يبطّنه ويتضمّنه هذا الدين في طرق الموحّدين ومسالك الحكماء والعارفين يتوافقان ويتكاملان دائمًا وأبدًا في جميع الأمكنة وعبر العصور. وهما من معين الوحي ذاته، أو الدين، وجه منعكس، في معتقد العامّة وفي الشريعة، من ذاك العرفان الأصيل، على قدر ما تستوعبه توجّهات العقول وبصائر القلوب. ولا يتمّ في الظاهر عرفان إلاَّ بالاستناد والارتكاز إلى محتوى كتب الشريعة، الظاهر والباطن منها، وفي الحفاظ على سننها وفروضها وتكاليفها المعنوية، وحتَّى الظاهر منها ـ لكي يتوافق نهج التصرّف والتفكير والعاطفة مع واقع الصدق الداخلي. ولا توحيد بدون الصدق وحتَّى التكاليف الجسدية الظاهرة تصحّ ممارستها ويتوجّب معنويًّا ذلك، لكي لا يكون الإنسان في ذلك على الأقلّ موضع اتّهام أو شبهة أو مثلاً سيّئًا بالنسبة إلى الآخرين، المؤمنين وغير المؤمنين»[1].

للقلب عند المتصوّفة نفحات من الوجد والأشواق، حيث تنغمس المشاعر بأنوار الحقيقة فتفيض السعادة والأفراح على هذا القلب أو ذاك، فيسطع هذا النور على العقل والفكر، فتخرج الكلمات على اللسان لتعبّر بأجمل الأبيات ما جال في القلب والخاطر يستشهد كمال جنبلاط بابن عربي حيث يقول: «وقديمًا اتّهم خطأ الشيخ محي الدين ابن عربي، قدّس الله سرّه، بوحدة الوجود، وبشيء من مثل ذلك. إنَّما كلّ هذه التعابير هي في لغة المجاز ومعنى الدلالة وقصد الإشارة لا أكثر وهو القائل:

شمس الهوى في النفوس لاحت ... فأشرقت عندها القلوب

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٢٥.

الحبّ أشهى إليَّ ممَّا يقوله العارف اللبيب
يا حبّ مولاي لا تولَّ عنّي، فالعيش لا يطيب
ولا أنس يصفو للقلب إلَّا إذا تجلّى له الحبيب

وله أيضًا هذه الأبيات المعبّرة الجميلة:

النار تضرم في قلبي وفي كبدي شوقًا إلى نور ذات الواحد الصمد
فجد علي بنور الذات منفردًا حتَّى أغيب عن التوحيد بالأحد
جاد الإله به في الحال فارتسمت حقيقة غيّبت قلبي عن الجسد
فصرت أشهده في كلّ نازلة عناية منه في الأدنى وفي البعد»[1]

وفي الوجد الإلهي، والتصوّف الجميل يقول جنبلاط:

«احترقت بالنار
نفسي
لم يبقَ شيء منها،
حتَّى ولو
رماد»[2].

هذا هو التصوّف في فكر جنبلاط، وهذا ما يذهب إليه العارفون والموحّدون جميعًا من تنزيه وتجريد وتوحيد. إنّها السبل التي يختارها المؤمن للارتقاء والارتفاع فوق كلّ الصغائر، متّخذًا المعرفة سلاحه الأقوى للولوج والتعمّق في مكنونات وأسرار الوجود، متّخذًا وجه

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص ص. ٢٠١ ـ ٢٠٢.
(٢) م.س، السلام، ص. ٧٦.

الحقّ الهدف الأول والأخير مدركًا إدراكًا لا يخالطه شكّ ولا ريب أنَّ السعادة التي يتمنّاها أبناء البشر كافّة هي مطلبه والسلام الداخلي رائده ومريده الأخير. يعلم المتصوّف أنَّ الدنيا تتقلّب ألوانًا ألوانًا، تغري الناس، وتخدعهم فتُعمى بصائرهم عن النور الحقيقي فيعيشون وهم أموات، ويجتمعون وهم أشتات، تابع الدنيا خاسر ولا يستطيع الوصول والولوج في مكنون السرائر لهذا جاء في القرآن الكريم: ﴿وفي نفوسكم أفلا تبصرون﴾، وهذا ما يميّز العارف والمتصوّف والمتحقّق عن باقي البشر، وفي توجّهه باتّجاه الحقّ أضاء داخله، وتفتّح وعيه وأشرقت نفسه كالذهب الصافي، فثبت في اليقين وتعدّى الأديان وأصبح بلا حدود، حيث إنَّ الوجود كلّه واحد، والإله واحد والأنفس البشرية مرجعها واحد، فهنيئًا لمن استفاق من سباته العميق، وأدرك يقظته وتوجّه إلى الحقّ ليكون من أرباب الحقيقة العارفين الفانيين في أنوار قدسه ومجده.

# كمال جنبلاط وابن عربي

كمال جنبلاط الذي وجد إلهًا واحدًا في الوجود، في الأديان، في العرفان الصوفي، واتّبع الآية القرآنية التي تقول ﴿فأينما تولوا فثمَّ وجه الله﴾. هو الموجود في الظاهر وهو الساكن في الباطن المكنون حاوي أسرار الوجود والكون كلّه، وعندما يصل العارف إلى الدرجات السامية، من الرقيّ والتطوّر الداخلي نراه لا يختلف عن غيره من العارفين والمتصوّفين، وهذا ما يجعلنا نتأكّد بأنَّ الهدف واحد، وعندما يصل العارف إلى هذه المرتبة، يصل إلى الحكمة التي لم ولن تتغيّر منذ الأزل وإلى الأبد، فيتلاقى العارفون في الوحدة الأزلية، حيث تنحلّ جميع العقد والازدواجيات، ويغرقون في نعيم الأنوار السرمدية.

هكذا نجد التقارب كبيرًا بين المتصوّفة، ومنهم ابن عربي وكمال جنبلاط، حيث استشهد جنبلاط بأبياته الجميلة التي تعبّر عن الأشواق وعن اللحظات والمؤنسة التي يأنس لها القلب ويتجلّى فيها الحبيب.

### أ ـ في وحدة الوجود

يتّفق الرجلان على حقيقة الوجود الواحدة الأزلية، وإنَّ لفظة "كن فكان" كما وردت في القرآن الكريم للوجود، أيضًا يراها جنبلاط في الفيدا الهندية في لفظة أوم، فيؤكّد أنَّ الحقيقة في الكون واحدة ثابتة لا تتغيّر، فأيّ معرفة جليلة عظيمة، هي حقيقة أزلية، إن كانت في القرآن الكريم أو الإنجيل المقدّس أو الفيدا الحكمية القديمة أو غيرها من الكتب السماوية.

يقول ابن عربي: «فأول كلمة تركّبت: «كُن!» وهي مركّبة من ثلاثة أحرف كاف وواو ونون. وكلّ حرف (منها مركّب) من ثلاثة. فظهرت التسعة، التي جذرها ثلاثة. وهي أول الأفراد وانتهت بسائط العدد، بوجود التسعة من «كنّ» فظهر بـ«كن!: عين المعدود والعدد ومن هنا كان أصل تركيب المقدّمات من ثلاثة، وإن كانت في الظاهر (هي مركّبة من) أربعة: فإنَّ الواحد يتكرّر في المقدّمتين، فهي ثلاثة. وعن «الفرد» وجد الكون لا عن «الواحد»»[1].

أمَّا جنبلاط فيقول:

١ـ أوم[2]. برهمان[3] أول من اتّخذ له شكلاً بين الألهة. صانع الكون، وحافظ العالم، أوضح لاترفا ابنه الكبير علم البرهمان مرتكز جميع العلوم.

٢ـ علم البرهمان هذا الذي أظهره برهمان لأترفان، أترفان نقله فيما مضى لانجير الذي أوضحه بهاردفاجا ستيافاها وبهاردفاجا ستيا فاها لقنه لانجيراس (في وجهيه العلوي والسفلي).

٣ـ اقترب سوناكا، المعلّم الكبير للبيت، من انجيراس حسب القواعد وسأله: «ما هو، أيها الجليل، هذا الذي إذا ما علم أفضى إلى علم كلّ ما هو كائن؟».

(١) محي الدين، ابن عربي، الفتوحات المكّية ـ الهيئة المصرية العامّة للكتاب، ١٩٧٤، ص. ٩٠، السفر٣.

(٢) هو لفظ يرمز إلى الكلمة الأولى التي انبثقت منها الخليقة، وإلى الصوت الأزلي المبدع والنغم الفريد النابض في صميم الكون، ويسمعه المتصوّف المقترب من الله عندما يشرف على بحر البرهمان.

(٣) بمعنى الخالق، مظهر الكون من العدم.

٤ـ أجابه: "علمان يجب معرفتهما، ذاك ما كان يقوله لنا الذين يحيطون بعلم البرهمان، علم علوي وعلم سفلي".

٥ـ السفلي هو الريغيفدا، أو اليجورفيدا، والسمافيدا، والأطهرفافيدا، وعلم الصوت، والطقوس، والصرف والنحو والإتيمولوجيا (علم الأصول) وعلم القياسات (المتريك) وعلم الفلك، أمَّا العلم العلوي فهو العلم الذي يدرك به اللاهالك (الذي ليس بهالك)[1].

**ـ في العقل الأول**

يتّفق ابن عربي وجنبلاط أنَّ أول ما أبدع الله سبحانه وتعالى أو تكرّم بوجوده هو العقل الأول أو العقل الأرفع، بحيث يميّز جنبلاط بين العقل الذي يدرك ويحلّل أمور المحسوسات والأفكار وبين العقل الأرفع والذي هو هذا الفيض اللطيف النوراني أمَّا ابن عربي فيسمّيه الحقيقة المحمّدية، والإمام المبين، وهذا لا يمكن التوصّل إليه إلاَّ بالقوّة الروحانيّة. ففي هذا المقام يقول ابن عربي:

"مسألة ـ ١٠ ـ فأول موجود ظهر مقيّد فقير، موجود يسمّي العقل الأول ويسمّى الروح الكلّي ويسمّى القلم ويسمّى العدل ويسمّى العرش، ويسمّى الحقّ المخلوق به، ويسمّى الحقيقة المحمدية، ويسمّى روح الأرواح، ويسمّى الإمام المبين، ويسمّى كلّ شيء، وله أسماء كثيرة، باعتبار ما فيه من الوجوه، وهو على نصف الصورة المعلومة عندنا سمعًا وكشفًا في وجهٍ وعلى الصورة في وجهٍ آخر على حسب ما يقع

(١) م.س، الحياة والنور، ص. ١٧.

تجلّيه، لأنَّ العالم كلّه على الصورة، والإنسان من العالم على صورة العالم، فهو على الصورة، والروحانيّات أقوى على الكمال من عالم الأجسام لاستعدادهم الأكمل، ولهذا يرغب البشر في تحصيل القوّة الروحانيّة بالطبع.

فمنهم من وصل، فكمل، ومنهم من لم يصل لموانع عرضية وأصيلة في هذا الدار، وأمَّا في الدار الآخرة، فالكلّ يصل إليها ويقع الامتياز بينهم بأمور آخر ترجع إلى الصورة التي يدخلون فيها [1].

أمَّا جنبلاط فيقول: "(...) لأنه، في النهاية، وفي الحقيقة، لا ولاية على الموحّدين ولا على الأنام كافّة إلاَّ للعقل الأرفع، صلوات المهمّين عليه: "إنّها النفوس اطمأنّت بسلام نار قدسيّتها العليا بجمال كمال إنسانيّتها".

أمَّا العقل الذي نعني فليس هو العقل في المعنى العادي للكلمة، أي هذه الوظيفة التي تمكّن من القياس والمقارنة والتمييز...

إنَّما العقل المقصود هو العقل الأرفع، هذا الفيض اللطيف والصورة البسيطة النورانية المتجلّية في كلّ حين، وهذه الأداة الإشراقية الرفيعة This supreme organon، على حدّ تعبير بعض الحكماء الأصيلين، والتي ترجع أحكامها، وتعود في تقييم موازينها واستنتاج تمييزها وتحليل تجريدها وفصلها ووصلها وقطعها، إلى الحقيقة السرمدية ذاتها الكامنة في عين نفوسنا واختباراتها وتنزل منها...

(١) محي الدين، ابن عربي، رسائل ابن عربي، الطبعة الأولى، دار صادر: ١٩٩٧، ص. ٣٩٥.

ولا تكون ولاية ولا تقوم هداية ولا تستوي إمامة روحية أو زمنية إلاَّ بالاسترشاد بفيض هذا النور الأول وتنزّلاته في بيوت قلوبنا وفي معارج هذه النفس الشريفة التي أبدعها من نوره، كقبس منبعث من الشعلة الجوهرية السرمدية، لا تنفصل عنها وإلاَّ ضلّت وأمحقت ولحقها العدم»[1].

## ب ـ وحدة الأديان

### ـ في مكانة المسيح الروحانيّة

يؤكّد ابن عربي ما جاء في القرآن الكريم بأنَّ المسيح عليه السلام هو الروح المتسامية وهو روح القدس الذي أيّده الله بها وهو روح طاهرة متنزّهة من دنس الأكوان. وأيّده بقوى عظيمة يشفي الأسقام ويحيي الموتى. وهذا ما يراه جنبلاط بأنه الجسر الذي يوصل العقل بالذات، وبأنه «الإنسان الإلهي» ككلّ رسول ونبيّ وفي هذا المقام يقول ابن عربي:

«ولمّا كان عيسى ـ عليه السلام! ـ روحًا، كما سمّاه الله ـ وكما أنشأه روحًا في صورة إنسان ثابتة، أنشأ جبريل في صورة إعرابي غير ثابتة ـ فكان (عيسى ـ ع) يحي الموتى بمجرّد النفخ. ثمَّ إنَّه أيّده (الله) بروح القدس: فهو روح، مؤيّد بروح طاهرة. من دنس الأكوان. والأصل في هذا كلّه: «الحيّ الأزلي»: عين الحياة الأبدية. وإنَّما ميّز الطرفين ـ أعني الأزل والأبد ـ وجود العالم وحدوثه، الحيّ. وهذا العلم هو المتعلّق بـ«طول العالم» أعني العالم الروحاني، وهو عالم

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١٩٠.

المعاني والأمر، ويتعلّق بـ«عرض العالم» وهو عالم الخلق والطبيعة والأجسام. والكلّ لله «(ألا له الخلق والأمر) (قُلْ: الروح من أمر ربّي) (تبارك الله ربّ العالمين)»[1].

«عيسى روح الله وكلمته، والرسل خلفاء الله في الأرض فهم موضع نظر الحقّ ومحلّ المعرفة وأصحاب الولاية فاعرف قدرك»[2].

أمَّا جنبلاط فقد قال في المسيح عليه السلام:

«ولادة يسوع، كولادة البوذا السعيد وكولادة كلّ «إنسان إلهي» وكلّ رسول، ما أبهاها وأروع معنى النعمة فيها كالندى الذي يزور الأرض المتعبة العطشة من حين إلى آخر ليبرّدها وينعشها ويحييها ولو إلى وقت سيظلّ يسوع هذا الجسر بين العقل والذات، يولد في نفوسنا وتبرز بولادته روح العدالة ونفحة المحبّة والحنان والقوّة، سيظلّ مصلوبًا يتطلّع إلينا ـ لو صحّ له ذلك. من شرفة قمّته، كذلك كلّ رسول وكلّ نبيّ وكلّ من شاء القدر أن يكون صلة بين الناس والمعرفة...»[3].

ـ وُلدت الأديان السماوية لتدلّ على حقيقة ثابتة لا تتغيّر، ووُلد الإنسان ليتعرّف على خالقه، وبالمعرفة تكمل الحياة، وبالمشاهدة تحصل المعجزات والأفراح والسعادات التي تتوق إليها كلّ نفس. والله من واسع رحمته يمنّ على عبده بكرامات يستكشف بها أمور غريبة. فعن هذا الموضوع تحدّث جنبلاط وابن عربي.

---

(١) م.س، الفتوحات المكّية، سفر٣، ص. ٩٤.

(٢) م.س، رسائل ابن عربي، ص. ٢٨٨.

(٣) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٩٦.

قال ابن عربي: «(...) ولست أعني بالكرامات إلاَّ ما ظهر عن قوّة الهمّة. لا أني أريد بهذا الاصطلاح، في هذا الموضع، «التقريب الإلهي» لهذا الشخص، فإنّه قد يكون ذلك استدراجًا ومكرًا. وإنَّما أطلقت عليه اسم «الكرامة» لأنه الغالب، «والمكر» فيه قليل جدًّا. فهذا المنزل مجاور آيات الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وهو العلم الجزئي في علم الكون. لا يجاور «السحر»: فإنَّ «كرامة الولي» وخرق العادة له إنَّما كانت باتّباع الرسول، والجري على سنّته. فكأنها من آيات ذلك النبيّ، إذ باتّباعه ظهرت للتحقّق بالاتّباع. فلهذا جاورته.

ولمّا عاينت هذا المشهد، قلت القصيدة التي أولها:

تنزلت الأملاك ليلاً على قلبي ودارت عليه مثل دائرة القلب
حذارًا من إلقاء اللعين إذا برى نزول علوم الغيب عينًا على القلب
وذلك حفظ الله في مثل طورنا وعصمته في المرسلين بلا ريب[1]

أمَّا جنبلاط في هذا الموضوع يقول: «عندما نتحدّث عن الغيبيّات التي تتضمّنها المعتقدات الدينية والمسالك العرفانية والصوفية ونهزأ بالمتعلّقين بها أو نتصوّر، من وجهة سطحية العلم التطبيقي الدارج العادي، بطلانها، بدون تمحيص ولا تدقيق ولا إمعان في المعرفة، يغيب عن بالنا أنَّ العلم الحديث، وفي جميع أنحاء العالم المتمدّن، قد حطّ بنا الرحال ونفذ بنا في مسيرته الأخيرة إلى موطن من الرموز والأحاجي يصعب على الفكر تصوّرها أو حلّها، هي أيضًا أقرب إلى الغيبيّات الدينية من أية نظرة عقلانية عادية للوجود.

(١) م.س، الفتوحات المكّية، السفر٣، ص ص. ٤٢٥ ـ ٤٢٦.

فعند حدود الفكر وارتطامه بصخور النسبيّة وعقبات الكيفيّة الدينية ومدارات انغلاق العلاقة بين الشخص المدرك والغرض المدروك، ينظر العرفان ليكمّل معرفة الأشياء ويكشف عن حقائقها وماهيّاتها وجوهرها، بأداة مستكشفة أخرى، أرفع وأرقى وأقرب إلى استيعاب اللطيف الباني مكوّنها، هي العقل الكلّي أو الأرفع»[1].

**ـ في المشاهدة**

المشاهدة العظمى لا يمكن أن تتحقّق إلاَّ بالولوج في السرّ الموجود داخل الإنسان، وهذا السرّ قال عنه المسيح (موتوا لتحيوا بي) من آمن بي وإن مات فسيحيًّا. وهذا ما قاله ابن عربي فإنَّ الله تعالى لا يعرف إلاَّ بهذا السرّ، وهذا فيض ورحمة من الله على عبده، وهذا ما يقوله جنبلاط إنَّ هذه النفس عندما تتجرّد من الأنانيّة فلا يبقى فيها إلاَّ قبس الجمر الذي يعود إلى الشعلة التي انطلق منها. قال ابن عربي: «إذا تحلّل الإنسان، في معراجه إلى ربّه، وإنَّ كلّ كون منه، في طريقه، ما يناسبه، لم يبقَ منه إلاَّ هذا «السرّ» الذي عنده من الله، فلا يراه إلاَّ به وإذا رجع الشخص من هذا المشهد وتركّبت صورته التي كانت تحلّلت في عروجه وردّ العالم إليه جميع ما كان أخذه منه ممّا يناسبه، فإنّه كلّ عالم لا يتعدّى جنسه، فاجتمع الكلّ إلاَّ هذا «السرّ» الإلهي، واشتمل عليه، وبه سبّحت «الصورة» بحمده، وحمدت بها، إذ لا يحمده سواه. ولو حمدته «الصورة» من حيث هي، لا من حيث هذا «السرّ» لم يظهر الفضل الإلهي ولا الامتنان على هذه «الصورة». وقد ثبت الامتنان له (تعالى) على جميع الخلائق، فثبت أنَّ الذي كان من المخلوق الله من

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٣١٢.

التعظيم والثناء، وإنَّما كان ذلك «السرّ» الإلهي. ففي كلّ شيء من روحه؛ وليس شيء فيه. الحقّ هو الذي حمد نفسه وسبّح نفسه، وما كان من خير إلهي لهذه «الصورة» عند التحميد والتسبيح، فمن باب المنطق لا من باب الاستحقاق الكوني. فإن جعل الحقّ له استحقاقًا، فمن حيث إنَّه أوجب ذلك على نفسه[1].

يقول جنبلاط: «من هنا ترقّى العارفون من حضيض المجاز إلى يفاع الحقيقة واستكملوا معراجهم، فرأوا بالمشاهدة العيانية أنَّ ليس في الوجود إلاَّ الله تعالى، وإنَّ ﴿كلّ شيء هالك إلاَّ وجهه﴾، لا أنه يصير هالكًا في وقت من الأوقات، بل هو هنالك، أزلاً وأبدًا لا يتصوّر إلاَّ كذلك، فإنَّ كلّ شيء سواه إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض، وإذا اعتبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأول الحقّ رؤي موجود إلاَّ في ذاته ولكن من الوجه الذي يلي موجوده، فيكون الموجود وجه الله تعالى فقط. فلكلّ شيء وجهان، وجه إلى نفسه، ووجه إلى ربّه، فهو باعتبار وجه نفسه عدم وباعتبار وجه ربّه موجود. فإذن لا موجود إلاَّ الله تعالى وجهه. فإذن كلّ شيء هالك إلاَّ وجهه أزلاً وأبدًا[2].

قال جنبلاط: «النهج أو الطريق المباشر الذي يقصد التعرّف إلى الحقّ تنزّه وتعالى عن كلّ تنزيه واعتلاء من خلال الإنسان ذاته، ومن معراج الروح الإنسانية التي يسكنها الحقّ تعالى، أو الأتمان العظيم كما يسكن هذا العالم بأسره، إذا استطعنا القول، وينيرها كما ينير كلّ ذرّة من ذرّاته. «إعرف نفسك» على حدّ ما كان منقوشًا على مدخل هيكل

(١) م.س، الفتوحات المكّية، السفر٣، ص. ٩٣.

(٢) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٠٤.

«دلف» الشهير في اليونان الحكماء الأقدمين وفي حقيقة ما يعبّر عنه الشاعر في قوله:

دواؤك منك وما تشعر ... وداؤك فيك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر[1]

معرفة الذات هذه عبر عنها ابن عربي بأبياته الرائعة قائلاً:

«شمس الهوى في النفوس لاحت ... فأشرقت عندها القلوب
الحبّ أشهى إليَّ ممَّا ... يقوله العارف اللبيب
يا حبّ مولاي لا تولَّ ... عنّي، فالعيش لا يطيب
ولا أنسٍ يصفو للقلب إلاَّ ... إذا تجلّى له الحبيب»[2]

ويقول ابن عربي في شرح قوله تعالى: «أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله: الفقراء هم الذين يفتقرون إلى كلّ شيء من حيث إنَّ ذلك الشيء هو مسمّى الله، فإنَّ الحقيقة تأبى أن يفتقر إلى غير الله، وقد أخبر الله أنَّ الناس فقراء إلى الله على الإطلاق، والفقر حاصل منهم، فعلمنا أنَّ الحقّ قد ظهر في صورة كلّ ما يفتقر إليه، ثمَّ استمع إليه وقد صاح في أعماق قلبه صوت عاطفته الدينية التي لا تقلّ حرارتها وقوّتها عن عاطفة أيّ مؤلّه متديّن، وهو يصف الحقّ معبوده ومعشوقه متحيّرًا في كنهه، مؤتنسًا بقربه، مستوحشًا ببعده، قال على لسان العرش: أقسم بعليّ عزّته وقويّ قدرته لقد خلقني، وفي بحار أحديّته أغرقني، وفي بيداء أبديّته حيّرني: تارة يطلع من مطالع أبديّته فينعشني، وتارة يدينني

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١٨١.
(٢) م.ن، ص. ٢٢٥.

من مواقف قربه فيؤنسني، وتارة يحتجب بحجاب عزّته فيوحشني، وتارة يناجيني بمناجاة لطفه فيطربني، وتارة يواصلني بكاسات حبّه فيسكرني. وكلّما استعذبت من عربدة سكري قال لسان أحديّته: «لن تراني»؛ فذبت من هيبته فرقًا، وتمزّقت من محبّته قلقًا، وصعقت عند تجلّي عظمته كما خرّ موسى صعقًا، فلمّا أفقت من سكرة وجدي به، قيل لي يا أيها العاشق: هذا جمال قد صناه، وحسن قد حجبناه، فلا ينظره إلاَّ حبيب قد اصطفيناه»[1].

الحقيقة الصريحة والواضحة التي عبّر عنها جنبلاط في قوله بأنَّ الوجود والموجودات هي كالمرايا ليست سوى انعكاس لذاك النور وتلك القدرة الأزلية، وهذا ما نجده عند ابن عربي كذلك فإذا كانت العبادة لا تجوز إلاَّ لله عزّ وجلّ، فإنَّ المعبودات وجه من وجوهه، وهو الجوهر الأزلي لكلّ الصور.

### ـ في المعرفة الحقّة

يقول جنبلاط:«إنَّ مولاكم جعل لكلّ سبيلاً إليه في نفسه ومن نفسه، ولذلك اختلفت عقيدة كلّ نفس كما اختلفت الأهواء والأرباب، وعين حقيقتها هي الصور للمعبود الواحد في مرآته. ولكنَّ مولاكم الحكيم قد نزّهكم عن تعدّد تلك الصور في توحيد ذاته، وجعلكم أمة واحدة، لذلك أبدعكم، فسيروا ولا تتفرّقوا شيعًا، وأنتم تنظرون يا أيها الناس الذين وجدوا ذواتهم في أنفاسهم»[2].

---

(١) عفيفي، أبو العلا، فصوص الحكم، لا ط، دار الكتاب العربي، ١٩٤٧، ص. ٣٤.

(٢) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٢٧.

وهذا ما يقوله ابن عربي كذلك: «فعلى الرّغم من قوله بوحدة الوجود وتصريحه بأنَّ الحقّ والخلق حقيقة واحدة لا تمايز بينهما إلاَّ في وجوب الوجود الذي هو للحقّ خاصّة، يعبد ابن عربي ذلك الحقّ ويعشقه. ولكنَّ العبادة لها عنده معنى يختلف عمّا يفهم الناس منها عادة في العرف الديني، فالمعبود عنده هو الجوهر الأزلي القديم المقوّم لجميع الوجود، والعابد هو الصورة المنقوشة بهذا الجوهر. فكلّ صورة من الصور ناطقة بألوهيّة الحقّ، وكلّ معبود من المعبودات وجه من وجوهه. ﴿فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾، (وأيا ما تعبدوا فإنّكم لا تعبدون سواه). قال تعالى: «قضى ربّك ألا تعبدوا إلاَّ إيّاه» يقول ابن عربي: حكم وقدر أزلاً أنكم لا تعبدون غير الله مهما تكن صور معبوداتكم.

«وأرقى أنواع العبادة، وأحقّها بهذا الاسم في نظره هو التحقّق بالوحدة الذاتية بين العابد والمعبود: أي التحقّق ذوقًا بأنك أنت هو وهو أنت. أنت هو من حيث صورتك، ومن هنا كان الافتقار والإمكان: بل العدم الذاتي. وهو أنت بالعين والجوهر، فإنّه هو الذي يفيض عليك الوجود من وجوده»[1].

**ـ أسباب الغموض في التعبير**

تميّز أسلوب ابن عربي بالغموض وكثرة التعابير المجازية، والتي تبدو لبعض القرّاء غير مفهومة القصد والغاية، وكما قال كثر من الكتّاب الذين كتبوا عنه وعن مؤلّفاته، قد تكون غموض لغة الصوفية، وقد يكون تضمين العبارات معنيين ظاهر بما يشير إليه الشرع وباطن يشير إلى مذهبه. وفي هذا الأسلوب كتب أبو العلا عفيفي يقول:

(١) م.س، فصوص الحكم، ص.٣٣.

«يغلب عليّ ظنّي أنه يعتمد تعقيد البسيط وإخفاء الظاهر لأغراض في نفسه. فعباراته تحمل في أغلب الأحيان معنيين على الأقلّ، أحدهما ظاهر وهو ما يشير به إلى ظاهر الشرع، والثاني باطن وهو ما يشير به إلى مذهبه؛ ولو أنَّ من يعمّق النظر في معانيه ويدرك مراميه لا يسعه إلاَّ القول بأنَّ الناحية الثابتة هي الهدف الذي يرمي إليه، أمَّا ما يذكره ممّا له صلة بظاهر الشرع فإنّما يقدّمه إرضاء لأهل الظاهر من الفقهاء الذين يخشى أن يتّهموه بالخروج والمروق. فهو يتخيّل دائمًا وجود أعداء العلم الباطنِ ـ أو بعبارة أدقّ أعداء مذهبه ـ ويقنعهم بأساليبهم ويدعم أقواله بالآيات والأحاديث، ثمَّ يمضي في تخريج مذهبه من تلك الآيات والأحاديث، فيحاول بذلك أن يعبر الهوّة السحيقة التي تفصل بين ظاهر العقائد الإسلامية والنتائج المنطقية التي تلزم عن مذهب فلسفي في وحدة الوجود»[1].

لكنَّ جنبلاط يكتب بوضوح لماذا اعتماد الغموض واستعمال التعابير المجازية عندما تقضي الحاجة في ذلك يقول جنبلاط:

«تحظّر الكتب المقدّسة على الصديقين الروحانيين أن يتحدّثوا عن الحقيقة كما هي إلى الأفراد الذين يسيطر على فكرهم فقط (أي الزمنيين)، لأنَّ الحقيقة تتأذّى من جرّاء ذلك وتشوّه. لأنَّ أولئك الأفراد يفهمونها من مواجهة النسبية العرضية العادية التي يعيشون فيها دون سواها، فيجدون من المستحيل التوفيق بين الحقيقة وهذه المواجهة، وإذ ذاك يباشرون بالهزء بالحقيقة ذاتها، وهذا الهزء يجرّهم إلى التهلكة. فيجب أن نتجنّب مثل هذه الكارثة مهما كلّفنا الأمر»[2].

(١) م.س، فصوص الحكم، ص.١٧.

(٢) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص.١٨٤.

**ـ بين الكثيف واللطيف**

الحكمة تبقى لأهل الحكمة، والحكمة عالية جدًّا في برجها العاجي لا تنزل لأحد، ولا تتنازل عن رفعتها وكمال شأنها، فعندما يصبح هذا العقل قادرًا على الصعود وتخطّي الصعوبات الجمّة، يصل إلى مرحلة الكشف، وللكشف درجات توصّلاً إلى المشاهدة الكاملة.

الحقيقة الواحدة الخالدة الموجودة في العالم الظاهر هي نفسها الموجودة في الباطن، فكتب النوري حول هذه العوالم الظاهرة والباطنة.

إنَّ الله كثّف ذاته فسمّاها خلقًا ولطّف ذاته فسمّاها حقًّا

**وهذا القول يوافقه عليه جنبلاط حول صورة الناسوت واللاهوت.**

ويتابع أبو العلا عفيفي هذه القضيّة، فيقول:

«والقضيّة الكبرى التي تعبّر عن مذهب ابن عربي وحولها تدور كلّ فلسفته الصوفية، وتتفرّع عنها كلّ قضية أخرى، والتي ملكت عليه زمام تفكيره فصدر عنها وعاد إليها في كلّ ما قاله ما أحسّ به، هي أنَّ الحقيقة الوجودية واحدة في جوهرها وذاتها متكثّرة بصفاتها وأسمائها لا تعدّد فيها إلاَّ بالاعتبارات والنسب والإضافات. هي قديمة أزلية أبدية لا تتغيّر وإن تغيّرت الصور الوجودية التي تظهر فيها. فهي بحر الوجود الزاخر الذي لا ساحل له، وليس الوجود المدرك المحسوس إلاَّ أمواج ذلك البحر الظاهرة فوق سطحه. فإذا نظرت إليها من حيث صفاتها وأسماؤها: أي من حيث ظهورها في أعيان الممكنات قلت هي «الخلق» أو العالم فهي الحقّ والخلق، والواحد والكثير، والقديم والحادث، والأول

والآخر، والظاهر والباطن، وغير ذلك من المتناقضات التي يحلو للمؤلّف أن يكثر ترادفها. وهذا المذهب هو المذهب المعروف بوحدة الوجود. وقد قرّره ابن عربي في جرأة وصراحة في غير ما موضع من النصوص والفتوحات: ومن ذلك قوله فسبحان من أظهر الأشياء وهو عينها.

فما نظرت عيني إلى غير وجهه ولا سمعت أذني خلاف كلامه[1]

وفي هذا الموضوع يوضّح جنبلاط في أكثر من مكان، موضوع حقيقة الوجود وعالم الحواس الذي هو عالم الظلال والوهم وتبقى الحقيقة الأخيرة هي الحقيقة التي لا يعتريها زوال ولا تغيير.

يقول جنبلاط:

«وهكذا تطرح مشكلة البسيط واللطيف والكثيف في جميع المستويات، وشرعة التحوّل أو الانبثاق أو التوجّه من البسيط إلى اللطيف، ثمَّ إلى الكثيف، هي دائمًا الانحطاط، في المعنى الفلسفي والعلمي للكلمة لا في المعنى الخلقي. وهذا الانحطاط ناجم بالطبيعة عن التكوّر المحدود في الزمان والمكان، وهي مقولات فكرية كما يصفها أينشتاين وديراك وسواهما من العلماء أي حدود ـ في المعنى العرفاني للكلمة ـ لجوهر الوجود الأصيل في صوره الظاهرة وفي تشكّله المختلف والمتنوّع»[2].

«ويتابع ويكفي التنبيه والتشبيه بأن يكون هذا الوجود الظاهر بوصفه عالمًا حسيًّا لا أكثر، تمامًا كعالم الحلم بالنسبة للنائم الحالم الذي يراه حقيقة ووجود قائمًا، وإنَّما يكون كلّ ذلك من إبداع تصوّر

(١) م.س، فصوص الحكم، ص. ٢٥.

(٢) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ١٧.

حواس حلمه. أو هذا الوجود الظاهر هو، على حدّ المثال التوحيدي الفيدانتي الشهير: «يرى الإنسان شكلاً ملتويًا ومتعرّجًا في الليل البهيم فيحسبه حيّة، فيخشاه وينتفض قليلاً إلى الوراء، ثمَّ إنَّه يمعن النظر في الشيء فيدركه ـ وهو تمام المعرفة ـ إنَّ هذا الغرض الحسّي الذي بدا له حيّة إنَّما هو حبل ممدود لا أكثر. ولكن جهله لحقيقة الأمر جعله يتصوّر الحيّة في الحبل. فأين هو وهم الحيّة إلاَّ في خيال الرائي عن خطأ، وهل للثعبان المتصوّر وجود إلاَّ في جهل الناظر إليه: «فألقاها فإذا هي حيّة تسعى» فإذا حبالهم وعصيهم يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى»[1].

وهذه الحقيقة الأخيرة للوجود على إطلاقه هي التي يسعى العارفون لكشف الغطاء عنها، ليتبنّوها من خلال خدعة الحواس ووهم الفكر، فيرقون فعلاً وواقعًا من حضيض المجاز إلى يفاع الحقيقة»[2].

الحقّ، الحقيقة، الله موجود في كلّ الوجود ظاهره وباطنه، يشرح ابن عربي هذه الجدليّة التي تبدو فيها ثنائيّة وليس فيها ثنائيّة، وهذا ما يؤكّده جنبلاط بأنَّ كلّ شيء خلقه الله ومن كلّ شيء يولد الواحد الأحد لكن عند جنبلاط يعود إلى العلم حيث كلّ شيء يتحلّل ويتحوّل إلى فراغ إلى ماهيّة بلا ماهيّة وإلى طاقة بلا طاقة تتحوّل إلى هيولي لدنية أخيرة ومن هذه التحوّلات ظهر العلم، فإذا كان كلّ شيء في الوجود متحوّل ومتغيّر من حال إلى حال فلا بدَّ من أن يكون وراء كلّ هذه التحوّلات «الثابت» هو وحدة جوهر الوجود. وهذه الحقيقة الأخيرة تتولاّها الحكمة.

---

(١) القرآن، سورة طه.

(٢) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٠٧.

ففي هذا الموضوع يقول ابن عربي: «والعين الوجودية واحدة، ولكنّها تختلف بالأحكام، أي تختلف بالصور التي يحكم عليها بما يميّز كلّ واحدة منها عن الأخرى. فالصلة بين الحقّ والخلق (الله والعالم) كالصلة بين الواحد العددي وما ظهر عنه من الأعداد. فكما أنَّ الواحد العددي أوجد الأعداد كلّها ففصلته وكثرته مع أحديّة ذاته، كذلك أوجد الواحد الحقّ الكثرة الوجودية المسمّاة بالعالم ففصلته وكثرته. وكما أنَّ الواحد العددي هو عين الأعداد الظاهرة فيه، كذلك الحقّ المنزّه هو الخلق المشبّه وليس التمييز بين الخلق والخالق إلاَّ بالاعتبار، وإلاَّ فالخلق هو الخالق، والخالق هو الخلق لأنَّ العين واحدة»[1].

وفي كتاب جنبلاط «بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق» (ص. ٦٨) يقول: «إنَّ ركيزة جميع الظواهر هي واحدة وهي ذاتها. التنوّع يكون فقط في الأشياء المدروكة».

ويتابع: «من جميع الأشياء يولد الواحد الأحد، ومن الواحد تولد جميع الأشياء».

ويأتي العلم ليؤكّد الوحدة الخلقية، والوحدة الجوهرية، أو الوحدة الوجودية لجميع الظواهر، فيكشف لنا أنَّ كلّ شيء يتحوّل ويتحلّل في النهاية إلى «فراغ مليء بمكنات الوجود الظاهر» إلى ماهيّة Substance بلا ماهيّة، وطاقة بلا طاقة، إلى سكون يحتوي كلّ شيء، كأنَّ جميع بذور الأشياء والكائنات وصورها قد تجمّعت فيه، ولو لم تكن هذه الهيولي اللدنية الأخيرة واحدة، لما كان ظهر العلم، لأنَّ العلم يفترض

(١) م.س، فصوص الحكم، ص. ٣٠.

وحدة الشرائع والنواميس الطبيعية. ووحدة النواميس والشرائع الطبيعية وشمولها لجميع ظواهر التكوين تفترض وحد الركيزة الخلقية، وحدة جوهر الوجود. وهكذا فإنَّ هذه الوحدة للوجود المغلّف والحاوي والمظهر للعالم الظاهر ـ في تيّاراته الثلاثة الفيزيائية والحيّة والنفسانية ـ هي منطلق العلم، ونقطة عودته وآخر تقريره واختباره»[1].

الحكمة لا تتغيّر ولا تتبدّل، بل هي ذاتها في كلّ زمان ومكان، والفلاسفة الحكماء عبّروا عن هذه الحقيقة بطرق وأساليب متنوّعة، لكنَّ مضمون الموضوع والقصد والغاية والنهاية التي توصّلوا لها، لم تتغيّر وهي هي منذ الأزل، لكنَّ الكشف عنها لا يكون إلاَّ لمن اصطفاه الله وخصّه بهذه النعمة السرمدية، وهذا ما ذكره جنبلاط أنَّ ما يختلف عليه عالمان أو فيلسوفان أو يوغيان لا يمكن أن يختلف عليه حكيمان، لأنَّ العقل متى تخطّى محدوديّة المادّة وارتقى إلى مستوى العقل الأرفع تنحلّ كلّ التناقضات والازدواجيّات، وتصبح العقول متضامنة متكافئة، متوافقة مع بعضها البعض، لهذا قال جنبلاط بعد زيارته للهند إنّك تستطيع أن ترى أفلاطون وأرسطو بلحمهما وعظمهما هناك. والمقصود من ذلك فكما الحكمة ثابتة لا تغيّر فيها، كذلك الإنسان عندما يصل إلى مرتبة الحكماء يتساوى مع سابقيه من الحكماء.

فكما يرى ابن عربي وجود الحقّ في كلّ شيء وهو الأزليّ السرمدي يرى جنبلاط الأمر ذاته ويردّد مع النوري أبياته الشهيرة:

إنَّ الله كثّف ذاته فسمّاها خلقًا ولطّف ذاته فسمّاها حقًّا

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٦٩.

# الاختبار الروحاني ـ الصوفي
# في حياة كمال جنبلاط

كمال جنبلاط المحبّ للمعرفة، للسلام الحقيقي، كان يرغب أن يكون كالمتصوّفة الذين تركوا الدنيا لأهلها، وأفرغوا جميع رغباتهم منها، وتوجّهوا إلى حيث الحقّ بالعزلة والتنسّك والتأمّل. خاصّة بعد أن خاض معترك السياسة وحاول جاهدًا التغيير في الكثير من الأمور، لكنَّ الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، ويدرك القائد أنَّ الأمور تخرج عن القدرة الذاتية، لأنَّ التغيير يجب أن يواكبه مساعدون مقتنعون بأفكاره، وإذا كانت الأكثريّة تذهب باتّجاه معاكس تصبح الأمور أشدّ استعصاءً. لكن وعلى الرّغم من كلّ الصعاب كان عليه أن يتابع المسيرة حتَّى ولو أدّى ذلك إلى الشهادة، فطريق العمل توصل كالعزلة والتنسّك. هذا ما تؤكّده الاستاذة نهاد أبو عيّاش حيث تقول:

«رغب جنبلاط بالاستقرار في هذا الذي عرفه علمًا يقينًا، لكنَّ معلّمه ـ أتمانندا ـ شجّعه على البقاء في ما قدّر له من عمل قائلاً: «ألحظ ميلاً لديك لاعتزال العمل والاستقرار بالحقّ، ولكن إنَّ كليهما يفضيان إلى المطلق، تشجّع وإن أوصل العمل إلى الموت، فالأنا الحقيقية لا تموت ولا تفنى» ممّا يعني أنَّ جنبلاط مرسل مكلّف بالإنقاذ»[1].

(١) م.س، شجرة الجوز، ص. ١٨٠.

وهكذا عمل جنبلاط بنصيحة معلّمه حيث قال: «فلا يمكن الترفّع فوق الزمان والاجتماع إلاَّ بالولوج فيهما والغوص في أعماقهما»[1].

لم يستطع جنبلاط، ولأسباب فوق طاقته أو مقدرته، إلاَّ أن يخضع لقدره وأن يغوص في العمل الاجتماعي والسياسي ولكن ليس على نقيض القيم الروحانيّة والصوفية، وإنَّما حاول أن يزرع تلك القيم في الحياة اليومية، وهو موضع تميّز كمال جنبلاط وصعوبة خياراته، بل وجد في العمل بين الناس، وللناس الكثير من الدين والعبادة، وحتَّى التصوّف. حظي مفهوم العمل عند جنبلاط بالتقدير فالإنسان لا يتحقّق وجوده إلاَّ بالعمل، وأجمل الأعمال وأبهاها هي التي تكون كاللعب يحمل المتعة دون النظر أو التطلّع إلى مصلحة وغاية ذاتية ضيّقة حينها يتحوّل التعب إلى فرح، إلى طاقة، إلى محبّة، ولا يمكن أن تتمّ الحياة وتكتمل دون المحبّة والتضحية بالأنانية والمصالح الشخصية، أمَّا رأي جنبلاط بالعمل فهو:

«العمل شرعة الحياة ونبالتها، من يستطيع أن يعمل ولا يعمل لا يحقّ له أن يأكل.

الكون من حيث جميع كائناته لا سكون فيه، ولا خمول، بل حركة دائمة. العمل في أعماق تصميم هذا الكون وقصده. والإنسان جزء من هذا الكون، والعمل متمّم للطبيعة البشرية، ولطبيعة الكون. العمل ينمّي مواهب الإنسان، ويحقّق طاقاته الكامنة، ويصقل الشخصيّة، ويصفّيها عبر رحلة الإبداع. ويؤكّد جنبلاط على أنه على قدر ما نعمل

(1) kamal Jumblat - Démocratie nouvelle, éd. Du PSP Beyrouth 1956, p. 5.

نلقى، فالنتيجة هي وليدة الجهد، كما أنَّ المسبّب هو وليد السبب: لا يستطيع إنسان أن يهرب من نتائج أعماله حتَّى ولو استوطن الكهوف العميقة في الأرض، أو تغلّف الجبال، فالأعمال تنعكس على الذات. ومن هذا المنطلق يكتسب العمل القدرة على تنقية النفس وتصفيتها كما أنَّ الأفعال السلبية، «كحمامة الدار» ترتدّ إلى أماكن انطلاقها، فهي ارتداد على صاحبها في النهاية.

فرح العمل أن يكون كاللعب نقوم به بروح الفرح دائمًا أبدًا، واللعب في الحقيقة هو سرّ كينونة الحياة، وعلامة انتصارها، وهو كلّ نشاط عفوي لا ترتبط به رغبة أو غاية. فكلّ عمل محرّر من الغائية، ومن هاجس الربح والخسارة، ومن التباهي، هو تحقيق لهذه العفويّة. ويعتبر جنبلاط أنَّ كلّ ما يبذل نشاطًا من هذه الحياة هو يعمل لفرح العمل، فرح العمل هو المطلب الأساسي للتكوين العمل البشري أيًّا كان لونه هو أضخم مطرقة نستطيع أن نضعف بها أنانيتنا على سندان الحياة، وأن ننقّي فينا بواسطتها شواعر الإخلاص والتجرّد، والقوّة المعنوية، والتطلّع إلى الأفضل. وهل النبالة سوى هذه الصفات التي يحقّقها العمل»[1].

عاش جنبلاط خلال حياته، روحانيّة سامية متعالية على الصغائر متواضعة، متعمّقة في حبّ الخالق والطبيعة، ووجد أجمل العيش وأهنأه بالحياة البسيطة التي تميل إلى التقشّف والزهد، في المأكل والملبس، والمفروش. كتبت في هذا المقام الدكتورة أبو علوان: «الأكل؛ إيفاء حاجة لا أكثر. يرتكز على منتوجات طبيعية طازجة من خضار وبقول

(١) م.س، شجرة الجوز، ص ص. ١٠٠ ـ ١٠١.

وبيض بلدي وحليب ومشتقّاته؛ الحلو من مصادره الطبيعية: دبس، عسل وفواكه مجفّفة. الدواء من الأعشاب، وأفضلها عشب القمح، والصحّة قوامها تمارين الصباح والتنفّس العميق... أمَّا الملبس: روح منتصرة كبيرة بذاتها، فلماذا المظاهر فما ضرّه إن كانت أوروبية الصنع باهظة الثمن، ذات تعريف عالمي، أو بسيطة، حياكة وخياطة وطنية، مصرًّا على ارتدائها رافضًا بديلاً لها، وما همّه جديدها أو قديمها أوليست نظيفة وهذا الأهمّ؟...

أمَّا غرفته، فكانت لا مظاهر بذخ فيها ولا رياش. هي أشبه بغرف القرية القديمة جدًّا، افترشت الأرض ببساط بلدي وحصيرة يعلوها فراشه، في أرجائها أكثر من كتاب مفتوح تزامنت قراءتها وأوراق حُبَّر بعضها والأخرى بالانتظار، وقرطاسيّة ونشرات وأوراق، إبريق من الفخّار، مدفأة على الحطب، شموع، وبخّور هندي تعبق به الأجواء، جوّ معبّد تدخله خاشعًا وتخرج منه مليئًا بالنعمة»[1].

هكذا طبّق جنبلاط الحياة الصوفية على نفسه مراقبًا ذاته في شتّى الأمور صغيرها وكبيرها، ومن خلال هذه الذات المتسامية توجّه إلى الناس كلّ الناس، مساعدًا، مربّيًا، مرشدًا، معلّمًا، قائدًا، حاملاً أفكار وأخلاق وآداب عظماء الرسل والأنبياء، والفلاسفة الذين مرّوا على هذه الأرض، وكانوا خير قدوة ومثال لكلّ البشر. فبرزت روحانيّته بأعماله وتصرّفاته وفي خدماته الجمّة التي قدّمها لكلّ سائل ومحتاج دون منّة أو ازورار. بل على العكس من ذلك كان يقدّم خدماته بكلّ حنان ومحبّة وفرح كبير.

(١) م.س، شجرة الجوز، ص ص. ١٤٤ ـ ١٤٥.

تقول سيِّدة كريمة عملت في القصر لعقود: «كان كمال بك رؤوفًا بنا، متعاطفًا يتحسّس معاناتنا ويرعى شؤوننا، وكنت أُضطرّ لاصطحاب صغيري معي، أتركه يلعب في الفسحة الخارجية ريثما أنجز عملي، وذات يوم أسمع بكاءه فأندفع إليه بسرعة لأجد المعلِّم قد سبقني برفعه عن الأرض ويغسل وجهه...

ويحدّث آخر، وهو لا يزال في الدار عاملاً: تغيّر الطقس، فجأة في إحدى الليالي، وعصف وأمطر، فأشعر بيد حنون تثبّت الغطاء عليّ خوفًا من قساوة الطقس، أفتح عيني لأرى الوجه الحبيب، أمامي الذي عوّدني وزملائي على عطف يفوق عطف الأبّ على بنيه...»[1].

كان جنبلاط همّه الناس جميعًا دون تفرقة أو تمييز، فلا يكاد يتسنّى له فرصة إلاَّ ويستغلّها سائلاً وواضعًا نفسه وطاقاته في خدمة الآخرين وهذا ما حصل عندما توقّف أمام بائعة صعتر يشتري منها ويسأل عن أوضاعها.

«مرافق له يروي: لم يكن المعلِّم ضنينًا بوقته الثمين على باعة فقراء يتوزّعون مفترق الطرق، يحدّثهم يشتري منهم وننصرف. وحدث أن تبادل حديثًا مطوّلاً مع بائعة صعتر، فدبّ فينا الملل وسألناه كيف يجالد ويعطي الوقت والمشاغل كثيرة؟ فأجاب: كيف لي التعرّف على أوضاعهم وأساليب معيشتهم بإغفالهم، وكم عمل على تحسين أوضاعهم.

(١) م.س، شجرة الجوز، ص. ١٧٣.

أيضًا صديق له يخبر أنه لم يتحمّل إذ رآه يومًا يحمل سطلين مليئين بالماء صعودًا إلى خلوته في ظهر الشكارة، فيعترض والمعلِّم مصرّ مواجهًا: ولمَ لا ما دمت قادرًا على ذلك؟ فيسأله الصديق بحمل واحد منهما، فيبتسم بالاثنين معًا توازنًا.

وإذ يبدي امتعاضه ـ الصديق طبعًا ـ يعلن المعلِّم رفضه بالقول: «إنّك تأبى عليّ مثل هذا العمل، ألا تعلم أنَّ التواضع رفعة من الله».

هذا القلب العامر بالحبّ، بالحنان، بالعطف لا يعرف مستقرًّا له إلاَّ بالعطاء الدائم، وأمتع اللحظات لديه مجالسة الناس كلّ الناس الفقراء قبل غيرهم الفلاّحين، العمّال الكادحين، والأسئلة تبدأ وقد لا تنتهي، منهم ما كان يستفيد من التحدّث إليهم ومعرفة أمور ربّما كان يجهلها، وقد تكون للتقرّب والتودّد إليهم وكي يروا فيه واحدًا منهم لا ابن طبقة أرستقراطية هم ليسوا بمستواها. هذا الاهتمام لم يكن مقتصرًا على البشر والإنسان دون سواه، بل كان يشمل كلّ الكائنات من صغيرها حتَّى كبيرها، كان رؤوفًا بها، يرفق عليها. ومن أفعاله: نادرتان وردتا في كتاب الأستاذ راجي عشقوتي «٢٥ سنة مع كمال جنبلاط»:

ـ قيل له عن ناسك زاهد يسكن مغارة على شاطئ البحر، قرب الحمّام العسكري، وصدف أن كنّا نمرّ من هناك، أوقف السيارة على الكورنيش وبدأنا نفتّش عنه حتَّى عثرنا عليه... أبيض الشعر وفي سنّ متقدّمة، وسعيد في مغارته؛ أخبرنا أنه يعيش ممّا يحصل عليه من طعام الصدقة. جالسه كمال جنبلاط، واستمع إليه مطوّلاً، وطمأنه بأن يبعث إليه بطعام، ولا ينساه، وظلّ يفي بالوعد إلى أن عرف أنَّ الزاهد قد ترك المغارة.

وعن رفقه بالحيوان قال عشقوتي: «وصلنا قصر المختارة، دفع باب جناحه ليدخل، وإذا بالكلب يقوم متثاقلاً... يعرج... اهتمّ به وانحنى يتفقّد قدمه، ولم يقبل أن يترك إلاَّ بعد أن وضعه في عهدة أحد مرافقيه يتكفّل أمره ويجبر كسره»[1].

وأيضًا عن رفقه بالحيوان والحشرات. عرف عنه أنه يصحو باكرًا ويذهب للغطس في نبع مرشد في المختارة، وعندما وصل وأراد النزول إلى الماء، وجد نملة تتخبّط كانت قد سقطت في الماء البارد، فحملها ووضعها على الأرض وقال: «اليوم أنقذنا روحًا».

أخبرني ابن أحد الفلاّحين الذين كانوا يعملون في أراضي وحقول آل جنبلاط، أنَّ كمال جنبلاط أتى ذات يوم في وقت الغداء، وقال للمراقب المسؤول كي يوقف العمل، ويجلس الفلاّحون للغداء، فأمر المسؤول بذلك لكن ما من أحد منهم كان يجرؤ على فتح زاده لأنَّ الحاجة والعوز كانا سيِّدي الموقف حينها، ففتح جنبلاط زاده والذي كان مثل زاد الفلاّحين خبز شعير وبصل، في تلك اللحظات تشجّع الفلاّحون وفتحوا زادهم وأكلوا معًا.

حبّه للإقليم وأهالي الإقليم كان كبيرًا وكان يشعر بمعاناتهم، وضيق الحال وهو كنائب للشوف، والإقليم جزء منه، كان عليه مسؤوليّات مضاعفة تجاههم وهو ما قصّرعنها يومًا. وتقول إحدى فتيات سبلين:

(١) م.س، شجرة الجوز، ص.١٧٤.

«يومها كنّا صغارًا، وكان الأساتذة يحدّثوننا دائمًا عن رجل عظيم ومخلص للشعب اسمه كمال جنبلاط. كانت المدرسة في قريتنا لا تزال صغيرة، ولم يكن قد زارها أيّ مفتّش من قبل وزارة التربية، إلاَّ أنَّ المدير كان يسعى لتحسين المدرسة وكنّا نحترمه. وذات يوم سمعنا باب غرفة الصفّ يُقرع، فجلسنا ساكتين فعندما يدخل مدير المدرسة يجب أن يكون الأولاد عاقلين... وتتابع القصة فتقول:

عندما فُتح الباب، إذا برجل عالي القامة نحيل البنية يحني هامّته حتَّى يتمكّن من دخول باب الغرفة المنخفض، ثمَّ يقف في تواضع وهدوء. ولكن في مهابة واحترام. إنَّه كمال جنبلاط. كمال جنبلاط بشحمه ولحمه. هو نفسه الذي رأينا صوره في الجرائد. جاء وحده، ومن دون موعد. سألنا عن أحوالنا، وعن الأمور التي تنقصنا، وعن معيشة أهلنا وما إذا كانوا يتضايقون من مصاريف الدراسة والكتب واللباس...

ومرّت الأيام. جنبلاط يبني لنا مدرسة جديدة، يقيم المشاريع، يوزّع الأراضي على الجميع. حتَّى على القلائل الذين تركوا القرية وانضمّوا إلى الرئيس كميل شمعون وحاربوا معه في عام ٥٨»[1].

قد يجد القارىء لكمال جنبلاط وأعماله نوعًا من المبالغة والمغالاة لكنّه «الرجل الأسطورة» الذي وصفه تيموفييف وكان عنوان كتابه. ومن نوادره، وتحسّسه مع الآخرين حتَّى على حساب نفسه في معظم الأحيان إن لم نقل دائمًا. يقول نبيل هادي: «إنَّه... كمال جنبلاط، كمال جنبلاط الذي أصرّ، في زيارته إلى باريس في خريف ١٩٧٦، على

(١) م.س، التحدّي الكبير، ص. ٧٩.

أن «يصرف» عند حلول الليل رجال الشرطة الذي كلّفتهم الحكومة الفرنسية بمرافقته وحراسته في سيّارتين حكوميتين... وذلك خوفًا عليهم من أن يأخذوا بردًا في الشارع الباريسي أثناء انتظارهم له... أصرّ هو، على النوم في شقّة صغيرة لأحد الرفاق، وعندما أفاق جنبلاط في الصباح ورأى الرفيق نائمًا عن «الصوفة» في رواق الغرفة رغم ضخامة جسمه، تأثّر وقال بعدها لنديم عبد الصمد: «يا عمّي»، انخجلت منّو على هالتواضع. نام بالبرد على «الفوتوي» وأصرّ علي أن أنام في غرفته...».

ثمَّ تبيّن أنَّ جنبلاط هو الذي نام «بردانًا» طوال الليل، «مع أنه» على السرير، وذلك لأنه لم يشأ أن يوقظ الرفيق حتَّى يحضر له غطاءًا إضافيًّا!

إنَّه جنبلاط المتواضع الإنساني، إنّها الشفافيّة التي لا توصف، وإنَّه جنبلاط صاحب الرأي الحرّ والمواقف الجريئة، والصلابة القوية التي لا تُقهر ولا تُكسر. والحياة عنده رحلة يحدّد مسارها الإنسان نفسه إذا أرادها فرحًا، عطاءً، محبّة، وتسامح،... تكون الرحلة ممتعة جميلة وإن تخلّلها بعض المشقّات، أمَّا إذا استأثرت الأنا وتوغّلت في الأعماق، كانت رحلة هذا الكائن البشري صعبة، قاسية، تحمل العذاب من كثر القيود التي يقيّد فيها نفسه وفكره ومشاعره. فالحرّية عند جنبلاط يراها في الفنّ في التأمّل في فرح العطاء ورسم ابتسامة على وجوه طالما أحبّته ووجدت فيه الأنيس والصديق والمنقذ... كتب الفنان وهيب البتديني في «محطّات وعبر لن أنساها قائلاً:

«كان يزورني باستمرار ليطّلع على أعمالي النحتية الحجرية بإعجاب وتقدير كبيرين؛ حيث زارني مرّة فيما كنت أنحت لوحة عن

فلسفة داروين، جلس بجانبي على اللوحة متخفّيًا مربّعًا ثمَّ بدأ يحدّثني فقال لي: "يا عمّي هالناس ما بيحترموا ولا بيقدروا الأعمال الفنية، بيطلّعوا عالنسر وغيره بأحذيتهم وما بيفكروا أنهم بيشوهوها، وما بيميزوا بين القبح والجمال، لازمهم شويّة توعية ودورات تثقيفية" ثمَّ بدأ يمازحني قليلاً ببعض الكلمات اللطيفة إذ قال: "أراك تبدأ برسم سمكة وتنحتها وتنتقل إلى غيرها دون تصميم ورسم سابق على الورق، أتطلّع ولا أعرف ماذا تقصد عند البداية، ولكن بعد نحتها يبان الشكل المتنوّع بين واحدة وأخرى، يعني يا عمّي الفن زعبرة"، قالها وهو يبتسم وفي داخله تكمن السعادة والتقدير الكبير للفنّ والفنّانين. كما أنه وصل ذات مرّة في جوّ بارد قليلاً، وأرسل سائقه ليجلب له وعاء من العسل وملعقة تناولها وأخذ يطعمني العسل بيده لأدفأ خوفًا عليّ من البرد والرشوحات.

ويتابع البتديني كلامه عن جنبلاط ويقول: "زرته ذات يوم صباحًا كان الباب لا يزال مقفلا، قرّرت بأن لا أطرقه خوفًا من إزعاجه، لكنّني تقدّمت قليلاً نحو الشبّاك الذي كان مشرّعًا، فكانت الشمس في غرفته، وفراشه على لوح خشبي لكنّه خال منه، عندها ألقيت نظرة إلى الداخل دون أن أشعره بوجودي، فرأيته متربّعًا على حصير وعباءته على كتفيه وهو يتطلّع إلى كفّيه المدودتين أمام عينيه وهو ينظر إليهما بابتهاج وهناء وابتسام كمن يشاهد وجه الرحمن في صورته وكماله. تراجعت إلى الوراء وانتظرت إلى أن أكمل رؤياه السعيدة، بعدئذٍ فُتح الباب وكان لقائي به للبحث في بعض الأمور الفنية. ثمَّ استودعته حاملاً في عقلي ومشاعري صورة لن أنساها طوال حياتي، رسمتها من مخيّلتي بعد

عودتي من دراستي التي استغرقت ستّ سنوات وعرضتها في معرض حيث نالت الإعجاب الكبير من محبّيه ومؤيّديه. (...) دعاني ذات مرّة للمبيت عنده في المختارة، فبعد تناول العشاء وأثناء تبادل الأحاديث بيننا نهض وغاب قليلاً ثمَّ عاد حاملاً معطفه وألبسني إيّاه، قاصدًا إهداءه لي ولكن عندما رآه كبيرًا عليّ قال: «يا عمّي كبير عليك كثير ومبهبط، ليش أهلك جابوك صغير؟» ضحكنا قليلاً وقلت له: «مبهبط وما بيلبقلي».

هذا هو جنبلاط بتواضعه، ولطفه وتقاربه من الكبير والصغير، من الغني والفقير، من المتعلِّم والجاهل، محبّة الناس عنده كنز ثمين يحافظ عليه بأغلى ما لديه، ويتابع الفنّان وهيب البتديني كلامه عن جنبلاط الحاضن والموجّه والداعم، حيث فاجأه بالسفر من أجل إكمال دراسته في الفنّ فيقول: كان يفاجئني بقوله: «يا عمّي قرّرت أني أخصّصك بالفنّ»، ولكن بعد أن قيل له إنَّ موعد تقديم الطلبات الدراسية إلى فرنسا وإيطاليا قد انتهى قال لي: «هل تحبّ أن تسافر إلى موسكو للدراسة؟» كان من الطبيعي أن أوافق مع تقديم شكري الجزيل وتقديري الكامل، وعندما زرته قبيل سفري لأستودعه قال لي: «إتعب بأن يكون فنّك شرقيًّا، فها أنا قد حفظت وصيّته الحكيمة وأنهيت دراستي بتميّز ونجاح كبيرين، وسأبقى أعمل في هذا الإطار العظيم مرتبطًا بمحيطي الاجتماعي الشرقي والإنساني، وملتزمًا باكتشاف ما يرضي عشّاق الفنّ والخير والجمال»[1].

الروحانيّة التي تحلّى بها جنبلاط، كانت تظهر في جميع أفعاله وأعماله ولو أردنا أن نكتب عن نوادره، وأعماله الخيّرة النبيلة لملأنا

(١) م.س، شجرة الجوز، الصفحات ١٩٣ ـ ١٩٤ ـ ١٩٥.

مجلّدات كثيرة، لأنَّ العفوية والبساطة ومحبّة خلق الله وكلّ ما خلق الله على الأرض وفي السماء، كانت تمثّل حياته بكلّ ما فيها من أدقّ التفاصيل إلى أكبر الأمور وأهمّها. وفي تواضعه وحبّه لمخلوقات الله يروي الأستاذ فؤاد طعمة فيقول:

«يقع بيتنا بمحاذاة طريق فرعية يسلكها كمال جنبلاط إلى أرضه بمحيط البلدة وقد لاحظت شقيقتي أنه يرتدي بنطلونًا (سروالاً) فيه بعض التمزّق، أزعجها ذلك وأثار غيرتها وهي التي تعتبر نفسها الصديقة المرتبطة بأفراد العائلة بالودّ والاحترام المتبادل المتوارث، فتوجّهت يومًا إلى أمّه وأخته متذمّرة محتجّة لارتدائه مثل هذه الثياب المتواضعة، قائلة: أيجوز لشاب سليل العائلة العريقة الملقّب جدّه بعمود السماء أن لا يطلّ بالمظهر المطلوب؟ قطعًا لا! أجابت الأخت بصوت متهدّج، يائس، رجاءً انتظريه وكلّميه مواجهة، لقد حاولنا عبثًا. جاء وكانت المواجهة، وأصغت أختي إلى ما أعطاه من مبرّرات: «المهمّ نظافة الثياب، وإنَّ ما أرتديه لم يحصل صدفة بل اختيارًا اعتمدته ليعلّم الأثرياء الجدد الذين يورّطون البسطاء بالاقتداء بمظاهر لا قيمة لها، والقيمة هي بما ينطوي عليه المرء من قيم ومبادئ. كما أريد التأكيد لأصدقائي الفقراء الذين تجذبهم الأشياء الحديثة أنَّ هنالك أمورًا أجدى علينا العمل من أجلها بجدّية، والحقّ أقول: إنَّ من يتكبّر على العمل بالحقل حفاظًا على مظاهر أنيقة فهو طفيلي فارغ من الداخل، يعيش على حساب المجتمع، بعيد عن فرح العمل، وفرح العطاء».

وتابع الأستاذ طعمة يروي ما لا يحصى من مواقف أذكر بعضها لنأخذ منها العبر: ابنه الوحيد كان طفلاً، يسأله أن يشتري له درّاجة في

عيد ميلاده فيمتنع موضّحًا: «إن استجبت لهذا الطلب فلسوف يتمنّى أطفال المنطقة الذين لا يقوى ذووهم على الشراء أن يكونوا أولاد كمال جنبلاط (...) وعلى مكتبه لائحة تضمّنت هذه العبارات: اعمل كلّ الخير الذي تستطيع، بكلّ الوسائل الممكنة، حيث تيسّر من أمكنة، في كلّ مناسبة سانحة، لكلّ إنسان تستطيع إليه سبيلاً على المدى الزمني المتسنّى لك»[1].

ويتابع الأستاذ طعمة سرده لمواقف جنبلاط، كيف كان يشعر مع مخلوقات الله كلّها، إن كانت نملة أو طائرًا أو حمارًا أو حيّة، حتّى قفير الزراقط على نافذة غرفته.

يقول طعمة:

على باحة المطبخ وغلال القمح وفيرة قد مدّت بعد صولها لتتدافع إليها أرتال من النمل تحمل الحبّة تلو الحبّة، لاحظ المعلّم أحدهم يحاول القضاء عليها، فانتهره، ليوقفه عن إنجاز غايته قائلاً له: «النمل أيضًا له الحقّ بتوفير مؤونته وتأمين معيشته».

وهو الذي كان يغدق على المحتاجين بالأكياس والأطنان من القمح، فهل يعقل أن يبخل على مخلوقات الحقّ وهو الذي أراد وجودها، ويرزقها رزقها، فكلّ المخلوقات لها حقوقها.

«ويتابع طعمة: فقد حدث يومًا أنَّ مجموعة من الشباب، رفاق له، كانوا يتمتّعون بالاصغاء إلى زقزقة عصفور سجين في قفص، وإذ مرّ بهم تأثّر لأمر العصفور مدركًا أنَّ هذا الأخير لم يكن يزقزق، بل

(١) م.س، شجرة الجوز، ص ص. ١٦٤ ـ ١٦٥.

يصوّت طلبًا للمساعدة، أغنياته صرخات ألم. فأسرع كمال جنبلاط إلى الرفاق سائلاً من أسر العصفور؟ من يملك حقّ حجب الحرّية وهي مطلب بالفطرة لكلّ حيّ وتلك الحرّية، كيف لنا أن نطالب بها ونمنعها عن الآخرين، ونحن ننادي بفتح الأبواب والحدود أمام الإنسانية جمعاء؟ كيف لكم التمتّع بآهات هذا الطائر؟ أصغى الرفاق إليه وامتلكهم الشعور بالخطيئة وبعفوية أطلق سراح الطائر ليحلّق متوجّهًا إلى موطن انتمائه.

كما حدث أنَّ جنبلاط الشاب كان يتنزّه مع صحبة له، فشاهد حمارًا مثقلاً بحمل كبير وصاحبه ينهره ويضربه بقسوة، ليزيد من سرعته. أوقف جنبلاط المزارع متناولاً العصا من يده آمراً إيّاه أن ينزل الحمل أرضًا، ففعل، عندها سأله إن كان بإمكانه رفع الحمل والسير به، فأحرج، وبخجل اعتذر من سوء تقديره، تندر الصحبة بما رأوا وتناقل القوم ما جرى، وأصبح المزارعون أكثر شفقة وتحسّسًا بمعاناة كائنات صامتة سخّرت لخدمة بني البشر.

ـ إنّها مسألة نوايا! الأفعى في سفر التكوين من الإنجيل تمثّل العدوانيّة والدهاء. أمَّا بالنسبة للمعلِّم فهي مخلوق لا يؤذي إن لم يطله أحدهم بنيّة سيئة وأذى، لذلك لم يسمح مطلقًا بإيذائها؛ فقد رأى يومًا أحد العمّال يحضر بندقية صيد ليطلق النار على إحداها، فطلب إليه بحزم أن لا يفعل قائلاً: الحيّة إن لم تؤذها لن تؤذيك. كما شوهد صيفًا يسير نحو أفعى التقطت حرباء في فمها وبقي الذيل خارجًا، اقترب منها وبيده غصن شجرة دقيق وأخذ يلمس رأسها برفق تكرارًا إلى أن لفظت الكائن الصغير، وأخذ كلّ منهما طريقه.

ـ قفير زراقط مليء وكثيف علّق على الزاوية العليا من نافذة غرفته سأل اثنين من معاونيه: ما العمل للتخلّص من وجودها؟ اقترح أحدهما إحراقها بواسطة خرقة توضع على رأس عود. الأمر الذي رفضه المعلِّم بالطبع واقترح الآخر الضرب بعنف وسرعة حتَّى يتمّ القضاء على الحشرات؛ وهذا أيضًا لم يقبل به حلاًّ! فباشر بطريقته الخاصّة ملوّحًا بمنشفة موجّهًا الزراقط إلى الخارج؛ ومن الغرابة ما حصل، إذ لذغت الزراقط المساعدين أمَّا هو فلم تمسّه بأذى، عندها سألاه عن سبب هذا التباين أجاب: لقد لذعتما لأنَّ النوايا نحو الحشرات كانت بقصد الإيذاء، أمَّا أنا فلم تكن لي هذه النيّة!»[1].

جنبلاط الذي كان يحبّ عيشة التقشّف والزهد، ويجد نفسه في مثل هذه الأجواء، والحياة جميلة ممتعة عندما تقتصر على ضروريّات وحاجات الحياة، لأنَّ كلّ رغبة تزيد عن الحاجة تنقلب إلى نقمة فكلّما خفّ حمل الإنسان من متاع الدنيا كلّما شعر بالحرّية والسيادة على الذات، هو من موقعه عليه أن يكون القدوة الصالحة لكلّ الناس الأغنياء والفقراء على حدّ سواء، لهذا لم يجلب الدرّاجة لوحيده وليد، وإذا كان المسيح القدوة الصالحة قد غسّل أقدام تلاميذه، فجنبلاط قد ألبس الحذاء لرفيقه الذي يهتمّ بشؤون البيت قبل أن ينتعله بقدميه.

مرافقو جنبلاط يخبرون: « إنَّهم اشتروا له ذات يوم حذاء، سأل عن ثمنه قالوا: ٦٠ ليرة.

ـ مش معقول أني ألبس حذاء بستّين ليرة!

(١) م.س، شجرة الجوز، ص ص. ١٦٦ ـ ١٦٧.

والطريف أنه ألبسه شهرًا لمحمَّد رفيقه الذي يهتمّ بشؤونه في البيت ثمَّ لبسه هو بعد مضي الشهر!»[1].

قد يرى البعض أنَّ حبّ العطاء أمر طبيعي وهناك الكثير من الناس الذين يقومون بمثل هذه الأمور، لكن هل هؤلاء الناس كانوا يحسنون من أموالهم حتَّى على حسابهم وحساب أولادهم؟ وبمعنى آخر هل كان حبّ العطاء متفوّقًا في داخلهم حتَّى على أنفسهم وعيالهم؟

«في عام ١٩٥٦ وبعد الزلزال الذي ضرب البلاد كلّف جنبلاط مرافقه سامي نمّور بإحضار شيك من بيروت إلى المختارة. ذهب سامي إلى بنك مجدلاني وصرف الشيك، لكنّه قبل ذهابه إلى المختارة، عرّج على منزل المعلِّم في بيروت، وسأل السيِّدة إيفون، وهي مربّية وليد، عمّا إذا كانت تريد شيئًا من المختارة. فطلبت منه مبلغًا من المال لدفع القسط المدرسي لوليد وكان الأمر ملحًّا لأنه اليوم الأخير من مهلة التسجيل في المدرسة. فتناول سامي ثلاثمائة ليرة من أصل المبلغ الكبير الموجود معه، وأعطاها إيّاه.

ولدى وصوله إلى المختارة، أخبر جنبلاط بأنه اقتطع من المبلغ ما اقتطعه. فثارت ثائرة المعلِّم، وكانت تلك المرّة الأولى التي ينفجر فيها غضبًا على سائقه الذي رافقه في أصعب المهمّات. أخذ جنبلاط محفظة النقود الكبيرة ورمى بها إلى سقف الغرفة وقال: لقد دنست كرامتي صحيح، الشرقي شرقي! مخصوم عليك خمسين ليرة... وكمان بدك تدفعني ٣٠٠ ليرة.

(١) م.س، التحدّي الكبير، ص.١٥٦.

قال المرافق وهو منحبس الأنفاس مكتئب الوجه طيّب شو فيها؟ هيدي لابنك منشان يتعلّم. فقال: «بيتعلّم أو ما بيتعلّم. هودي الأموال للمصلحة العامّة، والتصرّف فيها جريمة. هودي مساعدة إلى متضرّري الزلزال...»[1].

أعمال جنبلاط الخيّرة الجميلة المثقلة بالعطف واللطف والامتنان تملأ كتبًا ومجلّدات عدّة، وهو الذي تعامل مع الجميع بمنتهى اللطف والذوق، فكيف به مع أغلى الناس وأقرب المقرّبين إليه والمقصود بذلك الأمّ الحنون. وليست الأمّ هي التي تضع مولودًا، بل أيضًا الأمّ هي الحاضنة والمربّية والتي تعمل بإخلاص ووفاء.

«بإعجاب وتقدير يحدّث الأستاذ فؤاد طعمة عن محبّة جنبلاط ودرايته واحترامه لوالدته؛ فلقد حرص الابن على صحّة الأمّ محاولاً توفير أوقات راحة لها وهي التي أرهقتها شؤون الناس، والعمل المتواصل لحلّ مشاكلهم فأعياها المرض. فبذل الوقت والمال عملاً لاستعادة حيويّتها وبحث في كتب الطبّ القديمة ليوفّر لها من الأعشاب ما يمكن أن يشفي. وإذ تفاقمت حالتها الصحّية رافقها إلى المستشفى سان شارل ليواكبها غافلاً عن نفسه، حتّى عن الأكل والشرب، يستمرّ مصلّيًا يطلب بركتها ورضاها يسأل الأطبّاء إمكانيّة سفرها إلى الخارج للمعالجة. وبقي اهتمامه بها حتّى آخر لحظة من عمرها.

ويتابع السيِّد طعمة رواية المزيد ممّا يطلعنا على الإخلاص والوفاء، ومنها الاعتراف للسيِّدة إيفون، المربّية الفرنسية التي اهتمّت بوحيده

(١) م.س، التحدّي الكبير، ص. ١٥٧.

وليد مغدقة عليه العاطفة والإحاطة، لتقديم المطلوب من رعاية صحّية وفكرية واجتماعية. وجنبلاط يلحظ هذا التكرّس مقدّرًا. وعندما توغّلت بالسنّ ووهنت صحّتها سألها إن كانت ترغب العودة إلى موطنها، متكفّلاً بمصاريف السفر، ومعاش تقاعد يصلها ما دامت على قيد الحياة؛ السيِّدة أثارت البقاء في داره كفرد من أفراد العائلة. فرحّب بقرارها، وأعدّت لها غرفة تتضمّن كلّ وسائل الراحة، وما تحتاجه من خدمات، وكان يداوم الاطمئنان عنها متابعًا تطوّرات صحتها، مقدّمًا لها شخصيًّا الغذاء والطبابة والصحف الفرنسية والمجلاّت.

والمربّية الفاضلة ماتت ودُفنت في ضريح قرب ضريح الستّ نظيرة والدته.

ويختم السيِّد طعمة معلّقًا: هكذا كان كمال جنبلاط السيِّد المخلص الوفي فهو رسول دعوة عظيمة، تبارك هو وكلّ من تتبّع خطواته»[1].

جنبلاط خلال حياته ما نسي أحدًا من الناس، خاصّة هؤلاء الناس البسطاء في سرائرهم وضمائرهم، كريمي النفس والأيدي، والبعض منهم كان عاملاً في داره، وهو وإن قبل دعوة لغداء أو أفضل بزيارة لأحد الأشخاص، إلاَّ أنه كان عزيز النفس لأقصى الحدود، محاسبًا لنفسه على الدرهم والدينار، والمقصود أن يكون المدخول بالحلال وبتعبه، ويصرف في أماكن حاجته، وعلى الرغم من كلّ التعب المضني أمام الشعب ومشاكله وتحسين أوضاعه، إلاَّ أنه رأى أنه لا يستحقّ تعويضه من المجلس النيابي. فأعاد ذاك التعويض إلى الصندوق وإذا كان

(١) م.س، شجرة الجوز، ص. ١٦٩.

يرى رغم كلّ الجهود التي قام بها أنه لا يستحقّ التعويض، حينها نقول من يستحقّه إذًا؟!

يقول نبيل هادي:

«حقيقة لا يعرفها إلاَّ القلائل القلائل: في المدّة الأخيرة من حياته كان كمال جنبلاط يجمع مبالغ كبيرة من المال، وسط تكتّم شديد هي المرّة الأولى التي لا يقول فيها ما هو الهدف من هذه الأموال. وهو المعروف عنه أنه لا يتكتّم على شيء خصوصًا في مثل هذه المجالات.

وأخيرًا وبعد بحث وتنقيب، تبيّن أنه يريد أن يردّ إلى صندوق مجلس النوّاب مجموع ما ناله من تعويضات طوال حياته كنائب.

أمَّا تفسير هذه الظاهرة الغريبة والتي بقيت طيّ الكتمان، فهو شعور جنبلاط بأنه لم يقم بموجبات هذه الوظيفة. ونفسه لا تسمح له بأن ينال قرشًا واحدًا من دون مقابل».

والمسألة كما يتابع هادي أبعد من ذلك، عندما يصل كمال جنبلاط، بعد ثلاثين سنة بالضبط من تاريخ محاضراته عن واجباته كنائب، إلى قناعة بأنَّ عليه أن يردّ كامل التعويضات إلى صندوق مجلس النوّاب، فهذا معناه أنَّ السياسي الكبير الذي رافق معارك لبنان السياسية والفكرية والاجتماعية والإعلامية والدستورية منذ العهد الاستقلالي الأول، قد توصّل إلى الاقتناع بأنَّ عدم قيام الحكم اللبناني ـ ومنه مجلس النوّاب ـ بمسؤوليّته التاريخية، قد أدّى إلى عواقب وخيمة من حيث بنية الوطن والشعب، وليس فقط من حيث إهمال مطالب هذا الفريق أو ذاك وهذه المنطقة أو تلك[1].

(١) م.س، التحدّي الكبير، ص ص. ١٠٥ ـ ١٠٧.

حكايات جنبلاط مع الموت كثيرة، فالموت الذي يقهر البشرية جمعاء وتخاف منه معظم الناس، ما كان يأبه له جنبلاط لأنه كان يعلم أنه الوقت الذي يحين فيه موعد الرحيل لا بدَّ سيرحل، فلقد مرّ خلال حياته السياسية ومواقفه الصارمة، العديد من المواقف الحرجة، والرصاص ينهمر عليه وعلى من يرافقه، فكان يقف أمام الجميع ليقول ما تخافوا من الموت طالما لم تأتِ الساعة بعد فلن يموت الواحد منّا لو نزل عليه كلّ الصواريخ والطائرات.

"في اليوم الذي سبق استشهاده في ١٥ أذار، كان جنبلاط يقول لمجموعة من أهالي مزرعة الشوف ووجهائها، إنَّ خطّه سليم ولم يتزحزح "بدهم يقضوا عليّ حتَّى يقضوا على فكري". وقبلها بيومين كان يقول في مأتم في الشوف إنَّ الإنسان يشمّ رائحة الموت قبل ثلاثة أيام. وتحققت النبؤة.

الشيخ عبد الله العلايلي، أحد رفاق جنبلاط في تأسيس الحزب، يروي كيف أنه كان مع المعلّم في سيّارته في الطريق إلى زحلة في ١٥ تمّوز ١٩٥١ لافتتاح فرع هناك، فقطع جنبلاط الحديث وراح يتمتم قائلاً: أتعرف أنني سأموت قتلاً؟ فضحك الشيخ عبد الله واستفسر عن الأمر فأجابه جنبلاط دون أن تتغيّر نظرته الشرود وابتسامته: إنَّها دخيلة نفسي تساورني بهذا الحسّ مساورة ـ إن حسبته حدسًا أو يقظة أو وسواس غد مجهول، لا أدري ـ ولكنّني أراه كشيء مسطور.

ثمَّ عندما انتبه جنبلاط إلى انفعالات محدّثه، عمد إلى تغيير الموضوع والعودة إلى ما انقطع من حديث.

وتعود ذاكرة الشيخ عبد الله إلى أيام مهرجان الباروك، بعد ذلك بسنة من الزمن، والذي كان من الأمثلة البارزة في التحدّي والثبات الداخلي الذي زخرت به حياة جنبلاط، وقد حضره أكثر من عشرين ألفًا، فيقول: «وفي أثر افتتاح المهرجان ووقوف الفقيد الشهيد بقامته الفارعة ليخطب، حتَّى انهمر عن التلال المحيطة وابل من الرصاص أصاب بعضه ثلاثة من الحضور. وكاد الهرج والمرج يسود الجمع المحتشد... ولكن تماسك الخطيب الذي لم يطرف له جفن ولم يتلجلج له لسان كأنَّ شيئًا لم يقع، استقطب الجماهير حوله كمجال مغناطيسي واستلّ مخاوفهم وأنقذ المهرجان وفت في عضد خصومه...»[1].

هذا هو كمال جنبلاط الصلب، المقاوم، الجريء، المتمرّد، وأول تمرّد له كان على انتمائه الطبقي والعمل من أجل الفقراء والبائسين والمساكين، من أجل الإنسان أولاً وأخيرًا لأنه يدرك تمامًا أنه لا يمكن أن تكون سعيدًا أو تشعر بشيء من السعادة دون العمل من أجل الجماعة، فالابتسامة التي ترتسم على وجه مسكين أو جائع... إنَّما هي مصدر فرح كبير، ولو جمعت أموال العالم كلّه لا توازي هذا الفرح وهذه السعادة، اللذان هما مطلب الروح، التي تشعر معهما بالسلام والاطمئنان، فكلّما زادت الرغبات خفّ الفرح وكلّما قلّت الرغبات ازداد الشعور بالفرح والسعادة، والرضى الداخلي، وهو الذي عمل طوال حياته مراقبًا لنفسه وأعماله حتَّى آخر الدقائق من عمره. وهو خارج من منزله أعطى محمَّد مغلّفًا فيه تعويض عامل اشتغل عنده لسنوات.

(١) م.س، التحدّي الكبير، ص ص. ١٨٩ ـ ١٩٠.

يقول نبيل هادي: «ولدى نزوله إلى الباحة، توقّف وأومأ لمحمَّد وقال: في هذا المغلّف مبلغ من المال خصّصته لفلان، وقد اشتغل سنوات طويلة عندنا في المختارة ويجب تأمين مستقبله، لا تنسى هذا الشيء»[1].

الروحانيّة نبعة أصيلة متأصّلة في الذات، إنّها الشعاع الذي نستمدّ منه الحياة، نستمدّ منه الفرح والسعادة، نتعرّف من خلاله على الذات التي تحمل سرّ الوجود وسرّ الكون العظيم، لكنَّ كلّ إنسان يستشفّ هذه الروحانيّة بدرجة تختلف عن الآخر، فالوعي والمعرفة والتطلّع الدائم إلى الحكمة إلى وجه الحقّ يجعل هذه الروحانيّة تتكشّف أكثر فأكثر للمريد، وعلى قدر الصفاء الداخلي والتخلّي المتجرّد عن الأنانيّة القاتلة والعمل من أجل يقظة الأنا الجوهرية، يجعل من طاقات هذه الروحانيّة أكثر انفتاحًا وتحقّقًا، والفكر عندما يتعرّف على المعرفة يصبح كمن زرع بذرة في الأرض، فإذا حصلت على قطرة ماء أو بعض الندى لا بدَّ ستبدأ بالتفتّح والتجذّر، لهذا يتميّز إنسان عن آخر وتتميّز تفتّح روحانيّة هذا الإنسان عن ذاك، وتأتي الأعمال لترجم عمّا تكنّه الذات من سموّ ورقيّ ومعرفة وروحانيّة أصيلة قلّ نظيرها بين البشر.

الاختبار الروحاني ـ الصوفي في حياة كمال جنبلاط، كوّن حياته وكان مصدر قوّته وقدراته في شتّى المجالات، وما كتبته عن هذا الاختبار يبقى قطرة من غدير مليء بالاختبارات والأعمال والأفعال التي تخبر عن هذه الروح السامية المتعالية أبدًا عن الصغائر، والتي ترى الحقّ في كلّ الوجود وفي العمل الشريف الحسن، وتتوق أبدًا لرحابة وجنّات

(١) م.س، التحدّي الكبير، ص. ٢١٨.

خلده بالعودة إلى حيث الأزل، حيث التوحيد والاتّحاد، لتعود إلى خالقها راضية مرضية.

كانت تلك بعض الصفحات لا أكثر من حياة كمال جنبلاط ـ وفي وسعك أن تجد العشرات مثلها ـ اكتفيت بها لأنها أوضحت كما أعتقد مقدار تغلغل القيم الروحانيّة والصوفية في الحياة اليومية العادية لكمال جنبلاط. ولا حاجة للقول إنَّ معايشة الروح والقيم الصوفية في حياة صاخبة بالسياسة والأحداث المتسارعة كحياة كمال جنبلاط هي أصعب حتَّى من تلك التي يحياها الزاهد أو المتصوّف في عزلته والتي يسهل فيها ما يصعب في الحياة اليومية.

لقد اختار جنبلاط الحياة والعمل بين الناس في الغالب ـ والقليل في معتزله ـ ولكنّه في الحالين كان متصالحًا مع قيم الروح والتصوّف، ممارسًا لهما في الحدّ الأقصى الممكن في الحياة العملية لسياسي ونائب ووزير وقائد حزبي ووطني وعالمي.

قيم الروحانيّة والتصوّف لكمال جنبلاط لم تكن إذًا مسألة ترف فكري، أو تجربة مجرّدة، وإنَّما حياة كذلك.

# الخاتمة

## عناوين الروحانيّات والتصوّف في فكر كمال جنبلاط

يولد الإنسان وتولد معه طباع معيّنة، هذه الطباع تكون بذور الشخصية الأولية، وهذه الصفات والسمات كانت بادية على حياة جنبلاط الصغير، فعدم الإفراط في الرقّة والحنان والصمت والانطوائية ليست صفات مكتسبة بالنسبة لطفل ابن أربع سنوات، بل هي سمات طبيعته الحقيقية، ثمَّ تأتي الحياة العملية الاجتماعية بدءًا من البيت وصولاً إلى المدرسة والجامعة، ثمَّ الدخول في معترك الحياة الصاخبة كلّ هذا كوّن حياته بإطارها العامّ، والملاحظ أنَّ هذا التحفّظ استمرّ معه طوال أيام حياته، فهو أثناء دراسته في فرنسا لم يكن مثل رفاقه يرغب في اللهو والسينما والسهر في مرابع باريس الليلية. المراحل الأولى من الدراسة والجامعة كوّنت شخصيّة وفكر كمال الشاب المتفتّح على الحياة والوجود، متّخذًا المعرفة السلاح الأقوى وحبّ الاطّلاع الواسع والذي يبدو وكأنه بلا حدود.

بالعودة إلى إشكاليّات وفرضيّات الرسالة، نؤكّد بأننا التزمنا بكلّ ما طرح سابقًا، مع إضافات مهمّة، نذكر منها المقارنة بين المتصوّف ابن عربي وكمال جنبلاط، وأيضًا الاختبار العملي في حياة كمال جنبلاط، وأجبنا على أسئلة البحث والتي كان موضوعها الأساس الروحانيّة والتصوّف في فكر كمال جنبلاط.

وكيف كانت هذه الروحانيّة نقطة مركزية أساس في حياته، لا بل كانت المحرّك الأول لحياته عامّة، وهكذا توصّلنا من خلال البحث والتحليل إلى النتائج التالية:

إنَّ النزعة الصوفية في فكر جنبلاط، نظراته التأمّلية، للوجود والطبيعة كانت متأصّلة في داخله منذ الصغر، هذه النزعة هي النقطة المركزية هي المحور الأساس لكلّ توجّهاته، حيث كانت من نسيج خاصّ غير منقطع عن حياته، وذاته وممارسته اليومية.

كان جنبلاط ومن خلال قيامه بالعملية التأمّلية الجذرية يرتقي وترتقي روحه وتزيد رغبتها في المعرفة للوصول إلى "وحدة الانجذاب المتعالي الأخير لبعض قمم هذا التلاقي الرائع في الحبّ الإلهي، مقام رفيع غير معروف في مستويات الأخرى للتطوّر"[1].

وجد جنبلاط أنَّ جوهر الأديان واحد والبحث عن الحقّ، عن الحقيقة، عن الله، عن البرهمان، عن المطلق سمه ما شئت، كما يقول، المهمّ أن تكون أيها الإنسان مصمّمًا على الوصول مداومًا قرع الباب حتَّى يحين الوقت ويفتح لك، مهما تعدّدت الطرق والوسائل للوصول يقول: "فكلّ طريق يلجّها المؤمن المتطهّر هي طريق الله فيجب علينا أن نعبد الله، وأن لا نتعبّد الطريق والوسيلة والنهج الذي يوصل أبناء هذا العالم بالكائن الواحد القادر. والله لا يفتّش عنه في سماء ولا هو في أرض ينبش عنه، إنَّما هو الباطن القائم في أعماق أسرارنا الكامنة في ذاتنا، فإذا ما أشرفت النفس على بحار السعادة والكينونة أدركت وحدتها مع ذات الوجود، أدركت وحدة الوجود".

(١) م.س، فيما يتعدّى الحرف، ص.٢٢.

معرفة الله والوصول إليه تتطلّب كفاحًا متواصلاً وهو القائل بحثنا عنك في كلّ مكان وفي كلّ أين وعدنا ووجدناك في الذات.

المسيحيّة نمّت فكر جنبلاط باتّجاه الأسمى والأبقى، أعطته المحبّة لكلّ الكائنات وخاصّةً الإنسان اتّجاه أخيه الإنسان، المسيحيّة علّمته معنى التسامح والغفران، علّمته الزهد والتقشّف من خلال وصف مظهر المسيح الخارجي، وبأنَّ الجوهر أساس الحياة لا المظاهر الخادعة الفانية. المسيحيّة علّمته العمل لأنَّ الكسل مصدر الرذائل، وعلّمته روح المشاركة الحقيقية، علّمته المسيحيّة معنى التطوّر باتّجاه الحياة والحرّية والانعتاق، لهذا أسّس الحزب الاشتراكي.

رأى في المسيحيّة روح المحبّة والتآخي والتضحية بالأنانية الفردية والعمل من أجل الجماعة ورفع مستوى الفرد ومن أجل تحقيق المساواة ما أمكن بين الطبقات الاجتماعية، وأحبّ جنبلاط في روح المسيح حبّ التسامح والغفران، وتنكّر للضعف المتواضع وللتواضع المتخاذل مؤكّدًا أنَّ الروح وحده ينقذ.

الإسلام علّمه التحلّي بالخصال الحميدة، وحبّ الإخوان، والصدقة وحبّ اليتيم، حيث الصدقة لليتيم تفتح لفاعل الخير أبواب الجنّة. أخذ جنبلاط من الإسلام فكرة لا إكراه في الدين مؤكّدًا هذا بكلام لهرمس عن الكفر والكافرين فيقول: «وما كفره هذا إلاَّ سيصيره مؤمنًا».

علّمه الإسلام عدم التعلّق بخيرات الدنيا متّخذًا الآية الكريمة: ﴿لله ما في السموات والأرض...﴾، وطريق الإسلام ترشد الإنسان إلى الحقّ إلى التوحيد، وذلك من خلال الآية الكريمة:﴿وفي أنفسكم فلا

تبصرون﴾، ﴿ومن عرف نفسه عرف ربّه﴾. هو الحقيقة الأولى والأخيرة والتي تستحقّ منا المعرفة بكمالها.

وفي الإسلام والقرآن الكريم، والآيات البيّنات، وجد التسامح والرضى والتسليم، وأكثر ما آثار إعجابه احترام الإنسان والأديان الأخرى. «والإسلام لم يحتكر منذ نشأته مسلكًا ولا ادعَّى الانفراد بالوحي، ولم يغلق السماء في وجه أحد، إنَّما جمع بين الكتب السماوية جميعها، فالإنجيل والتوراة والقرآن وسواها من رسالات الأقدمين كتابه... إنَّما هدف إلى الإصلاح إلى العودة إلى دين ابراهيم الجامع الأصيل»[1].

مصدر آخر لروحانيّة جنبلاط غير المستقاة من الأديان، هناك الأدب والشعر، الفلسفة والتصوّف، واليوغا، وأكثر ما أثّر به وبفكره الحضارة الهندية والفكر الهندوكي، حيث استنار بنور الوعي، بفضل معلّمه شري أتمانندا مرشده الأول إلى المعرفة إلى الذات حيث وجد أنَّ الوعي أساس الحياة والسعادة، هو نور الإيمان، تمامًا يقابلها عند سقراط مقولته الشهيرة «إعرف نفسك».

تعرّف إلى اليوغا ورياضاتها الروحية والجسدية، وكتب عن معظم أنواعها، وكان في كلّ بحوثه قاصدًا الحقيقة والكشف عنها.

في وحدة الأديان سمة جوهرية أصيلة ثابتة لا تتغيّر ولا تتبدّل إنّها رأس الحكمة في كلّ كتاب سماوي، إنَّه الجوهر القدّوس الحاضن والحامي والحارس لكلّ الوجود، إنَّه التوحيد إنَّه الواحد الأحد.

(١) م.س، بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، ص. ٢٥.

سعى جنبلاط خلال رحلته القصيرة في الحياة الدنيا، يبحث عن الحقيقة عن الأسمى والأبقى حيث الخلود حيث الأزل. وهذا الوعي جعله مثابرًا دون كلل أو ملل للوصول إلى التحقّق، للغنوص في أتمانه العظيم، مدركًا سرّه وأسرار الوجود، فيغيب في التأمّل الداخلي مبتهجًا في اكتشاف الوحدة، المفضي إلى التوحيد، والاستقرار بالحقّ.

هذه المعرفة وهذه الثقافة كانت تغذّي روحانيّة جنبلاط ونزعته الصوفية، مع كبيرين من فلاسفة وعظماء الزمن المعاصر وهما المهاتما غاندي والأب تيلار دي شاردان. المهاتما غاندي كان له الأثر الكبير في حياة جنبلاط منذ أيام الدراسة في عينطورة، والأب دي شاردان فلسف العلم في نظريّات مهمّة وذلك من مستوى الذرّة حتَّى التركيب الإنساني الذي يبرز فيه الوعي والعقل.

روحانيّة جنبلاط لها جذور عميقة مستقاة من الحكمة التوحيدية حيث العودة إلى نقطة البيكار إلى العقل الأرفع، إلى النور الأول الذي ينزل إلى بيوت قلوبنا ومعارج هذه النفس الشريفة المنبعثة من نوره التي لا تنفصل عنه، هو الصورة البسيطة والفيض اللطيف والإرادة الإشراقية الرفيعة.

عرف جنبلاط أنَّ التطوّر الروحي لا بدَّ أن يلازمه تطوّر مادّي، فالجسد بيت الروح وينبغي الاهتمام بالجسد وحاجاته الضرورية. فعلى قدر صفاء زجاجة القنديل يسطع النور وتظهر هذه الشفافيّة في صورة الوجه.

أمَّا التصوّف فوجد فيه دروبًا متنوّعة تقود إلى اكتشاف الحقيقة والوعي المحض، وهو الذي أحبّ التصوّف وسعى إليه منذ الصغر، فالتصوّف درب حبّ وتفاني في العبادة وهي توصّل القلب إلى أجواء طاهرة قدسيّة.

النزعة الصوفية في فكر جنبلاط جعلته يتميّز عن غيره، وجعلت قدراته الفكرية تفوق قدرات الآخرين، فبرز بمعرفته الموسوعية، وذكائه الحادّ، ونشاطه العظيم وعقله الثاقب المتنوّع الغني، حيث استطاع الجمع بين العلم والتصوّف، وبين الدين والفلسفة. ومن يقرأ جنبلاط لا يمكن أن يكون هو ذاته بعد جنبلاط.

حبّ جنبلاط للإشراق للمعرفة، لم يقتصر على الأديان إنَّما بحث عن هذا النور الحقيقي في الفلسفات القديمة. ويقول جنبلاط عن اطّلاعه في ما كتبه المتصوّفة العرب المسلمون، وعن الحالات التي مرّوا بها، وعن النشوة السعيدة في المشاهدة، بأنَّ الذي يسكن حشاشة القلب واحد، وهذا ما قال عنه كبار المتصوّفة بأنهم لم يروا في الوجود إلاَّ الواحد الأحد، لهذا نجد تقاربًا كبيرًا بين جنبلاط وابن عربي فيما كتبه الرجلان في العديد من الموضوعات، لكن أهمّها وحدة الوجود، ووحدة الأديان، حيث يتّبعان قول القرآن الكريم: ﴿فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾، (وإياما تعبدوا فإنّكم لا تعبدون سواه).

شغل جنبلاط العالم بأسره بقدراته وسعة اطّلاعه، وأيضًا أعماله واختباراته الروحانيّة، التي تنمّ عن سموّ ورفعة في القدر والقيمة لهذه الروح، هذه الروح التي تجاوزت الحدود الضيّقة وسبرت غور الأعماق

لتدرك أنَّ النيّات ينبغي أن تترجم بأعمال صالحات، وهذه الأعمال يتوجّه بها جنبلاط لكلّ كائنات الطبيعة، من بشرٍ وحيوان ونبات.

فكان العمل، فرح، عطاء، نعمة وهبها الله لنا وهنيئًا لمن استطاع تحقيقها على أرض الواقع، فنحن وجدنا بإرادةٍ إلهية، ومن يحترم الحقّ يحترم موجوداته إيًّا تكن هذه الموجودات.

شُغل جنبلاط في حبّ الإله وحبّ الحقيقة حتَّى انمحى وجوده الظاهر مستغرقًا في روحه منبع روحانيته، فأكمل دائرة وجوده وعاد إلى نقطة البيكار حيث تنحلّ كلّ المادّيات والازدواجيّات ويغرق في نعيم الأزل مدى الأبد.

# المصادر والمراجع

## ١ـ المصادر من كمال جنبلاط


ـ آفاق نورانيّة، الطبعة الأولى، الدار التقدّمية، المختارة: ٢٠٠٣.

ـ الحياة والنور، الطبعة الثانية، الدار التقدّمية، بيروت: ١٩٨٧.

ـ أدب الحياة، الطبعة الرابعة، الدار التقدّمية.

ـ الحكيم ليس لديه موت، النهار، ١٩٧٤/٧/١٢.

ـ السلام، الطبعة الثانية، الدار التقدّمية، بيروت: ١٩٨٧.

ـ الفلسفة واليوغا في بلاد الحكماء، الطبعة الأولى، الدار التقدّمية، المختارة: ٢٠٠٥.

ـ بين جوهر الإبداع ووحدة التحقّق، الطبعة الأولى، الدار التقدّمية، المختارة: ٢٠٠٥.

ـ ثورة في عالم الإنسان، لجنة تراث القائد الشهيد، ١٩٧٨.

ـ Kamal Jumblat-Démocratie nouvelle, éd. Du psp Beyrouth 1956

ـ ربع قرن من النضال، الطبعة الثانية، الدار التقدّمية، بيروت: ١٩٨٧.

ـ فرح، الطبعة الثانية، لجنة تراث الشهيد، ١٩٨٧.

ـ فلسفة العقل المتخطّي ـ فلسفة التغيير ـ الجدليّات، الطبعة الأولى، الدار التقدّمية، المختارة: ٢٠٠٣.

ـ فيما يتعدّى الحرف، الطبعة الثالثة، الدار التقدّمية، بيروت: ١٩٨٧.
ـ من أجل المستقبل، الطبعة الثانية، الدار التقدّمية، بيروت: ١٩٨٧.
ـ نكون أو لا نكون، الطبعة الثالثة، الدار التقدّمية، بيروت: ١٩٨٧.

## ٢ـ المراجع عن كمال جنبلاط

ـ أبو علوان عابد، نازك، شجرة الجوز، الطبعة الأولى، الدار التقدّمية، المختارة: ٢٠٠٥.
ـ تيموفييف، إيغور، كمال جنبلاط الرجل الأسطورة، الطبعة الثانية، دار النهار: ٢٠٠٠.
ـ سليم، رياض، التقاطع المعرفي بين ميخائيل نعيمة وكمال جنبلاط، الطبعة الأولى، الدار الوطنية للدراسات: ١٩٩٨.
ـ شيّا، محمَّد، كمال جنبلاط... لزمن آخر، الطبعة الأولى، دار النهار: ٢٠٠٧.
ـ غوش، قيس، كمال جنبلاط واليوغا والحكمة الهندية، الطبعة الأولى، جروس برس: ١٩٩٥.
ـ هادي، نبيل، التحدّي الكبير، الطبعة الرابعة، الدار التقدّمية، بيروت: ١٩٨٧.

## ٣ـ المراجع العامّة

ـ Sri Krishna Menon - Atmananodopanishat 1946.
ـ ابن عربي، محي الدين، الفتوحات المكيّة، الهيئة المصرية العامّة للكتاب: ١٩٧٤، السفر٣.

ـ ابن عربي، محي الدين، رسائل ابن عربي، الطبعة الأولى، دار صادر: ١٩٩٧.

ـ الحكيم، سعاد، المعجم الصوفي، الطبعة الأولى، دندرة للطباعة والنشر: ١٩٨١.

ـ عفيفي، أبو العلا، التصوّف ـ الثورة الروحية في الإسلام، دار المعارف.

ـ عفيفي، أبو العلا، فصوص الحكم، لا ط، دار الكتاب العربي، ١٩٤٧.

ـ محمَّد، قاسم، المدخل إلى مناهج البحث العلمي، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية: ١٩٩٩.

# فهرست المحتويات


- كلمة شكر ٥
- مقدّمة ٧
- المفاهيم والمصطلحات ١٥
- الفصل الأول: كمال جنبلاط ١٩
  - ـ حياته ٢١
  - ـ مراحل دراسته ٢٦
  - ـ ثقافته وروحانيّته ومصادرهما ٣٦
    - ـ ثقافته ومصادرها ٣٦
    - ـ روحانيّته ومصادرها ٤٠
- الفصل الثاني: الدين والأديان في فلسفة جنبلاط ٥١
  - ـ مفهوم كمال جنبلاط للدين ٥٣
  - ـ المسيحيّة ٦٧
  - ـ الإسلام ٧٩
  - ـ الهندوسيّة ٨٨
    - أ ـ اليوغا ٩٩
    - ب ـ الأتمان نور الوعي ١٠٦
  - ـ وحدة الأديان ١١٢
- الفصل الثالث: الصوفيّة في فكر كمال جنبلاط ١١٧
  - ـ الحقيقية أولاً وأخيرًا ١١٨
  - ـ الاهتمام بالجسد جزء من أدب الحياة ١٣٤
  - ـ المعلوم الشريف (الحكمة) ١٤٥

• **الفصل الرابع: كمال جنبلاط والمتصوّفة المسلمون** ١٥٩
**ـ كمال جنبلاط والمتصوّفة العرب والمسلمين** ١٦٠
**ـ كمال جنبلاط وابن عربي** ١٧٦
**أ ـ في وحدة الوجود** ١٧٦
**ـ في العقل الأول** ١٧٨
**ب ـ وحدة الأديان** ١٨٠
ـ في مكانة المسيح الروحانية ١٨٠
ـ في المشاهدة ١٨٣
ـ في المعرفة الحقّة ١٨٦
ـ أسباب الغموض في التعبير ١٨٧
ـ بين الكثيف واللطيف ١٨٩
**ـ الاختبار الروحاني ـ الصوفي في حياة كمال جنبلاط** ١٩٤
• **الخاتمة** ٢١٧
• **المصادر والمراجع** ٢٢٤
• **فهرست المحتويات** ٢٢٧